مـقـدّمـة ابـن خـلـدون

PROLÉGOMÈNES

D'EBN-KHALDOUN

TEXTE ARABE

PUBLIÉ, D'APRÈS LES MANUSCRITS DE LA BIBLIOTHÈQUE IMPÉRIALE,

PAR M. QUATREMÈRE.



TOME DEUXIÈME

LIBRAIRIE DU LIBAN

Place Riad Solh

BEYROUTH

مُقَدِّمَة

ابْن خَلْدُون

وَهِيَ الجُزْء الأول مِن كِتَاب العِبَر وَديوَان المُبْتَدإِ والخَبَر ...

تأليف

عبد الرحمن بن محمّد بن خلدون

بتحقيق

المستشرق الفرنسي

ا . م . كاترمير

عن طبعة باريس سنة ١٨٥٨

المجلّد الثّاني

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصّلح
بيروت

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح
بيروت

١٩٧٠

مقدمة ابن خلدون

PROLÉGOMÈNES

D'EBN-KHALDOUN

TEXTE ARABE

PUBLIÉ, D'APRÈS LES MANUSCRITS DE LA BIBLIOTHÈQUE IMPÉRIALE,

PAR M. QUATREMÈRE.

TOME PREMIER. — DEUXIÈME PARTIE.



PARIS.
BENJAMIN DUPRAT,
LIBRAIRE DE L'INSTITUT IMPÉRIAL DE FRANCE,
RUE DU CLOÎTRE SAINT-BENOÎT, 7.
M DCCC LVIII.

Tirage à part des *Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothèque impériale*, publiés par l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres.

PARIS. — TYPOGRAPHIE DE FIRMIN DIDOT FRÈRES FILS ET C[ie],
IMPRIMEURS DE L'INSTITUT IMPÉRIAL DE FRANCE,
rue Jacob, 56.

مقدّمة ابن خلدون

PROLÉGOMÈNES

D'EBN-KHALDOUN.

DEUXIÈME PARTIE.

فصل فى مراتب الملك والسلطان والقابها

اعلم ان السلطان فى نفسه ضعيف يحمل امرا ثقيلا فلا بدّ له من الاستعانة بابناء جنسه واذا كان يستعين بهم فى ضرورة معاشه وساير مؤنه فما ظنّك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله فى خلقه وعباده وهو محتاج الى حماية الكافة من عدوهم بالمدافعة عنهم والى كفّ عدوان بعضهم عن بعض فى انفسهم بامضاء الاحكام الوازعة فيهم وكفّ العدوان عنهم فى اموالهم حتى باصلاح سابلتهم والى حملهم على مصالحهم وما تعمّهم به البلوى فى معاشهم ومعاملاتهم من تفقّد المعايش والمكاييل

والموازين حذرا من التطفيف والى النظر فى السّكة لحفظ النقود التى يتعاملون بها من الغشّ والى سياستهم بما يريده منهم من الانقياد له والرضى بمقاصده فيهم وانفراده بالمجد دونهم فيتحمل من ذلك فوق الغاية من معاناة القلوب قال بعض الاشراف من الحكماء لمعاناة نقل الجبال من اماكنها اهون على من معاناة قلوب الرجال (ثم) الاستعانة اذا كانت باولى القربى من اهل النسب او التربية والاصطناع القديم للدولة كانت اكمل لما يقع فى ذلك من مجانسة خلقهم لخلقه فى الاستعانة قال تعالى اجعل لى وزيرا من اهلى هرون اخى اشدّد به ازرى واشركه فى امرى وهو اما ان يستعين فى ذلك بسيفه او بقلمه او برايه ومعارفه او بحجابه عن الناس ان يزدحموا عليه فيشغلوه عن النظر فى مهمّاته او يدفع النظر فى الملك كله اليه ويعوّل فى كفايته فى ذلك واضطلاعه به فلذلك قد توجد لرجل واحد وقد تفترق فى اشخاص وقد يتفرّع كل واحد منها الى فروع كثيرة كالقلم يتفرّع الى قلم الرسايل والمخاطبات وقلم الصكوك والاقطاعات والى قلم المحاسبة وهو صاحب الجباية والعطاء وديوان الجيش وكالسيف يتفرّع الى صاحب الحرب وصاحب الشرطة وصاحب البريد وولاية الثغور (ثم) اعلم ان الوظايف السلطانية فى هذه الملّة الاسلاميّة مندرجة تحت الخلافة

لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدّمناه فالاحكام الشرعيّة متعلقة بجميعها وموجودة لكل واحدة منها فى ساير وجوهها لعموم تعلّق الحكم الشرعى بجميع افعال العباد فالفقيه ينظر فى مرتبة الملك والسلطان وشروط تقليدها استبدادا على الخلافة وهو معنى السلطان او تفويضا منها وهو معنى الوزارة عندهم كما ياتى فى حدود نظره فى الاحكام والاموال وساير السياسات مطلقا او مقيّدا وفى موجبات العزل ان عرضت وغير ذلك من معانى الملك والسلطان وكذا فى ساير الوظايف التى تحت الملك والسلطان من وزارة او جباية او ولاية لا بدّ للفقيه من النظر فى جميع ذلك لما قدّمناه من انسحاب حكم الخلافة الشرعيّة فى الملّة الاسلاميّة على رتبة الملك والسلطان الا ان كلامنا فى وظايف الملك والسلطان ورتبه انما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر لا بما يخصّها من احكام الشرع فليس من غرض كتابنا كما علمت فلا نحتاج الى تفصيل احكامها الشرعيّة مع انها مستوفاة فى كتب الاحكام السلطانية مثل كتاب القاضى ابى الحسن الماوردى وغيره من اعلام الفقهاء فان اردت استيعابها فعليك بمطالعتها هنالك وانّما تكلّمنا (1) فى الوظايف الخلافية وافردناها لنميّز بينها وبين

(1) Man. B. تكلفنا.

الوظايف السلطانية فقط لا لنحقق (1) احكامها الشرعيّة فليس من غرض كتابنا فانّا انّما نتكلّم فى ذلك بما تقتضيه طبيعة العمران فى الوجود الانسانى والله الموفّق (الوزارة) وهى امّ الخطط السلطانية والرتب الملوكية لان اسمها يدلّ على مطلق الاعانة فان الوزارة ماخوذة اما من الموازرة وهى المعاونة او من الوزر وهو الثقل كانه يحمل مع مفاعله اوزاره واثقاله وهو راجع الى المعاونة المطلقة وقد كنّا قدّمنا فى اول الفصل ان احوال السلطان وتصرّفاته لا تعدو اربعة انحاء لانها اما ان تكون فى امور حماية الكافة واسبابها من النظر فى الجند والسلاح والحروب وساير امور الحماية والمطالبة وصاحب هذا هو الوزير المتعارف فى الدول القديمة بالمشرق ولهذا العهد بالمغرب واما ان تكون فى امور مخاطباته لمن بعد عنه فى المكان والزمان وتنفيذه الاوامر فيمن هو محجوب عنه وصاحب هذا هو الكاتب واما ان تكون فى امور جبايته للمال وانفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه ان يكون بمضيعة وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية وهو المسمى بالوزير لهذا العهد بالمشرق واما ان تكون فى مدافعة الناس ذوى الحاجات عنه ان يزدحموا عليه فيشغلوه عن مهمّه وهذا راجع لصاحب الباب الذى يحجبه فلا تعدو احواله

(1) Man. A. et B. لتحقق. D. لتحقيق.

هذه الاربعة بوجه وكل خطّة او رتبة من رتب الملك والسلطان فاليها ترجع الا ان الارفع منها ما كانت الاعانة فيه عامّة فيما تحت يد السلطان من ذلك الصنف الذى هو يقتضى مباشرة السلطان دايما او مشاركته فى كل صنف من احوال ملكه واما ما كان خاصّا ببعض الناس او ببعض الجهات فيكون دون الرتبة الاخرى كقيادة ثغر او ولاية جباية خاصّة او النظر فى امر خاصّ كحسبة الطعام او النظر فى السكّة فان هذه كلها نظر فى احوال خاصّة فيكون صاحبها تبعا لاهل النظر العامّ وتكون رتبته مرؤسة لاولئك وما زال الامر فى الدول قبل الاسلام هذا حتى اذا جاء الاسلام وصار الامر خلافة فذهبت هذه الخطط كلها بذهاب رسم الملك الا ما هو طبيعى من المعاونة بالراى والمفاوضة فيه فلم يمكن زواله اذ هو امر لا بدّ منه فكان صلى الله عليه وسلم يشاور اصحابه ويفاوضهم فى مهمّاته العامّة والخاصّة ويختصّ مع ذلك ابابكر بخصوصيّات اخرى حتى كان العرب الذين عرفوا الدول واحوالها فى كسرى وقيصر والنجاشى يسمون ابابكر وزيره ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين المسلمين لذهاب رتبة الملك بسذاجة الاسلام وكذا عمر مع ابى بكر وعلى وعثمان مع عمر واما حال الجباية والانفاق والحسبان فلم يكن عندهم برتبة لان القوم كانوا عربا

امّيين لا يحسنون الكتاب ولا الحساب فكانوا يستعملون في الحسبان اهل الكتاب او افرادا من موالى العجم ممن يجيده وكان قليلا فيهم واما اشرافهم فلم يكونوا يجيدونه لان الامّية كانت صفتهم التى امتازوا بها وكذا حال المخاطبات وتنفيذ الامور لم يكن عندهم رتبة خاصّة للامّية التى فيهم والامانة العامّة فى كتمان القول وتاديته ولم تحوج السياسة الى اختياره لان الخلافة انّما هى دين وليست من السياسة الملكية فى شئ وايضا فلم تكن الكتابة صناعة فيستجاد للخليفة احسنها لان الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بابلغ العبارات ولم يبق الا الخطّ فكان الخليفة يستنيب فى كتابه متى عنّ له من يحسنه واما مدافعة ذوى الحاجات عن ابوابهم فكان محظورا بالشريعة فلم يفعلوه فلما انقلبت الخلافة الى الملك وجاءت رسوم السلطان والقابه كان اول شئ بدئ به فى الدولة شأن الباب وسدّه دون الجمهور لما كانوا يخشون على انفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلى وبمعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم مع ما فى فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمّات فاتّخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب وقد جاء ان عبد الملك لما ولى حاجبه قال له وليتك حجابة بابى الا عن ثلاثة المؤذن للصلاة فانه داعى الله

وصاحب البريد فامر ما جاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد (ثم) استفحل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين فى امور القبايل والعصايب واستيلافهم واطلق عليه اسم الوزير وبقى امر الحسبان فى الموالى والذمّيّين واتّخذ للسجلّات كاتب مخصوص حوّطه على ساير اسرار السلطان ان تشتهر فتفسد سياسته مع قومه ولم يكن بمثابة الوزير لانه انما احتيج له من حيث الخطّ والكتاب لا من حيث اللسان الذى هو الكلام اذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد فكانت الوزارة لذلك ارفع رتبهم يومئذ هذا ساير دولة بنى امية فكان النظر للوزير عامّا فى احوال التفويض والمفاوضات وساير امور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر فى ديوان الجند وفرض العطاء بالاهلّة وغير ذلك فلما جاءت دولة بنى العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت عظم شان الوزير وصار اليه النيابة فى انفاذ الحلّ والعقد وتعيّنت مرتبته فى الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت الرقاب وجعل له النظر فى ديوان الحسبان لما تحتاج اليه خطّته من قسم الاعطيات فى الجند فاحتاج الى النظر فى جمعه وتفريقه واضيف اليه النظر فيه ثم جعل له النظر فى القلم والترسيل لصون اسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلّات السلطان ليحفظها من

الذباع والشياع ودفع اليه فصار اسم الوزير جامعا لخطّتى السيف والقلم وساير معانى الوزارة والمعاونة حتى لقد دعى جعفر بن يحيى بالسلطان ايام الرشيد اشارة الى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من المراتب السلطانية كلها الا الحجابة التى هى القيام على الباب فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك ثم جاء فى الدولة العباسية شأن الاستبداد على الخلفاء (1) وتعاور فيها استبداد الوزراء مرة والسلطان اخرى وصار الوزير اذا استبدّ محتاجا الى استنابة الخليفة اياه لذلك لتصحّ الاحكام الشرعيّة وتجرى على حالها كما تقدّم فانقسمت الوزارة حينئذ الى وزارة تنفيذ وهى حال ما يكون السلطان قايما على نفسه والوزير كالوكيل فى تنفيذ احكامه والى وزارة تفويض وهى حال ما يكون الوزير مستبدّا عليه وقد فوّض اليه الخليفة جميع امور خلافته وجعلها لنظره واجتهاده وجرى حينئذ الخلاف فى العقد لوزيرين معا بوزارة التفويض مثل ما جرى من العضد لامامين معا وقد تقدّم فى الاحكام الخلافية ثم استمرّ الاستبداد وصار الامر لملوك العجم وتعطّل رسم الخلافة ولم يكن لاولئك المتغلّبين ان ينتحلوا القاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء فى اللقب لانهم خول لهم فتسمّوا بالامارة

(1) Man. C. et D. السلطان.

والسلطان وكان المستبدّ على الدولة يسمى امير الامراء او بالسلطان الى ما يحليه به الخليفة من القابه كما نراه فى القابهم وتركوا اسم الوزارة الى من يتولاها للخليفة فى خاصّته ولم يزل هذا الشأن عندهم الى آخر دولتهم وفسد اللسان خلال ذلك كله وصار صناعة ينتحلها بعض الناس فامتهنت وترفّع الوزراء عنها لذلك ولانهم عجم وليس تلك البلاغة هى المقصودة من لسانهم فتخيّر لها من ساير الطبقات واختصّت به وصارت خادمة للوزير (واختصّ) اسم الامير بصاحب الحروب والجند وما يرجع اليها ويده مع ذلك عالية على اهل الرتب وامره نافذ فى الكل اما نيابة او استبدادا واستمرّ الامر على هذا (ثم) جاءت دولة الترك اخرا بمصر فراوا الوزارة قد ابتذلت بترفّع اولئك عنها ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور ونظره مع ذلك معقب بنظر الامير فصارت مروسة ناقصة فاستنكف اهل هذه الرتبة العالية فى الدولة عن اسم الوزارة وصار صاحب الاحكام والنظر فى الجند يسمى عندهم بالنايب لهذا العهد واختصّ اسم الوزير عندهم بالنظر فى الجباية (وامّا دولة بنى امية بالاندلس) فابقوا اسم الوزير (1) فى مدلوله اول الدولة ثم قسموا خطّته اصنافا وافردوا لكل صنف وزيرا فجعلوا لحسبان المال وزيرا وللترسّل

(1) Man. A. et B. الوزارة.

وزيرا وللنظر فى حوايج المتظلمين وزيرا وللنظر فى احوال اهل الثغور وزيرا وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم وينفذون امر السلطان هنالك كلّ فيما جعل له وافرد للتردّد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصّوه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا الى آخر دولتهم فارتفعت خطّة الحاجب ومرتبته على ساير الرتب حتى صار ملوك الطوايف ينتحلون لقبها فاكبرهم يومئذ يسمى الحاجب كما نذكره (ثم جاءت دولة الشيعة بافريقية والقيروان) وكان للقائمين بها رسوخ فى البداوة فاغفلوا امر هذه الخطط اولا وتنقيح اسمائها حتى ادركت دولتهم الحضارة فصاروا الى تقليد الدولتين قبلهم فى وضع اسمائها كما نراه فى اخبار دولتهم (ولما جاءت دولة الموحدين) من بعد ذلك اغفلت الامر اولا للبداوة ثم صارت الى انتحال الاسماء والالقاب وكان اسم الوزير فى مدلوله ثم اتبعوا دولة الامويّين وقلدوها فى مذاهب السلطان واصاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان فى مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود فى تحيّتهم وخطابهم وآداب التى تلزم فى الكون بين يديه ورفعوا خطّة الحجابة عنه ما شاءوا ولم يزل الشان ذلك الى هذا العهد (واما) فى دولة الترك بالمشرق فيسمون

هذا الذى يقف بالناس على حدود الآداب فى اللقاء والتحيّة
فى مجلس السلطان والتقدّم بالوفود بين يديه يسمونه الدوادار
ويضيفون اليه استتباع كاتب السرّ واصحاب البرد المتصرّفين
فى حاجات السلطان بالقاصية وفى الحضرة وحالهم على ذلك
لهذا العهد والله متولى الامور (والحجابة) قد قدّمنا ان هذا اللقب
كان مخصوصا فى الدولة الاموية والعباسية بمن يحجب
السلطان عن العامّة ويغلق بابه دونهم او يفتحه لهم على
قدره وفى مواقيته وكانت هذه متنزلة يومئذ عن الخطط مرؤسة
لها اذ الوزير متصرّف فيها بما يراه وهكذا لساير ايام بنى
العباس والى هذا العهد فهى بمصر مرؤسة لصاحب الخطّة
العليا المسمى بالنايب واما فى دولة بنى امية بالاندلس
فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصّة والعامّة
ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم فكانت فى
دولتهم رفيعة غاية كما تراه فى اخبارهم كابن حدير وغيره من
حجّابهم (ثم) لما جاء الاستبداد على الدولة اختصّ المستبدّ
باسم الحجابة لشرفها فكان المنصور بن ابى عامر وابناءه
كذلك ولما بدوا فى مظاهر الملك واطواره جاء من بعدهم
من ملوك الطوائف فلم يتركوا لقبها وكان يعدّونه شرفا لهم
وكان اعظمهم ملكا بعد انتحال القاب الملك واسمائه لا بدّ
له من ذكر الحاجب وذى الوزارتين يعنون به السيف والقلم

ويدلّون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامّة والخاصّة وبذى الوزارتين على جمعه لخطّتى السيف والقلم ثم لم يكن فى دول المغرب وافريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التى كانت فيهم وربّما يوجد فى دولة العبيديّين بمصر عند استغلاظها وحضارتها الا انه قليل ولما جاءت دولة الموحدين لم تستحكم فيها الحضارة الداعية الى انتحال الالقاب وتمييز الخطط وتعيينها بالاسماء الّا اخرا فلم يكن عندهم من الرتب الا الوزير فكانوا اولا يخصّون بهذا الاسم الكاتب المتصرّف المشارك للسلطان فى خاصّ امره كابن عطية وعبد السلام الكومى وكان له مع ذلك النظر فى الحسبان والاشغال المالية ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لاهل نسب الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره ولم يكن اسم الحاجب معروفا فى دولتهم يومئذ واما بنو ابى حفص بافريقية فكانت الرياسة فى دولتهم اولا والتقدّم لوزير الراى والمشورة وكان يخصّ باسم شيخ الموحدين وكان له النظر فى الولايات والعزل وقود العساكر والحروب واختصّ الحسبان والديوان برتبة اخرى سمى متوليها بصاحب الاشغال ينظر فيها النظر المطلق فى الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الاموال ويعاقب على التفريط وكان من شرطه ان يكون من الموحدين واختصّ عندهم القلم ايضا بمن يجيد الترسيل ويؤتمن على الاسرار

لان الكتابة لم تكن من منتحل القوم ولا الترسيل بلسانهم فلم يشترط فيه النسب واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين فى داره الى قهرمان خاصّ بداره فى احواله يجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة فى المطابخ والاسطبلات وغيرها وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج اليه فى ذلك على اهل الجباية فخصّوه باسم الحاجب وربّما اضافوا له كتاب العلامة على السجلات اذا اتّفق ان يحسن صناعة الكتابة وربّما جعلوه لغيره واستمرّ الامر على ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين اهل الرتب كلهم ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب ثم الراى والمشورة فصارت الخطّة ارفع الرتب واوعبها للخطط ثم جاء الاستبداد والحجر مدّة من بعد السلطان الثانى عشر منهم ثم استبدّ بعد ذلك حافده السلطان ابو العباس على نفسه واذهب آثار الحجر والاستبداد باذهاب خطّة الحجابة التى كانت سلّما اليه وباشر اموره كلها بنفسه من غير استعانة باحد والامر فى ذلك لهذا العهد (واما) دول زناتة بالمغرب واعظمها دولة بنى مرين فلا اثر لاسم الحاجب عندهم واما رياسة الحرب والعساكر فهى للوزير ورتبة القلم فى الحسبان والرسايل راجعة الى من يحسنها من اهلها وان اختصّت ببعض البيوت من

المصطنعين فى دولتهم وقد تجمع عندهم وقد تفرّق واما باب السلطان وحجبه عن العامّة فهى رتبة عندهم يسمى صاحبها بالمزوار ومعناه المقدّم على الجنادرة المتصرّفين بباب السلطان فى تنفيذ اوامره وتصريف عقوباته وانزال سطواته وحفظ المعتقلين فى سجونه والعريف عليهم فى ذلك فالباب له واخذ الناس بالوقوف عند الحدود فى دار العامّة راجع اليه فكان وزارة صغرى (واما) دولة بنى عبد الواد فلا اثر عندهم لشيء من هذه الالقاب ولا تمييز الخطط لبداوة دولتهم وقصورها وانّما يخصّون باسم الحاجب فى بعض الاحوال منفذ الخاصّ بالسلطان فى داره كما كان فى دولة بنى ابى حفص وقد يجمعون له الحسبان والسجلات كما كان فيها حملهم على ذلك تقليد الدولة كما كانوا فى بيعتها وقايمين بدعوتها مذ اول امرهم (واما) اهل الاندلس لهذا العهد فالمخصوص عندهم بالحسبان وتنفيذ حال السلطان وساير الامور الماليّة يسمونه بالوكيل واما الوزير فكالوزير الا انه قد يجمع له الترسيل والسلطان عندهم يضع خطّه على السجلات كلها فليس هناك خطّة للعلامة كما لغيرهم من الدول (واما) دولة الترك بمصر فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من اهل الشوكة وهم الترك ينفذ الاحكام بين الناس فى المدينة وهم متعدّدون وهذه الوظيفة عندهم

تحت وظيفة النيابة التى لها الحكم فى اهل الدولة وفى العامّة على الاطلاق وللنايب التولية والعزل فى بعض الوظائف على الاحيان ويقطع القليل من الارزاق ويثبتها وينفذ اموره ومراسمه كما بنفذ المراسم السلطانيّة وكان له النيابة المطلقة عن السلطان وللحجّاب الحكم فقط فى طبقات العامّة والجند عند الترافع اليهم واجبار من لا ينقاد للحكم وطورهم تحت طور النيابة والوزير فى دولة الترك هو صاحب جباية الاموال فى الدولة على اختلاف اصنافها من خراج او مكس او جزية ثم تصريفها فى الانفاقات السلطانيّة او الجرايات المقدرة وله مع ذلك التولية والعزل فى ساير العمّال المباشرين لهذه الجباية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين اصنافهم ومن عوايدهم ان يكون هذا الوزير من صنف القبط القايمين على ديوان الحسبان والجباية لاختصاصهم بذلك فى مصر منذ عصور قديمة وقد يوليها السلطان بعض الاحيان لاهل الشوكة من رجالات الترك او ابنائهم على حسب الداعية لذلك والله مدبّر الامور ومصرّفها بحكمته لا اله الا هو

ديوان الاعمال والجبايات

هذه الوظيفة من الوظائف الضروريّة للملك وهى القيام على

اعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة فى الدخل والخرج واحصاء العساكر باسمائهم وتقدير ارزاقهم وصرف اعطياتهم فى اباناتها والرجوع فى ذلك الى القوانين التى يرتبها قومة تلك الاعمال وقهارمة الدولة وهى كلها مسطورة فى كتاب شاهد بتفاصيل ذلك فى الدخل والخرج مبنى على جزء كبير من الحسبان لا يقوم به الا المهرة من اهل تلك الاعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان جلوس العمّال والمباشرين لها ويقال ان اصل هذه التسمية ان كسرى نظر يوما الى كتاب ديوانه وهم يحسبون مع انفسهم كانهم يحادثون فقال ديوانه اى مجانين بلغة الفرس فسمى موضعهم بذلك وحذفت الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفا فقيل ديوان ثم نقل هذا الاسم الى كتاب هذه الاعمال المتضمّن للقوانين والحسبانات وقيل انه اسم للشيطان بالفارسية وسمى الكتاب بذلك لسرعة نفوذهم فى فهم الامور ووقوفهم على الجلى منها والخفى وجمعهم لما شذّ وتفرّق ثم نقل الى مكان جلوسهم لتلك الاعمال وعلى هذا فيتناول اسم الديوان كتاب الرسايل ومكان جلوسهم بباب السلطان على ما ياتى بعده وقد تفرد هذه الوظيفة بناظر واحد ينظر فى ساير هذه الاعمال وقد يفرد كل صنف منها بناظر كما يفرد فى بعض الدول النظر فى العساكر واقطاعاتهم

وحسبان اعطياتهم او غير ذلك على حسب مصطلح الدولة وما قرّره اولوها واعلم ان هذه الوظيفة انما تحدث فى الدول عند تمكّن الغلب والاستيلاء والنظر فى اعطاف الملك وفنون التمهيد واول من وضع الديوان فى الدولة الاسلامية عمر رضى الله عنه يقال بسبب مال اتى به ابو هريرة من البحرين استكثروه وتعبوا فى قسمه فسموا الى احصاء الاموال وضبط العطاء والحقوق فاشار خالد بن الوليد بالديوان وقال رايت ملوك الشام يدونون فقبل منه عمر وقيل بل اشار عليه به الهرمزان لما راه يبعث البعوث بغير ديوان فقال له ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم فان من تخلف منهم اخل (1) بمكانه وانّما يضبط ذلك الكتاب فاثبت لهم ديوانا وسال عمر عن اسم الديوان ففسر له ولما اجمع على ذلك امر عقيل بن ابى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من كتّاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب الانساب مبتديا من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بعدها الاقرب فالاقرب هكذا كان ابتداء ديوان الجيش وروى الزهرى عن سعيد ابن المسيب ان ذلك كان فى المحرم سنة عشرين (واما ديوان الخراج والجبايات) فبقى بعد الاسلام على ما كان عليه من قبل

(1) Man. C. et D. احل.

ديوان العراق بالفارسية وديوان الشام بالرومية وكتاب الدواوين من اهل العهد من الفريقين فلما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الامر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ومن سذاجة الامّيّة الى حذق الكتابة وظهر فى العرب ومواليهم مهرة فى الكتاب والحسبان فامر عبد الملك سليمان بن سعد والى الاردن لعهده ان ينقل ديوان الشام الى العربية فاكمله لسنة من يوم ابتداءه ووقف عليه سرحون كاتب عبد الملك فقال لكتّاب الروم اطلبوا العيش فى غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم (واما ديوان العراق) فامر الحجاج كاتبه صالح بن عبد الرحمن وكان يكتب بالعربية والفارسية ولقن ذلك عن زادان فروخ كاتب الحجاج قبله ولما قتل زادان فى حرب عبد الرحمن بن الاشعث استخلف الحجاج صالحا هذا مكانه وامره ان ينقل الديوان من الفارسية الى العربية ففعل ورغم لذلك كتّاب الفرس وكان عبد الحميد بن يحيى يقول لله درّ صالح ما اعظم منّته على الكتّاب ثم جعلت هذه الوظيفة فى دولة بنى العباس مضافة الى ما كان له النظر فيه كما كان شان بنى برمك وبنى سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء تلك الدولة فاما ما يتعلّق بهذه الوظيفة من الاحكام الشرعيّة مما يختصّ بالجيش او بيت المال فى الدخل

والخرج او تمييز النواحى بالصلح والعنوة وفى تقليد هذه الوظيفة ممن يكون وشروط الناظر فيها والكاتب وقوانين الحسبانات فامر راجع الى كتب الاحكام السلطانية وهى مسطورة هنالك وليست من غرض كتابنا وانّما نتكلّم فيها من حيث طبيعة الملك الذى نحن بصدد الكلام فيه وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك بل هى ثالثة اركانه لان الملك لا بدّ له من الجند والمال والمخاطبة لمن غاب عنه فاحتاج صاحب الملك الى الاعوان فى امر السيف وامر القلم وامر المال فينفرد صاحبها لذلك بجزء من رياسة الملك وكذلك كان الامر فى دولة بنى امية بالاندلس والطوايف بعدهم واما فى دولة الموحدين فكان صاحبها انّما يكون من الموحدين مستقلّ بالنظر فى استخراج الاموال وجمعها وضبطها وتعقّب نظر الولاة والعمّال فيها ثم تنفيذها على قدرها وفى مواقيتها وكان يعرف بصاحب الاشغال وكان ربّما يليها فى الجهات غير الموحدين ممن يحسنها ولما استبدّ بنو ابى حفص بافريقية وكان شأن الجالية من الاندلس فقدم عليهم اهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل فى ذلك بالاندلس مثل بنى سعيد اصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببنى ابى الحسين فاستكفوا بهم فى ذلك وجعلوا النظر لهم فى الاشغال كما كان لهم بالاندلس وداولوا

فيها بينهم وبين الموحدين ثم استقلّ بها اهل الحسبان والكتاب وخرجت عن الموحدين ثم لما استغلظ امر الحاجب ونفذ امره فى كل شأن من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مرؤسا للحاجب واصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرياسة التى كانت له فى الدولة واما فى دولة بنى مرين لهذا العهد فحسبان الخرج والعطاء مجموع لواحد وصاحب هذه الرتبة هو الذى يصحّح الحسبانات كلّها ويرجع الى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان او الوزير وخطّه معتبر فى صحّة الحسبان فى العطاء والخراج هذه اصول الرتب والخطط السلطانيّة وهى الرتب العالية التى هى عامّة النظر ومباشرة للسلطان واما هذه الرتبة فى دولة الترك فمتنوّعة وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر فى ديوان الجباية العامّة للدولة وهو اعلى رتب الناظرين فى الاموال لان النظر فى الاموال عندهم يتنوّع الى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظيم سلطانهم واتّساع الاموال والجبايات عن ان يستقلّ بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ فى الكفاية (1) مبالغة فتعيّن للنظر العامّ منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالى السلطان واهل عصبيّته

(1) Man. A. الكتاب. B. الكتابة.

وارباب السيوف فى الدولة يرجع نظر الوزير الى نظره ويجتهد جهده فى متابعته ويسمى عندهم استاذ الدار وهو احد الامراء الاكابر فى الدولة من الجند وارباب السيوف وتتبع هذه الخطة عندهم خطط اخرى كلها راجعة الى الاموال والحسبان مقصورة النظر على امور خاصّة مثل ناظر الخاص وهو المباشر لاموال السلطان الخاصّة به من اقطاعه او سهمانه من اموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من اموال المسلمين العامّة التى لنظره وهو تحت يد الامير استاذ الدار وان كان الوزير من الجند فلا يكون لاستاذ الدار نظر عليه وناظر الخاصّ ايضا تحت يد الخازن لاموال السلطان من مماليكه المسمى خازن دار لاختصاص وظيفته بمال السلطان الخاصّ به هذا مسمى هذه الخطّة فى دولة الترك بالمشرق بعد ما قدّمنا من امرها بالمغرب والله مصرّف الامور لا ربّ غيره

ديوان الرسايل والكتابة

هذه الوظيفة غير ضروريّة فى الملك بطبيعته لاستغناء كثير من الدول عنها رأسا كما فى الدول العريقة فى البدو التى لم ياخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنايع وانّما اكد الحاجة اليها فى الدولة الاسلاميّة شأن اللسان العربى والبلاغة فى العبارة عن المقاصد فصار الكتاب يودى كنه

الحاجة بابلغ من العبارة اللسانيّة فى الاكثر وكان الكاتب للامير يكون من اهل نسبه ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء وامراء الصحابة بالشام والعراق لعظيم امانتهم وخلوص اسرارهم فلما فسد اللسان وصار صناعة اختصّ بمن يحسنه وكانت) عند بنى العباس رفيعة وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب فى آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم السلطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان او شارته يغمس فى طين احمر مذاف بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرفى السجل عند طيه والصاقه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان ويضع الكاتب فيها علامته اولا واخرا على حسب الاختيار فى محلّها وفى لفظها ثم قد تنزل هذه الخطّة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من اهل المراتب فى الدولة او استبداد وزير عليه فتصير علامة هذا الكاتب ملغاة الحكم بعلامة الرئيس عليه يستدلّ بها فيكتب صورة علامته المعهودة والحكم لعلامة ذلك الرئيس كما وقع فى آخر الدولة الحفصيّة لما ارتفع شأن الحجابة وصار امرها الى التفويض ثم الاستبداد صار حكم العلامة التى للكاتب ملغى وصورتها ثابتة اتباعا لها سلف من امرها فصار الحاجب يرسم للكاتب امضاء كتابته ذلك بخطّ يضعه ويتخيّر له من صيغ الانفاذ ما شاء فياتمر الكاتب له ويضع

العلامة المعتادة وقد يختصّ السلطان بنفسه بوضع ذلك اذا كان مستبدّا بامره قايما على نفسه فيرسم الامر للكاتب ليضع علامته (ومن خطط الكتابة التوقيع) وهو ان يجلس الكاتب بين يدى السلطان فى مجالس حكمه وفصله ويوقّع على القصص المرفوعة اليه احكاما والفصل فيها متلقّاة من السلطان باوجز لفظ وابلغه فاما ان يصدر كذلك واما ان يحذوا الكتاب على مثالها فى سجل يكون بيد صاحب القصّة ويحتاج الموقّع الى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه (وقد) كان جعفر بن يحيى يوقّع فى القصص بين يدى الرشيد ويرمى القصّة الى صاحبها فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء فى تحصيلها للوقوف فيها على اساليب البلاغة وفنونها حتى قيل انها كانت تباع كل قصّة منها بدينار وهكذا كان شأن الدول واعلم ان صاحب هذه الخطّة لا بدّ وان يتخيّر من ارفع طبقات الناس واهل المروّة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة فانه معرض للنظر فى اصول العلم لما يعرض فى مجالس الملوك ومقاعد احكامهم من امثال ذلك مع ما تدعو اليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلّق بالفضايل ومع ما يضطرّ اليه فى الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة واسرارها وقد تكون الرتبة فى بعض الدول مستندة الى ارباب السيوف

لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لاجل سذاجة العصبيّة فيختصّ السلطان اهل عصبيّته بخطط دولته وساير رتبه فيقلّد المال والسيف والكتابة منهم فاما رتبة السيف فتستغنى عن معاناة العلم واما المال والكتابة فيضطرّ الى ذلك للبلاغة فى هذه والحسبان فى الاخرى فيختارون لها من هذه الطبقة لما دعت اليه الضرورة ويقلّدونه الا ان يكون يد اخر من اهل العصبيّة عالية على يده ويكون نظره منصرفا عن نظره كما هو فى دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فان رياسة الكتابة عندهم وان كانت لصاحب الانشاء الا انه تحت يد امير من اهل عصبيّة السلطان يعرف بالدويدار تعويل السلطان ووثوقه به واستنامته فى غالب احواله اليه وتعويله على الاخر فى احوال البلاغة وتطبيق المقاصد وغير ذلك من توابعها (واما) الشروط المعتبرة فى صاحب هذه الرتبة التى يلاحظها السلطان فى اختياره وانتقايه من اصناف الناس فهى كثيرة واحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب فى رسالته الى الكتّاب وهى هذه (اما بعد) حفظكم الله يا اهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفّقكم وارشدكم فان الله عزّ وجلّ جعل الناس بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله عليهم اجمعين ومن بعد الملوك المكرمين اخيافا (1) وان كانوا

(1) Man. C. اصنافا.

فى الحقيقة سواء وصرفهم فى صنوف الصناعات وضروب
المحاولات الى اسباب معايشهم وابواب ارزاقهم فجعلكم
معشر الكتاب فى اشرف الجهات اهل الادب والمروّة
والعلم والرواية بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم امورها
وبنصايحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ويعمر بلدانهم
لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كافٍ الا منكم فموقعكم من
الملوك موقع اسماعهم التى بها يسمعون وابصارهم التى بها
يبصرون والسنتهم التى بها ينطقون وايديهم التى بها
يبطشون فامتعكم الله بما خصّكم من فضل صناعتكم ولانزع
عنكم ما اضفاه من النعمة عليكم وليس احد من اهل الصناعات
كلها احوج الى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل
المذكورة المعدودة منكم ايّها الكتّاب اذا كنتم على ما ياتى فى
هذا الكتاب من صفتكم فان الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج
منه صاحبه الذى يثق به فى مهمّات اموره ان يكون حليما
فى موضع الحلم فهما فى موضع الحكم ومقداما فى موضع
الاقدام ومحجما فى موضع الاحجام مؤثرا للعفاف والعدل والانصاف
كتوما للاسرار وفيا عند الشدايد عالما بما ياتى من النوازل
يضع الامور مواضعها والطوارق اماكنها قد نظر فى كل فنّ
من فنون العلم فاحكمه فان لم يحكمه اخذ منه بمقدار ما
يكتفى به يعرف بغريزة عقله وحسن ادبه وفضل تجربته ما

يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدره فيعدّ
لكل امر عدّته وعتاده ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته فتنافسوا
يا معشر الكتّاب فى صنوف الآداب وتفقّهوا فى الدين
وابدؤا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ والفرايض ثم العربية فانها
ثقاف السنتكم ثم اجيدوا الخطّ فانه حلية كتبكم وارووا
الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وايام العرب والعجم واحاديثها
وسيرها فان ذلك معين لكم على ما تسموا اليه هممكم
ولا تضيعوا النظر فى الحساب فانه قوام كتاب الخراج
وارغبوا بانفسكم عن المطالع سنيها ودنيها وسفساف الامور
ومحاقرها فانها مذلّة للرقاب مفسدة للكتاب ونزّهوا
صناعتكم عن الدناءات واربؤا بانفسكم عن السعاية والنميمة (1)
وما فيه اهل الجهالات واياّكم والكبر والسخف والعظمة
فانها عداوة مجتلبة من غير احنة وتحابّوا فى الله عزّ وجلّ
فى صناعتكم وتواصوا عليها بالذى هو اليق باهل الفضل
والعدل والنبل من سلفكم وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا
عليه وواسوه حتى ترجع اليه حاله ويثوب اليه امره وان
اقعد احدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوروه وعظّموه
وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته وليكن الرجل
منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه احوط

(1) Man. C. النهمة.

منه على ولده واخيه فان عرضت فى الشغل محمدة فلا يضفها الا الى صاحبه وان عرضت مذمّة فيحملها هو من دونه وليحذر السقطة والزلّة والملل عند تغيّر الحال فان العيب اليكم معشر الكتاب اسرع منه الى القرّاء وهو لكم افسد منه لها فقد علمتم ان الرجل منكم اذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقّه فواجب عليه ان يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وصبره ونصيحته وكتمان سرّه وتدبير امره ما هو جزاء لحقّه ويقصد ذلك بفعاله عند الحاجة اليه والاضطرار الى ما لديه فاستشعروا ذلك وفّقكم الله من انفسكم فى حالة الرخاء والشدّة والحرمان والمواساة والاحسان والسرّاء والضرّاء فنعمت الشيمة هذه لمن وسم بها من اهل هذه الصناعة الشريفة واذا ولى الرجل منكم او صيّر اليه من امر خلق الله وعياله امرا فليراقب ربّه عزّ وجلّ وليوثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقا وللمظلوم منصفا فان الخلق عيال الله واحبّهم اليه ارفقهم بعياله ثم ليكن بالعدل حاكما وللاشراف مكرما وللفئ موفرا وللبلاد عامرا وللرعية متالّفا وعن اذاهم متخلّفا وليكن فى مجلسه متواضعا حليما وفى سجلات خراجه واستقصاء حقوقه رفيقا واذا صحب احدكم رجلا فليختبر خلايقه فاذا عرف حسنها وقبيحها اعانه على ما يوافقه من الحسن واحتال

لصرفه عمّا يهواه من القبيح بالطف حيلة واجمل وسيلة
وقد علمتم ان سايس البهيمة اذا كان بصيرا بسياستها
التمس معرفة اخلاقها فان كانت رموحا لم يهجها اذا ركبها
وان كانت شبوبا اتقاها من قبل يديها وان خاف منها
شرودا توقّاها من ناحية راسها وان كانت حرونا قمع برفق
هواها فى طرقها وان استمرت عطفها يسيرا فيسلس له قيادها
وفى هذا الوصف من السياسة دلايل لمن ساس الناس
وعاملهم وخدمهم وداخلهم والكاتب بفضل ادبه وشريف
صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظر
ويفهم عنه او يخاف سطوته اولى بالرفق لصاحبه ومداراته
وتقويم اوده من سايس البهيمة التى لا تحير جوابا ولا تعرف
صوابا ولا تفهم خطابا الا بقدر ما يصيرها اليه صاحبها الراكب
عليها فارفقوا رحمكم الله فى النظر واعملوا فيه ما امكنكم من
الروية والفكر تامنوا باذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستثقال
والجفوة ويصير منكم الى الموافقة وتصيروا منه الى المواخاة
والشفقة ان شاء الله تعالى ولا يجاوزن الرجل منكم فى هيئة
مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنايه (1) وخدمه وغير
ذلك من فنون امره قدر حقّه فانكم مع ما فضلكم الله به
من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون فى خدمتكم على التقصير

(1) Man. D. ثيابه.

وحفظة لا تحتمل منكم افعال التضييع والتبذير
واستعينوا على عفافكم بالقصد فى كل ما ذكرته لكم وقصصته
عليكم واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف فانهما
يعقبان الفقر ويذلّان الرقاب ويفضحان اهلها ولا سيما الكتّاب
وارباب الآداب وللامور اشباه وبعضها دليل على بعض
فاستدلّوا على موتنف اعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ثم
اسلكوا من مسالك التدبير اوضحها محجّة واصدقها حجّة
واحمدها عاقبة واعلموا ان للتبذير آفة متلفة وهو الوصف
الشاغل لصاحبه عن انفاذ علمه ورويته فليقصد الرجل منكم
فى مجلسه قصد الكافى من منطقه وليوجز فى ابتدائه
وجوابه وليأخذ بمجامع حججه فان ذلك مصلحة لفعله
ومدفعة للتشاغل عن اكثاره وليضرع الى الله فى صلة توفيقه
وامداده بتسديده مخافة وقوعه فى الغلط المضرّ ببدنه وعقله
وادبه فانه ان ظنّ منكم ظانّ او قال قائل ان الذى
برز من جميل صنعته وقوة حركته انما هو بفضل حيلته
وحسن تدبيره فقد تعرّض بظنّه او مقالته الى ان يكله الله
عزّ وجلّ الى نفسه فيصير منها الى غير كاف وذلك على من
تامّله غير خاف ولا يقل احد منكم انه ابصر بالامور واحمل
لعبء (1) التدبير من مرافقه فى صناعته ومصاحبه فى خدمته

(1) Man. A. et B. لعبث.

فان اعقل الرجلين عند ذوى الالباب من رمى بالعجب وراء ظهره وراى ان صاحبه اعقل منه واحمد فى طريقته وعلى كل واحد من الفريقين ان يعرف فضل نعم الله جلّ ثناوه من غير اغترار برايه ولا تزكية لنفسه ولاتكاثر على اخيه او نظيره وصاحبه وعشيره وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلّل لعزته والتحدّث بنعمته وانا اقول فى كتابى هذا ما سبق به المثل من تلزمه النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرّة كلامه بعد الذى فيه من ذكر الله عزّ وجلّ فلذلك جعلته آخره وتممته به تولّانا الله واياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه فى اسعاده وارشاده فان ذلك اليه وبيده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (الشرطة) ويسمى صاحبها لهذا العهد بافريقية الحاكم وفى دولة اهل الاندلس صاحب المدينة وفى دولة الترك الوالى وهى وظيفة مرؤسة لصاحب السيف فى الدولة وحكمه نافذ فى صاحبها بعض الاحيان وكان اصل وضعها فى الدولة العباسية لمن يقيم احكام الجرائم فى حال استبرائها اولا ثمّ الحدود بعد استيفائها فان التهم التى تعرض فى الجرائم لانظر للشرع الا فى استيفاء حدودها وللسياسة النظر فى استبراء موجباتها باقرار يكرهه عليه الحاكم اذا اختفت به القراين لما توجبه المصلحة

العامّة فى ذلك فكان الذى يقوم بهذا الاستبراء وباستيفاء
الحدود بعده اذا تنزّه عنه القاضى يسمى صاحب الشرطة
وربّما جعلوا اليه النظر فى الدماء والحدود باطلاق وافردوها
من نظر القاضى ونوّهوا بهذه المرتبة وقلّدوها كبار القوّاد وعظماء
الخاصّة من مواليهم ولم تكن عامّة التنفيذ فى طبقات
الناس انما كان حكمه فى الدهماء واهل الريب والضرب
على يد الدعّار والفجرة ثم عظمت نباهتها فى دولة بنى
امية بالاندلس ونوعت الى شرطة كبرى وشرطة صغرى
وجعل حكم الكبرى على الخاصّة والدهماء وجعل له الحكم
على ذوى المراتب السلطانيّة والضرب على ايديهم فى
الظلامات وعلى ايدى اقاربهم ومن اليهم من اهل الجاه وجعل
صاحب الصغرى مخصوصا بالعامّة ونصب لصاحب الكبرى
كرسى بباب دار السلطان ورجل يتبوّون المقاعد بين يديه
فلا يبرحون عنها الا فى تصريفه وكانت ولايتها للاكابر
من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحا للوزارة والحجابة
واما فى دولة الموحدين بالمغرب فكان لها حظّ من التنويه
وان لم يجعلوها عامّة وكان لا يليها الا رجالات الموحدين
وكبراوهم ولم يكن لهم التحكّم على اهل المراتب
السلطانيّة ثم فسد اليوم منصبها وخرجت عن ولاية رجال
الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من المصطنعين واما فى

دولة بنى مرين لهذا العهد بالمغرب فولايتها فى بيوت من مواليهم واهل اصطناعهم وفى دولة الترك بالمشرق فى رجالات الترك واعقاب اهلا الدولة قبلهم من الكرد يتخيّرونهم لها فى القطرين بما يظهر منهم من الصلابة والمضاء فى الاحكام لقطع موادّ الفساد وحسم اسباب الدعارة وتخريب مواطن الفسوق وتفريق مجامعه مع اقامة الحدود الشرعيّة والسياسة كما تقتضيه رعاية المصالح العامّة فى المدينة والله مقلّب الليل والنهار لا اله الا هو

قيادة الاساطيل

وهى من مراتب الدولة وخططها فى ملك المغرب وافريقية ومرؤسة لصاحب السيف وتحت حكمه فى كثير من الاحوال ويسمى صاحبها فى عرفهم باسم الملند بتفخيم اللام منقولا من لغة الافرنجة فانه اسمها فى اصطلاح لغتهم وانّما اختصّت هذه الرتبة بملك افريقية والمغرب لانها جميعها على ضفة البحر الرومى من جهة الجنوب وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة الى اسكندرية الى الشام وعلى عدوته الشمالية بلاد الاندلس والافرنجة والصقالبة والروم الى بلاد الشام ايضا ويسمى البحر الرومى والبحر الشامى نسبة الى اهل عدوته والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله

من عدوتيه يعانون من احواله ما لا تعانيه امّة من امم البحار
وقد كانت الروم والافرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا
البحر الرومى وكانت اكثر حروبهم ومتاجرهم فى السفن
فكانوا مهرة فى ركوبه والحرب فى اساطيله ولما اسف
من اسف منهم الى ملك العدوة الجنوبية مثل الروم الى
افريقية والقوط الى المغرب اجازوا فى الاساطيل وملكوها
وتغلّبوا على البربر بها وانتزعوا من ايديهم امرها وكان لهم
بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وجلولا ومرناق
وشرشال وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب
صاحب رومة ويبعث الاساطيل لحربه مشحونة بالعساكر
والعدد فكانت هذه عادة لاهل هذا البحر الساكنين حفافيه
معروفة فى القديم والحديث (ولما) ملك المسلمون
مصر كتب عمر ابن الخطاب الى عمرو بن العاص ان
صف لى البحر فكتب اليه ان البحر خلق عظيم يركبه
خلق ضعيف دود على عود فاوعز حينئذ بمنع المسلمين من
ركوبه ولم يركبه احد من العرب الا من افتات على عمر
فى ركوبه ونال من عقابه كما فعل بعرفجة بن هرثمة الازدى
سيّد بجيلة لما اغزاه عمان فبلغه فانكر عليه وعنفه انه ركب
البحر للغزو ولم يزل الشأن ذلك حتى اذا كان لعهد معاوية
اذن للمسلمين فى ركوبه والجهاد على اعواده والسبب فى

ذلك ان العرب لبداوتهم لم يكونوا اول الامر مهرة فى ثقافته وركوبه والروم والفرنجة لممارستهم احواله وسرباهم فى التقلّب على اعواده مرنوا عليه واحكموا الدربة بثقافته فلما استقرّ الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت امم العجم خولا لهم وتحت ايديهم وتقرّب كل ذى صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية امما وتكرّرت (1) ممارستهم للبحر وثقافته استحدثوا بصرا بها فشرهوا الى الجهاد فيه وانشؤا السفن والشوانى وشحنوا الاساطيل بالرجال والسلاح وامطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من امم الكفر واختصّوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان اقرب الى هذا البحر وعلى ضفّته مثل الشام وافريقية والمغرب والاندلس واوعز الخليفة عبد الملك الى حسان بن النعمان عامل افريقية باتّخاذ دار صناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية ايام زيادة الله الاول بن ابراهيم بن الاغلب على يد اسد بن الفرات شيخ الفتيا وفتح قوصرة ايضا فى ايامه بعد ان كان معاوية ابن خديج اغزى صقلية ايام معاوية بن ابى سفيان فلم يفتح الله على يده وفتحت على يد ابن الاغلب وقايده اسد بن الفرات وكانت من بعد ذلك

(1) Man. C. تقررت.

اساطيل افريقية والاندلس فى دولة العبيديّين والامويّين تتعاقب الى بلادهما فى سبيل الفتنة فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب وانتهى اسطول الاندلس الى ايام عبد الرحمن الناصر الى مايتى مركب او نحوها واسطول افريقية كذلك نحوه او قريبا منه (وكان) قايد الاساطيل بالاندلس ابن رماحس ومرفاها للحطّ والاقلاع بجاية والمرية وكانت اساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل بلد تتخذ فيه السفن اسطول يرجع نظره الى قائد من النواتية يدبّر امر حربه وسلاحه ومقاتلته ورائس يدبّر امر جريته بالريح او بالمجاذف وامر ارسايه فى مرفائه فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو محتفل او غرض سلطانى مهم عسكرت بمرفاءها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وانجاد عساكره ومواليه وجعلهم لنظر امير واحد من اعلا طبقات اهل مملكته يرجعون كلهم اليه ثم يسرحهم لوجهتهم وينتظر ايابهم بالفتح والغنيمة وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للامم النصرانية قبل باساطيلهم فى شئ من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر ايامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنرقة ويابسة وسردانية وصقلية

وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والفرنج وكان ابو القاسم الشيعى وابناوه يغزون اساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة (وافتتح) مجاهد العامرى صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية فى اساطيله سنة خمس واربعماية وارتجعها النصارى لوقتها والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلّبوا على الاكثر من لجّة هذا البحر وسارت اساطيلهم فيه جائية وذاهبة والعساكر الاسلاميّة تجيز البحر فى الاساطيل من صقلية الى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الفرنج وتثخن فى ممالكهم كما وقع فى ايام بنى ابى الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديّين وانحازت امم النصرانية باساطيلهم الى الجانب الشمالى الشرقى منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدونها واساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الاسد بفريسته وقد ملات الاكثر من بسيط هذا البحر عدّة وعديدا واختلفت فى طرقه سلما وحربا فلم تسبح للنصرانية فيه الواح حتى اذا ادرك الدولة العبيديّة والاموية الفشل والوهن وطرقها الاعتلال مدّ النصارى ايديهم الى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية واقريطش ومالطة فملكوها ثم الحّوا على سواحل الشام فى تلك الفترة وملكوا طرابلس وعسقلان

PROLÉGOMÈNES
d'Ebn-Khaldoun.

وصور وعكا واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام وغلبوا
على بيت المقدس وبنوا عليها كنيسة لمظهر دينهم وعبادتهم
وغلبوا بنى خزرون على طرابلس ثم على قابس وصفاقس
ووضعوا عليهم الجزى ثم ملكوا المهدية مقرّ ملك
العبيديّين من يد اعقاب بلكين بن زيرى وكانت لهم
فى المائة الخامسة الكرّة بهذا البحر وضعف شأن الاساطيل
فى دولة مصر والشام الى ان انقطع ولم يعنوا بشئ من امره
لهذا العهد بعد ان كان لهم به فى الدولة العبيدية عناية
تجاوزت الحدّ كما هو معروف فى اخبارهم فبطل رسم هذه
الوظيفة هنالك وبقيت بافريقية والمغرب فصارت مختصّة
بها وكان الجانب الغربى من هذا البحر لذلك العهد موفور
الاساطيل ثابت القوة لم يتحيّفه عدوّ ولا كانت لهم به كرّة
فكان قايد الاسطول لعهد لمتونة بنو ميمون روساء جزيرة قادس
ومن ايديهم اخذها عبد المومن بتسليمهم وطاعتهم وانتهى
عدد اساطيلهم الى المائة من بلاد العدوتين جميعا ولما
استفحلت دولة الموحدين فى المائة السادسة وملكوا
العدوتين اقاموا خطّة هذا الاسطول على اتمّ ما عرف واعظم
ما عهد وكان قايد اساطيلهم احمد الصقلى اصله من صدغيان
الموطنين (1) بجزيرة جربة من سدويكش (2) اسره النصارى من

(1) Man. D. الموطيين.

(2) Man. C. سدوبكس. D. سدوبكش.

سواحلها وربى عندهم واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ثم هلك وولى ابنه فاسخطه ببعض النزعات وخشى على نفسه فلحق بتونس ونزل على السيّد بها من بنى عبد المومن واجاز الى مراكش فتلقّاه الخليفة يوسف القسرى بن عبد المومن بالمبرّة والكرامة واجزل له الصلة وقلّده امر اساطيله فجلى فى جهاد امم النصرانية وكانت له آثار ومقامات مذكورة فى دولة الموحدين وانتهت اساطيل المسلمين على عهده فى الكثرة والاستجادة ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد فيما عهدناه (ولما) قام صلاح الدين يوسف بن ايوب ملك مصر والشام لعهده باسترجاع ثغور الشام من يد الامم النصرانية وتطهير بيت المقدس من رجس الكفر وبنائه تتابعت اساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قربة لبيت المقدس الذى كانوا قد استولوا عليه فامدّوهم بالعدد والاقوات ولم تقاومهم اساطيل الاسكندرية لاستمرار الغلب لهم فى ذلك الجانب الشرقى من البحر وتعدد اساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هنالك كما اشرنا اليه قبل فاوفد صلاح الدين على يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهده من الموحدين رسوله عبد الكريم بن منقذ من بيت بنى منقذ ملوك شيزر وكان ملكها من ايديهم وابقى عليهم فى دولته فبعث عبد الكريم هذا منهم

الى ملك المغرب طالبا مدد الاساطيل لتحول فى البحر
بين اساطيل الكفرة وبين مرادهم من امداد النصرانية بثغور
الشام واصحبه كتابه اليه فى ذلك من انشاء الفاضل
البيسانى يقول فى افتتاحه فتح الله لحضرة سيّدنا ابواب
المناجح والميامن حسبما نقله العماد الاصبهانى فى كتاب
الفتح القدسى فنقم عليهم المنصور تجافيهم عن خطابه بامير
المومنين واسرّها فى نفسه وحملهم على مناهج البرّ والكرامة
وردّهم الى مرسلهم ولم يجبه الى حاجته من ذلك وفى
هذا اختصاص ملك المغرب بالاساطيل وما حصل للنصرانية
فى الجانب الشرقى من هذا البحر من الاستطالة وعدم
عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد وما بعده بشأن
الاساطيل البحرية والاستعداد منها للدول ولما هلك يعقوب
المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت امم الجلالقة على
الاكثر من بلاد الاندلس والجؤا المسلمين الى سيف البحر
وملكوا الجزائر التى بالجانب الغربى من البحر الرومى
قويت ريحهم فى بسيط هذا البحر واشتدّت شوكتهم
وكثرت فيه اساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه الى
المساواة معهم كما وقع لعهد السلطان ابى الحسن ملك
زناتة بالمغرب فان اساطيله كانت عند مرامه الجهاد فى
مثل عدّة النصرانية وعديدهم ثم تراجعت عن ذلك قوة

المسلمين فى الاساطيل لضعف الدول ونسيان عوائد البحر بكثرة العوايد البدوئة بالمغرب وانقطاع العوائد الاندلسية ورجع النصارى فيه الى دينهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر باحواله وغلب الامم فى لجّه وعلى اعواده وصار المسلمون فيه كالاجانب الا قليلا من اهل البلاد الساحليّة لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الانصار والاعوان او قوة من الدول تستجيش لهم اعوانا وتوضح لهم فى هذا الغرض مسلكا وبقيت الرتبة لهذا العهد فى الدول المغربية محفوظة والرسم فى معاناة الاساطيل بالانشاء والركوب معهودا لما عساه تدعو اليه الحاجة من الاغراض السلطانية فى البلاد البحرية والمسلمون يستهبون الريح على الكفر واهله فمن المشتهر بين اهل المغرب عن كتب الحدثان انه لا بدّ للمسلمين من الكرّة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الافرنجة وان ذلك يكون فى الاساطيل والله ولىّ المومنين

فصل فى التفاوت بين مراتب السيف والقلم فى الدول

اعلم ان السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بها على امره الا ان الحاجة الى السيف فى اول الدولة ما

دام اهلها فى تمهيد امرهم اشدّ من الحاجة الى القلم اذ القلم
فى تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطانى والسيف
شريك فى المعونة وكذلك فى آخر الدولة حيث تضعف
عصبيتها كما ذكرناه ويقلّ اهلها بما ينالهم من الهرم الذى
قدّمناه فتحتاج الدولة الى الاستظهار بارباب السيوف ويقوى
الحاجة اليهم فى حماية الدولة والمدافعة عنها كما كان الشأن
اول الامر فى تمهيدها فتكون للسيف مزية فى الحالتين على
القلم ويكون ارباب السيف حينئذ اوسع جاها واكثر نعمة
واسنى اقطاعا واما فى وسط الدولة فيستغنى صاحبها بعض
الشئ عن السيف لانه قد تمهّد امره ولم يبق همّه الا فى
تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول
وتنفيذ الاحكام والقلم هو المعين له فى ذلك فتعظم الحاجة
الى تصريفه وتكون السيوف مهملة فى مضاجع غمودها الا اذا
نابت نائبة او دعيت الى سدّ فرجة وما سوى ذلك
فلا حاجة اليها فيكون ارباب الاقلام فى هذه الحالة اوسع
جاها واعلى رتبة واعظم نعمة وثروة واقرب من السلطان
مجلسا واكثر اليه تردّدا وفى خلواته نجيّا لانه حينئذ آلة
التى بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه والنظر فى
اعطافه وتثقيف اطرافه والمباهاة باحواله ويكون الوزراء حينئذ
واهل السيوف مستغنى عنهم مبعدين عن ناظر السلطان

حذرين على انفسهم من بوادره وفى معنى ذلك ما كتب به ابو مسلم للمنصور حين امره بالقدوم اما بعد فانه مما حفظناه من وصايا الفرس اخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء سنّة الله فى عباده

فصل فى شارات الملك والسلطان الخاصّة به

اعلم ان للسلطان شارات واحوالا تقتضيها الابّهة والبذخ فيختصّ بها ويتميّز بانتحالها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء فى دولة فنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة وفوق كل ذى علم عليم (الآلة) فمن شارات الملك اتّخاذ الآلة من نشر الالوية والرايات وقرع الطبول والنفخ فى الابواق والقرون وقد ذكر ارسطو فى الكتاب المنسوب اليه فى السياسة ان السرّ فى ذلك ارهاب العدوّ فى الحرب فانّ الاصوات الهائلة لها تأثير فى النفوس بالروعة ولعمرى انه امر وجدانى فى مواطن الحروب يجده كل احد من نفسه وهذا السبب الذى ذكره ارسطو ان كان ذكره فهو صحيح ببعض الاعتبارات واما الحقّ فى ذلك فهو ان النفس عند سماع النغم او الاصوات يدركها الفرح والطرب بلا شكّ فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستميت فى ذلك الوجه الذى هو فيه وهذا موجود حتى فى

الحيوانات العجم فانفعال الابل بالحدا والخيل بالصفير والصريخ كما علمت ويزيد ذلك تأكيدا اذا كانت الاصوات متناسبة كما فى الغنا وانت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى ولاجل ذلك يتّخذ العجم فى مواطن حروبهم الآلات الموسيقارية لا طبلا ولا بوقا فيحدق المغنّون بالسلطان فى موكبه بآلاتهم ويغنّون فيحركون نفوس الشجعان بطربهم الى الاستماتة ولقد راينا فى حروب العرب المنشد يتغنّى امام الموكب بالشعر ويطرب فتجيش همم الابطال بما فيها ويسارعون الى مجالّ الحروب وينبعث كل قرن الى قرنه وكذلك زناتة من امم المغرب يتقدّم الشاعر عندهم امام الصفوف ويتغنّى فيحرك بغنائه الجبال الرواسى ويبعث على الاستماتة من لا يظنّ بها ويسمون ذلك الغناء تازُصواكايت (1) واصله كله فرح يحدث فى النفس فتنبعث عنه الشجاعة كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح والله اعلم (واما تكثير الرايات) وتلوينها واطالتها فالقصد به التهويل لا اكثر وربّما يحدث فى النفوس من التهويل زيادة فى الاقدام واحوال النفوس وتلوناتها غريبة والله الخلّاق العليم (ثم) ان الملوك والدول يختلفون فى اتّخاذ هذه الشارات فمن مكثر ومقلل بحسب اتّساع الدولة

(1) Man. C. فارصوكايت.

وعظمها (فاما) الرايات فانها شعار الحروب مذ عهد الخليقة ولم تزل الامم تعقدها فى مواطن الحروب والغزوات ولعهد النبى صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء (واما قرع الطبول) والنفخ فى الابواق فكان المسلمون لاول الملّة متجافين عنه تنزّها عن غلظة الهلك ورفضا لاحواله واحتقارا لابهته التى ليست من الحقّ فى شئ حتى اذا انقلبت الخلافة ملكا وتبجحوا زهرة الدنيا ونعيمها ولابسهم الموالى من الفرس والروم اهل الدول السالفة واروهم ما كان اولئك ينتحلونه من مذاهب البذخ والترف فكان مما استحسنوه اتّخاذ الآلة فاتّخذوها واذنوا لعمّالهم فى اتّخاذها تنويها بالملك واهله فكثيرا ما كان العامل صاحب الثغر او قائد الجيش يعقد له الخليفة من العباسيين او العبيديّين لواءً ويخرج الى بعثه او عمله من دار الخليفة او داره فى موكب من اصحاب الرايات والآلة فلا تميّز بين موكب العامل والخليفة الا بكثرة الالوية او قلّتها او بما اختصّ به الخليفة من الالوان لرايته كالسواد فى رايات بنى العباس فان راياتهم كانت سودا حزنا على شهدائهم من بنى هاشم ونعيا على بنى امية فى قتلهم ولذلك سموا المسودة (ولما) افترق امر الهاشميّين وخرج الطالبيون على العباسيّين فى كل جهة وعصر ذهبوا الى مخالفتهم فى ذلك فاتّخذوا

الرايات بيضا وسموا المبيضة لذلك سائر ايام العبيديّين ومن خرج من الطالبيين فى ذلك العهد بالمشرق كالداعى بطبرستان وداعى صعدة او من دعى الى بدعة الرافضة من غيرهم كالقرامطة (ولما) نزع المامون عن لبس السواد وشعاره فى دولته عدل الى لون الخضرة فجعل راياته خضرا واما الاستكثار منها فلا ينتهى الى حدّ وقد كانت آلة العبيديّين لما خرج العزيز نزار الى فتح الشام خمسماية من البنود وخمسماية من الابواق (واما) ملوك البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرهم فلم يختصّوا بلون واحد بل وشعوها بالذهب واتّخذوها من الحرير الخالص ملوّنة واستمرّوا على الاذن فيها لعمّالهم حتى اذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زناتة فقصروا الآلة من الطبول والبنود على السلطان وحظروها على من سواه من عمّاله وجعلوها موكبا خاصّا يتبع اثر السلطان فى مسيره يسمى الساقة وهم فيه بين مكثر ومقلّل باختلاف مذاهب الدول فى ذلك فمنهم من يقتصر على سبع من العدد تبرّكا بالسبعة كما هو فى دولة الموحدين وبنى الاحمر بالاندلس ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناتة وقد بلغت ايام السلطان ابى الحسن فيما ادركناه ماية من الطبول وماية من البنود ملوّنة بالحرير منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير ويأذنون للولاة والعمّال

والقوّاد فى اتّخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء وطبل صغير ايام الحرب لا يتجاوزون ذلك (واما) دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فيتّخذون اولا راية واحدة عظيمة وفى راسها خصلة كبيرة من الشعر ويسمونها الجاليش (1) والجتر ومع العسكر على عمومه ثم على راس السلطان راية اخرى تسمى العصابة والشطفة وهى شعار السلطان عندهم ثم تتعدّد الرايات ويسمونها السناجق واحدها سنجق وهو الراية بلسانهم واما الطبول فيبالغون فى الاستكثار منها ويسمونها الكوسات ويبيحون لكل امير او قائد عسكر ان يتّخذ من ذلك ما شاء الا العصابة فانه خاصّ بالسلطان (واما) الجلالقة لهذا العهد من امم الافرنجة بالاندلس فاكثر شأنهم اتّخاذ الالوية القليلة ذاهبة فى الجوّ صُعُدا ومعها قرع الاوتار من الطنابير ونفخ الغيطات يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقه فى مواطن حروبهم هكذا بلغنا عنهم وعمّن وراءهم من ملوك العجم وفى خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ايات للعالمين (السرير) واما السرير والمنبر والتخت والكرسى وهو اعواد منصوبة او ارائك منضدة لجلوس السلطان عليها مرتفعا عن اهل مجلسه ان يساويهم فى الصعيد (2) ولم يزل ذلك من سنن الملك قبل الاسلام وفى دول العجم

(1) Man. C. et D. الشالش. Man. B. الجاليس. (2) Man. A. et B. الصعد.

وقد كانوا يجلسون على اسرّة الذهب (وكان) لسليمان بن داود صلوات الله وسلامه عليه سرير من عاج مغشى بالذهب الا انه لا تاخذ به الدول الا بعد الاستفحال والترف شأن الابّهة كلها كما قلناه واما فى اول الدولة عند البداوة فلا يتشوفون اليه (واول) من اتّخذه فى الاسلام معاوية واستاذن الناس فيه وقال لهم انى قد بدنت فاذنوا له فاتّخذه واتبعه الملوك الاسلاميّون فيه وصار من منازع الابهة ولقد كان عمرو بن العاص بمصر يجلس فى قصره على الارض مع العرب وياتيه المقوقس الى قصره ومعه سرير من الذهب محمول على الايدى لجلوسه شأن الملوك فيجلس عليه وهم امامه ولا يغيرون عليه وفاء له بما اعتقد معهم من الذمّة واطراحا لابّهة الملك (ثم) كان بعد ذلك لبنى العباس والعبيديّين وسائر ملوك الاسلام شرقا وغربا من الاسرّة والمنابر والتخوت ما عفا عن الاكاسرة والقياصرة والله مقلّب الليل والنهار (السكّة) وهى الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد تنقش فيه صور اوكلمات مقلوبة ويضرب بها على الدنانير او الدراهم فيخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد ان يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس فى خلوصه بالسبك مرّة بعد اخرى وبعد تقدير اشخاص الدنانير والدراهم بوزن معيّن

يصطلح عليه فيكون التعامل بها عددا وان تقدر إشخاصها يكون التعامل بها وزنا ولفظ السكّة كان اسما للطابع وهى الحديدة المتّخذة لذلك ثم نقل الى اثرها وهى النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ثم نقل الى القيام على ذلك والنظر فى استيفاء حاجاته وشروطه وهى الوظيفة فصار علما عليها فى عرف الدول وهى وظيفة ضرورية للملك اذ بها يتميّز الخالص من البهرج بين الناس فى النقود عند المعاملات ويثقون فى سلامتها من الغشّ بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة (وكان) ملوك العجم يتّخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدها او تمثال حصن او حيوان او مصنوع او غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند العجم الى آخر امرهم (ولما) جاء الاسلام اغفل ذلك لسذاجة الدين وبداوة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضّة وزنا وكانت دنانير الفرس ودراهمهم بين ايديهم يردّونها فى معاملتهم الى الوزن ويتصارفون بها بينهم الى ان تفاحش الغشّ فى الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك وامر عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيّب وابو الزناد فضرب الدراهم وميّز المغشوش من الخالص وذلك سنة اربع وسبعين وقال المداينى سنة خمس وسبعين ثم امر بضربها فى سائر

النواحى سنة ستّ وسبعين وكتب عليها الله احد الله الصمد
(ثم) ولى ابن هبيرة العراق ايام يزيد بن عبد الملك
فجوّد السكّة ثم بالغ خالد القسرى فى تجويدها ثم يوسف
بن عمر بعده وقيل اول من ضرب الدنانير والدراهم مصعب
بن الزبير فى العراق سنة سبعين بامر اخيه عبد الله لما
ولى بالحجاز وكتب عليها فى احد الوجهين بركة وفى
الاخر اسم الله ثم غيّرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها
باسم الله الحجاج وقدّروا وزنها على ما كانت استقرّت ايام
عمر وذلك ان الدرهم كان وزنه فى اول الاسلام ستّة دوانيق
والمثقال وزنه درهم وثلاثة اسباع الدرهم فيكون عشرة دراهم
بسبعة مثاقيل وكان السبب فى ذلك ان اوزان الدراهم
ايام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال
عشرون قيراطا ومنها اثنا عشر ومنها عشرة فلما احتيج الى
تقديره فى الزكاة اخذ الوسط من الثلاثة وذلك اربعة
عشر قيراطا فكان المثقال درهما وثلاثة اسباع درهم وقيل ان
الدراهم كان منها البغلى بثمانية دوانق والطبرى اربعة دوانق
والمغربى ثلاثة دوانق واليمنى دانق فامر عمر رضى الله عنه
ان ينظر الاغلب فى التعامل فكان البغلى والطبرى وهما
اثنا عشر دانقا فكان الدرهم ستّة دوانق وان زدت ثلاثة
اسباعه كان مثقالا واذا نقصت ثلاثة اعشار المثقال كان درهما

فلما راى عبد الملك اتّخاذ السكّة لصيانة النقدين الجاريين فى معاملة المسلمين عن الغشّ فعيّن مقدارها على هذا الذى استقرّ لعهد عمر رضى الله عنه واتّخذ طابع الحديد ونقش فيه كلمات لا صورا لان العرب كان الكلام والبلاغة اقرب مناحيهم واظهرها مع ان الشرع ينهى عن الصور فلما فعل ذلك استمرّ بين الناس الى ايام الملّة كلها وكان الدينار والدرهم على شكلين مدوّرين والكتابة عليهما فى دوائر متوازية يكتب فيها من احد الوجهين اسماء الله تهليلا وتحميدا وصلاة على النبى وآله صلى الله عليه وسلم وفى الوجه الثانى التاريخ واسم الخليفة هكذا ايام العباسيّين والعبيديّين والامويين واما صنهاجة فلم يتّخذوا سكّة الا آخر الامر اتّخذها المنصور صاحب بجاية ذكر ذلك ابن حماد فى تاريخه ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سنّ لهم المهدى اتّخاذ سكّة الدراهم مربّع الشكل وان يرسم فى دايرة الدينار شكل مربّع فى وسطه ويملاء من احد الجانبين تهليلا وتحميدا ومن الجانب الاخر كتبا فى السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده ففعل ذلك الموحدون وكانت سكّتهم على هذا الشكل لهذا العهد وقد كان المهدى فيما نقل ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربّع نعته بذلك المتكلمون بالحدثان من قبله المخبرون فى ملاحمهم

عن دولته (واما) اهل المشرق لهذا العهد فسكّتهم غير مقدّرة وانما يتعاملون بالدنانير والدراهم وزنا بالصنجات المقدّرة بعدة منها ويطبعون عليها بالسّكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان كما يفعله اهل المغرب ذلك تقدير العزيز العليم (تنبيه) ولنختم الكلام فى السّكة بذكر حقيقة الدرهم والدينار الشرعيّين وبيان مقدارهما وذلك ان الدرهم والدينار مختلفا السّكة فى المقادير والموازين بالآفاق والامصار وسائر الاعمال والشرع قد تعرض لذكرهما وعلق كثيرا من الاحكام بهما فى الزكاة والانكحة والحدود وغيرها فلا بدّ لهما عنده من حقيقة ومقدار يتعيّن فى تقديره وارادته وتجرى عليهما احكام دون غير الشرعى منهما فاعلم ان الاجماع منعقد منذ صدر الاسلام وعهد الصحابة والتابعين ان الدرهم الشرعى هو الذى يزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب والاوقية منه اربعين درهما وهو على هذا سبعة اعشار الدينار ووزن المثقال من الذهب الخالص ثنتان وسبعون حبّة من الشعير الوسط فالدرهم الذى هو سبعة اعشار خمسون حبّة وخمسا حبّة وهذه المقادير كلها ثابتة بالاجماع فان الدرهم الجاهلى كان بينهم على انواع اجودها الطبرى وهو ثمانية دوانق والبغلى وهو اربعة دوانق فجعلوا الشرعى بينهما ستّة دوانق وكانوا بها يوجبون الزكاة فى ماية درهم بغلية وماية طبرية

خمسة دراهم وسطا وقد اختلف الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك واجماع الناس بعده عليه كما نقلناه ذكر ذلك الخطابى فى كتاب معالم السنن والماوردى فى كتاب الاحكام السلطانية وانكره المحقّقون من المتاخّرين لما يلزم منه ان يكون الدرهم والدينار الشرعيان مجهولين فى عصر الصحابة ومن بعدهم مع تعلّق الحقوق الشرعيّة بهما فى الزكاة والانكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه والحقّ انهما كانا معلومى المقدار فى ذلك العصر يجريان الاحكام يومئذ بما يتعلّق بهما من الحقوق وكان مقدارهما غير مشخص فى الخارج وان كان متعارفا بينهم بالحكم الشرعى المتقرّر فى مقدارهما ووزنهما حتى استفحلت الدولة الاسلامية وعظمت احوالها ودعى الحال الى تشخيصهما فى المقدار والوزن كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة النقدين وقارن ذلك ايام عبد الملك فشخص مقدارهما وعينهما فى الخارج كما هو فى الذهن ونقش عليهما السكّة باسمه وتاريخه اثر الشهادتين الايمانيتين وطرح النقود الجاهليّة رأسا حتى خلصت ونقشت عليهما سكّته وتلاشى وجودها وهذا هو الحقّ الذى لا محيد عنه ثم بعد ذلك وقع اختيار اهل السكّة فى الدولة على مخالفة المقدار الشرعى فى الدينار والدرهم واختلفت فى ذلك الاقطار والآفاق ورجع الناس الى تصوّر مقاديرهما

الشرعيّة ذهنا كما كان فى الصدر الاول وصار اهل كل افق يستخرجون الحقوق الشرعيّة من سكّتهم بمعرفة النسبة التى بينها وبين مقاديرها الشرعيّة (واما) وزن الدينار بثنتين وسبعين حبّة من الشعير الوسط فهو الذى نقله المحقّقون وعليه الاجماع الّا ابن حزم خالف ذلك وزعم انه اربعة وثمانون حبّة نقل ذلك عنه القاضى عبد الحقّ وردّه المحقّقون وعدّوه وهما او غلطا وهو الصحيح والله يحقّ الحق بكلماته وكذلك تعلم ان الاوقية الشرعيّة ليست هى المتعارفة بين الناس لان المتعارفة مختلفة باختلاف الاقطار والشرعيّة متّحدة ذهنا لا خلاف فيها والله خلق كل شئ فقدّره تقديرا (الخاتم) واما الخاتم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكيّة والختم على الرسائل والصكوك معروف للملوك قبل الاسلام وبعده وقد ثبت فى الصحيحين ان النبى صلى الله عليه وسلم اراد ان يكتب الى قيصر فقيل له ان العجم لا يقبلون كتابا الا ان يكون مختوما فاتّخذ خاتما من فضّة ونقش فيه محمد رسول الله قال البخارى جعل الثلاث كلمات فى ثلاثة اسطر وختم به وقال لا ينقش احد مثله وقال وتختّم به ابو بكر وعمر وعثمان ثم سقط من يد عثمان فى بئر اريس وكانت كثيرة الماء فلم يدرك قعرها بعد واغتمّ لذلك عثمان وتطيّر منه وصنع

اخر على مثاله وفى كيفيّة نقش ذلك الخاتم والختم بـه وجوه وذلك ان الخاتم يطلق على الآلة التى تجعل فى الاصبع ومنه تختم اذا لبسه ويطلق على النهاية والتمام ومنه ختمت الامر بلغت آخره وختمت القران كذلك ومنه خاتم النبيين وخاتمة الامر ويطلق على السداد الذى تسدّ به الاوانى والدنان ويقال فيه ختام ومنه قوله تعالى ختامه مسك وقد غلط من فسّر هذا بالنهاية والتمام قال لان آخر ما يجدونه فى شرابهم ريح المسك وليس المعنى عليه وانما هو من الختام الذى هو السداد لان الخمر يجعل لها فى الدنّ سداد الطين او القار يحفظها ويطيّب عرفها وذوقها فبولغ فى وصف خمر الجنّة بان سدادها من المسك وهو اطيب عرفا وذوقا من الطين والقار المعهودين فى الدنيا فاذا صحّ اطلاق الخاتم على هذه كلها صحّ اطلاقه على اثرها الناشئ عنها وذلك ان الخاتم اذا نقشت فيه كلمات او اشكال ثم غمس فى مذاف من طين او مداد ووضع على صفح القرطاس بقى اثر الكلمات فى ذلك الصفح وكذلك اذا طبع به على جسم ليّن كالشمع فانه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسما فيه واذا كانت كلمات وارتسمت فقد تقرا من الجهة اليسرى ان كان النقش على الاستقامة من اليمنى وقد تقرا من الجهة اليمنى ان كان النقش من

الجهة اليسرى لان الختم يقلب جهة الخطّ فى الصفح عمّا كان فى النقش من يمين او يسار فيحتمل ان يكون الختم بهذا الخاتم بغمسه فى المداد والطين ووضعه على الصفح فتنتقش الكلمات فيه ويكون هذا فى معنى النهاية والتمام بمعنى صحّة ذلك المكتوب ونفوذه كان الكتاب انما يتمّ العمل به بهذه العلامة وهو من دونها ملغى ليس بتامّ وقد يكون هذا الختم بالخطّ آخر الكتاب او اوله بكلمات منتظمة من تحميد او تسبيح باسم السلطان او الامير او صاحب الكتاب من كان او شئ من نعوته يكون ذلك الخطّ علامة على صحّة الكتاب ونفوذه ويسمى ذلك فى المتعارف علامة ويسمى خاتما تشبيها له باثر الخاتم الاصبعى فى النقش ومن هذا خاتم القاضى الذى يبعث به للخصوم اى علامته وخطّه التى ينفذ بها احكامه ومنه خاتم السلطان او الخليفة اى علامته قال الرشيد ليحيى بن خالد لما اراد ان يستوزر جعفر او يستبدل به من الفضل اخيه فقال لابيهما يحيى يا ابت انّى اردت ان احوّل الخاتم من يمينى الى شمالى فكنى له بالخاتم عن الوزارة لما كانت العلامة على الرسائل والصكوك من وظائف الوزارة لعهدهم ويشهد بصحّة هذا الاطلاق ما نقله الطبرى ان معاوية ارسل الى الحسن عند مراوضته اياه فى الصلح

صحيفة بيضاء ختم على اسفلها وكتب اليه ان اشترط فى هذه الصحيفة التى ختمت اسفلها ما شئت فهو لك ومعنى الختم هنا علامة فى آخر الصحيفة بخطّ او غيره ويحتمل ان يختم به فى جسم ليّن فتنتقش فيه حروفه ويجعل على موضع الخزم من الكتاب اذا خزم وعلى المودعات وهو من السداد كما مرّ وهى فى الوجهين آثار للخاتم فيطلق عليه خاتم و اول من احدث الختم على الكتب اى العلامة معاوية لانه امر لعمرو بن الزبير عند زياد فى الكوفة بهاية الف ففتح الكتاب وصيّرت الماية مائتين ورفع زياد حسابه فانكرها معاوية وطلب بها عمرا وحبسه حتى قضاها عنه اخوه عبد الله واتّخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم ذكره الطبرى وقال اخره وخزم الكتب ولم تكن تخزم اى جعل لها السداد وديوان الخاتم عبارة عن الكتّاب القائمين على انفاذ كتب السلطان والختم عليها اما بالعلامة او بالخزم وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هولاء الكتّاب كما ذكرناه فى ديوان الاعمال والخزام للكتب يكون اما بدسر الورق كما فى عرف كتاب المغرب واما بلصق راس الصحيفة على ما تنطوى عليه من الكتاب كما فى عرف اهل المشرق وقد يجعل مكان الدسر او اللصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطّلاع على ما فيه

فاهل المغرب يجعلون على الدسر قطعة من الشمع يختمون عليها بخاتم نقشت فيه علامة لذلك فيرتسم النقش في الشمع وكان في المشرق في الدولة القديمة يختم على مكان اللصق بخاتم منقوش ايضا قد غمس في مذاف من الطين معدّ لذلك صبغه احمر فيرتسم ذلك النقش عليه وكان هذا الطين معروفا في الدولة العباسيّة بطين الختم وكان يجلب من سيراف فيظهر انه مخصوص بها فهذا الخاتم الذى هو العلامة المكتوبة او النقش للسداد او الخزم على الكتب خاصّ بديوان الرسائل وكان ذلك للوزير في الدولة العباسيّة ثم اختلف العرف وصار لمن اليه الترسيل وديوان الكتاب في الدول ثم صاروا في دول المغرب يعدّون من علامات الملك وشاراته الخاتم للاصبع فيستجيدون صوغه من الذهب ويرصّعونه بالفصوص من الياقوت والفيروزج والزمرد ويلبسه السلطان شارة في عرفهم كما كانت البردة والقضيب في الدولة العباسيّة والمظلّة في الدولة العبيديّة والله مصرّف الامور بحكمته (الطراز) ومن ابّهة الملك والسلطان ومذاهب الدول ان ترتسم اسماوهم او علامات تختصّ بهم في طرز اثوابهم المعدّة للباسهم من الحرير او الديباج او الابريسم تعتبر كتابة خطّها في نسج الثوب الحاما وسدوا بخيط الذهب او يخالف لون الثوب من

الخيوط الملوّنة من غير الذهب على ما يحكمه الصنّاع فى تقدير ذلك ووضعه فى صناعة نسجهم فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصدا للتنويه بلابسها من السلطان فمن دونه او التنويه بمن يختصّه السلطان بملبوسه اذا قصد تشريفه بذلك او ولايته لوظيفة من وظائف دولته وكان ملوك العجم قبل الاسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك واشكالهم او اشكال وصور معيّنة لذلك ثم اعتاض ملوك الاسلام عن ذلك بكتب اسمائهم مع كلمات اخرى تجرى مجرى الفأل او السجلات وكان ذلك فى الدولتين من انبه الامور وافخم الاحوال وكانت الدور المعدّة لنسج اثوابهم فى قصورهم تسمى دور الطراز لذلك وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز ينظر فى امور الصنّاع والآلة والحاكة فيها واجراء ارزاقهم وتسهيل آلاتهم ومشارفة اعمالهم وكانوا يقلدون ذلك لخواصّ دولتهم وثقات مواليهم وكذلك كان الحال فى دولة بنى امية بالاندلس والطوائف من بعدهم وفى دولة العبيديّين بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك العجم بالمشرق (ثم) لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنّن فيه بضيق نطاقها فى الاستيلاء وتعدّدت الدول بطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من اكثر الدول بالجملة (ولما) جاءت دولة الموحدين

بالمغرب بعد بنى امية اول المائة السادسة فلم ياخذوا بذلك اول دولتهم لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة التى لقنوها عن امامهم محمد بن تومرت المهدى وكانوا يتورّعون عن لبس الحرير والذهب فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم واستدرك منها اعقابهم آخر الدولة طرفا لم يكن بتلك النباهة (واما) لهذا العهد فادركنا بالمغرب فى الدولة المرينية لعنفوانها وشموخها رسما جليلا لقنوه من دولة ابن الاحمر معاصرهم بالاندلس واتبع هو فى ذلك دول الطوائف فاتى منه بلمحة شاهدة بالاثر (واما) دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد ففيه من الطراز بحرز اخر على مقدار ملكهم وعمران بلادهم الا ان ذلك لا يصنع فى دورهم وقصورهم وليست من وظائف دولتهم وانما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعه من الحرير ومن الذهب الخالص ويسمونه الزركش لفظة اعجميّة ويرسم اسم السلطان او الامير عليه وبعده الصناع لهم فيما يعدّونه للدولة من طرف الصناعة اللايقة بها والله مقدّر الليل والنهار وهو خير الوارثين لا اله غيره (الفساطيط والسياج) اعلم ان من شارات الملك وترفه اتّخاذ الاخبية والفساطيط والفازات من ثياب الكتان والصوف والقطن بجدل الكتان والقطن يباهى بها فى الاسفار وتنوع منها الالوان ما بين كبير

وصغير على نسبة الدولة فى الثروة واليسار وانما يكون الامر فى اول الدولة فى بيوتهم التى جرت عادتهم باتّخاذها قبيل الملك وكان العرب لعهد الخلفاء الاولين من بنى امية انما يسكنون بيوتهم التى كانت لهم خياما من الوبر والصوف ولم تزل العرب لذلك العهد بادين الّا الاقلّ منهم فكانت اسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم وسائل حللهم واحيائهم من الاهل والولدان كما هو شأن العرب لهذا العهد فكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل بعيدة ما بين المنازل متفرّقة الاحياء يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الاخرى كشأن العرب (ولذلك) ما كان عبد الملك يحتاج الى ساقة لحشر الناس على اثره ان يقيموا اذا ظعن (ونقل) انه استعمل فى ذلك الحجاج حين اشار به روح بن زنباع وقصّته فى احراق فساطيط روح وخيامه لاول ولايته حين وجدهم مقيمين فى يوم رحيل عبد الملك قصّة مشهورة ومن هذه الولاية تعرف رتبة الحجاج بين العرب فانه لا يتولّى ارادتهم على الظعن الّا من يأمن بوادر السفهاء من احيائهم بما له من العصبيّة الحائلة دون ذلك ولهذا اختصّه عبد الملك بمثل هذه الرتبة ثقة بغنائه فيها بعصبيته وصرامته (فلما) تفنّنت الدولة العربيّة فى مذاهب الحضارة والبذخ ونزلوا المدن وال امصار وانتقلوا من سكنى الخيام

الى سكنى القصور ومن ظهر الخفّ الى ظهر الحافر اتّخذوا للسكنى فى اسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتا مختلفة الاشكال مقدّرة الامثال من القور والمستطيلة والمربّعة ويختلفون فيها بابلغ مذاهب الاحتفال والزينة ويدير الامير او القائد للعساكر على فساطيطه وفازانه من بينهم سياجا من الكتان يسمى فى المغرب باللسان البربرى الذى هو لسان اهله افراك بالكاف التى بين القاف والكاف ويختصّ به السلطان بذلك القطر لا يكون لغيره وامّا فى المشرق فيتّخذه كل اميروان كان دون السلطان ثم جنحت الدعة بالنساء والولدان الى المقام بقصورهم ومنازلهم فخفّ لذلك ظهرهم وتقارب السياج بين منازل العسكر واجتمع الجيش والسلطان فى معسكر واحد يحصره البصر فى بسيطه زهرا انيقا لاختلاف الوانه واستمرّ الحال على ذلك فى مذاهب الدول فى بذخها وترفها وكذا كانت دولة الموحدين وزناتة التى اظلتنا كان سفرهم اول امرهم فى بيوت سكناهم قبل الملك من الخيام والقياطن حتى اذا اخذت الدولة فى مذاهب الترف وسكنى القصور عادوا الى اتّخاذ الاخبية والفساطيط وبلغوا من ذلك فوق ما ارادوه وهو من الترف بمكان الّا ان العساكر به تصير عرضة للبيات لاجتماعهم فى مكان واحد تشملهم فيه

الصيحة ولخفّتهم من الاهل والولد الذى تكون الاستماتة دونهم فيحتاج فى ذلك الى تحفّظ اخر كما نذكره والله القوى العزيز

المقصورة للصلاة والدعاء فى الخطبة

وهما من الامور الخلافيّة ومن شارات الملك الاسلامى ولم تعرف فى غير دول الاسلام فاما البيت المقصورة لصلاة السلطان تتّخذ سياجا على المحراب فتحوزه وما يليه فاول من اتّخذها معاوية بن ابى سفيان حين طعنه الخارجى والقصّة معروفة وقيل اول من اتّخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليمانى ثم اتّخذها الخلفاء من بعدهما وصارت سنّة فى تمييز السلطان عن الناس فى الصلوة وهى انما تحدث عند حصول الترف فى الدولة والاستفحال شأن احوال الابّهة كلّها وما زال الشأن ذلك فى الدول الاسلاميّة كلها وعند افتراق الدولة العباسيّة وتعدّد الدول بالمشرق وكذا بالاندلس عند انقراض الدولة الامويّة وتعدّد ملوك الطوائف (واما المغرب) فكان بنو الاغلب يتّخذونها بالقيروان ثم خلفاء العبيديّين ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بالقيروان وبنو حماد بالقلعة (ثم) ملك الموحدون سائر المغرب والاندلس ومحوا ذلك الرسم على طريقة

البداوة التى كانت شعارهم ولما استفحلت الدولة واخذت بحظّها من الترف وجاء يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتّخذ هذه المقصورة وبقيت من بعده سنّة لملوك المغرب والاندلس وهكذا الشأن فى سائر الدول سنّة الله فى عباده (واما الدعاء) على المنابر فى الخطبة فكان الشأن اولا عند الخلفاء ولاية الصلاة بانفسهم فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم والرضاء عن اصحابه واول من اتّخذ المنبر عمرو بن العاص لما بنى جامعه بمصر وكتب اليه عمر رضى الله عنه اما بعد انّك اتّخذت منبرا ترقى به على رقاب المسلمين او ما يكفيك ان تقوم قائما والمسلمون تحت عقبيك فعزمت عليك لما كسرته فلما حدثت الابّهة وحدث فى الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة واستنابوا فيهما فكان الخطيب يشيد بذكر الخليفة على المنبر تنويها باسمه ودعاء له بما جعل الله مصلحة العالم فيه ولان تلك الساعة مظنّة للاجابة ولما ثبت عن السلف فى قولهم من كانت له دعوة صالحة فليضعها فى السلطان واول من دعا للخليفة فى الخطبة ابن عباس دعا لعلى رضى الله عنهما فى خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها فقال اللهمّ انصر عليا الحق واتصل العمل على ذلك فيما بعد وكان الخليفة يفرد بذلك فلما جاء

الحجر والاستبداد صار المتغلبون على الدول كثيرا ما يشاركون الخليفة فى ذلك ويشاد باسمهم عقب اسمه وذهب ذلك بذهاب تلك الدول وصار الامر الى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه وحظر ان يشاركه فيه احد او يسمو اليه وكثيرا ما يغفل الماهدون من اهل الدول هذا الرسم عند ما تكون فى اسلوب الغضاضة ومناحى البداوة فى التغافل والخشونة ويقنعون بالدعاء على الابهام والاجمال لمن ولى امور المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة اذا كانت على هذا المنحى عباسيّة يعنون بذلك ان الدعاء على الاجمال انّما يتناول العباسىّ تقليدا فى ذلك لما سلف من الامر ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه يحكى ان يغمراسن بن ريان ماهد دولة بنى عبد الواد لما غلبه الامير ابو زكريا يحيى بن ابى حفص على تلمسان ثم بدا له فى اعادة الامر اليه على شروط شرطها كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله فقال يغمراسن ذكر اعوادهم يذكرون عليها من شاوا وكذلك يعقوب بن عبد الحقّ ماهد دولة بنى مرين حضره رسول المستنصر الخليفة بتونس من بنى ابى حفص وثالث ملوكهم وتخلّف بعض ايام عن الجمعة فقيل له لم لم يحضر هذا الرسول لخلو الخطبة من ذكر سلطان فاذن فى

الدعاء له وكان ذلك سببا لاخذهم بدعوته وهكذا شأن الدول فى بدايتها وتمكّنها فى الغضاضة والبداوة فاذا انتبهت عيون سياستهم ونظروا فى اعطاف ملكهم واستتمّوا شياة الحضارة ومعانى البذخ والابّهة انتحلوا جميع هذه السمات وتفنّنوا فيها وتجاوزوا الى غايتها وانفوا من المشاركة فيها وجزعوا من افتقادها وخلوّ دولتهم من آثارها والعالم بستان والله على كل شئ رقيب

فصل فى الحروب ومذاهب الامم فى ترتيبها

اعلم ان الحروب وانواع المقاتلة لم تزل واقعة فى الخليقة منذ برأها الله واصلها ارادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصّب لكل منهما اهل عصبية فاذا تذامروا لذلك وتواقفت الطائفتان احديهما تطلب الانتقام والاخرى تدافع كانت الحرب وهو امر طبيعىّ فى البشر لا تخلو عنه امّة ولا جيل وسبب هذا الانتقام فى الاكثر امّا غيرة ومنافسة وامّا عدوان وامّا غضبا لله ولدينه واما غضبا للملك سعى فى وتمهيده فالاول اكثر ما يجرى بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة والثانى وهو العدوان اكثر ما يكون من الامم الوحشيّة الساكنين بالقفر كالعرب والترك والتركمان والاكراد واشباههم لانهم جعلوا ارزاقهم فى

رماحهم ومعاشهم فيها بايدى غيرهم ومن دافعهم عن متاعه آذنوه بالحرب ولا بغية لهم فيها وراء ذلك من رتبة ولا ملك وانما همّهم ونصب اعينهم غلب الناس على ما فى ايديهم والثالث هو المسمّى فى الشريعة بالجهاد والرابع هى حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها فهذه اربعة اصناف من الحروب الصنفان الاولان منها حروب بغى وفتنة والصنفان الاخران حروب جهاد وعدل (وصفة) الحروب الواقعة بين اهل الخليقة منذ اول وجودهم على نوعين نوع بالزحف صفوفا ونوع بالكرّ والفرّ (واما) الذى بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب اجيالهم واما الذى بالكرّ والفرّ فهو قتال العرب والبربر من اهل المغرب وقتال الزحف اوثق واشدّ من قتال الكرّ والفرّ وذلك ان قتال ازلحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح او صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم الى العدوّ قدما فذلك اثبت عند المصاع واصدق فى القتال وارهب للعدوّ لانه كالحايط الممتدّ والقصر المشيّد لا يطمع فى ازالته وفى التنزيل ان الله يحبّ الذين يقاتلون فى سبيله صفّا كانهم بنيان مرصوص اى يشدّ بعضهم بعضا بالثبات وفى الحديث المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا ومن هناك يظهر لك حكمة ايجاب الثبات وتحريم التولى فى الزحف فان

المقصود بالصفّ فى القتال حفظ النظام كما قلناه فمن ولى
العدوّ ظهره فقد اخلّ بالمصاف وباء باثم الهزيمة كانه
جرّها على المسلمين وامكن منهم عدوّهم فعظم الذنب لعموم
المفسدة وتعدّيها الى الدين بخرق سياجه فعدّ من الكبائر
ويظهر من هذه الادلّة ان قتال الزحف اثر عند الشارع واما
قتال الكرّ والفرّ فليس فيه من الشدّة والامن من الهزيمة ما
فى قتال الزحف الا انهم قد يتّخذون وراءهم فى القتال
مصافا ثابتا يلجؤن اليه فى الكرّ والفرّ ويقوم لهم مقام قتال
الزحف كما نذكره بعد (ثم) ان الدول القديمة الكثيرة الجنود
المتّسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر اقساما
لانه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشروا من قاصية
النواحى استدعى ذلك ان يجهل بعضهم بعضا اذا اختلطوا
فى مجال الحرب واعتوروا مع عدوّهم الطعن والضرب
فيخشى من تواقعهم فيما بينهم لاجل النكراء والجهل بعضهم
ببعض فلذلك كانوا يقسمون العساكر جموعا ويضمّون
المتعارفين بعضهم الى بعض ويرتبونها قريبا من الترتيب
الطبيعىّ فى الجهات الاربع ورئيس العساكر كلها من سلطان
او قائد فى القلب ويسمّون هذا الترتيب التعبية وهو مذكور
فى اخبار فارس والروم والدولتين صدر الاسلام فيجعلون بين
يدى الملك عسكرا منفردا بصفوفه متميّزا بقائده ورايته

يسمّونه المقدّمة ثم عسكر اخر من ناحية اليمين عن موقف الملك يسمونه الميمنة ثم عسكر اخر من ناحية الشمال يسمونه الميسرة ثم اخر من وراء العسكر يسمونه الساقة ويقف الملك واصحابه فى الوسط بين هذه الاربع ويسمّون موقفه القلب فاذا تمّ لهم هذا الترتيب المحكم اما فى مدًا واحد للبصر او على مسافة بعيدة اكثرها اليوم واليومان بين كل عسكرين منها او كيف ما اعطاه حال العساكر فى القلّة والكثرة فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبيه وانظر ذلك فى اخبار الفتوحات واخبار الدولتين وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك يتخلّف عن رحيله لبعد المدى فى التعبية فاحيتج الى من يسوقها من خلفه وعيّن لذلك الحجاج بن يوسف كما اشرنا اليه وكما هو معروف فى اخباره وكان فى الدولة الاموية بالاندلس ايضا كثير منه وهو مجهول فيها لدينا لانّا انّما ادركنا دولا قليلة العساكر لا تنتهى فى مجال الحرب الى التناكر بل اكثر الجيوش من الطائفتين معا تجمعهم لدينا حلّة او مدينة ويعرف كل منهم قرنه ويناديه فى حومة الحرب باسمه ولقبه فاستغنى عن تلك التعبية

(فصل) ومن مذاهب اهل الكرّ والفرّ فى الحروب ضرب المصاف وراء عساكرهم من الجمادات والحيوانات العجم فيتّخذونها ملجاء للخيالة فى كرّهم وفرّهم يطلبون به ثبات

المقاتلة ليكون ادوم للحرب واقرب الى الغلب وقد يفعله
اهل الزحف ايضا ليزيدهم ثباتا وشدّة فقد كان الفرس وهم
اهل الزحف يتّخذون الفيلة فى الحروب ويحملون عليها
ابراجا من الخشب امثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح
والرايات ويصفّونها وراءهم فى حومة الحرب كانها الحصون
فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم وانظر ما وقع من
ذلك فى القادسية وان فارس فى اليوم الثالث اشتدّوا بهم
على المسلمين حتى اشتدّت رجالات من العرب فخالطوها
ونفحوها بالسيوف على خراطيمها فنفرت ونكصت على
اعقابها الى مرابطها بالمداين فخفّ معسكر فارس لذلك
وانهزموا فى اليوم الرابع (واما) الروم وملوك القوط بالاندلس
بل واكثر العجم فكانوا يتّخذون لذلك الاسرّة وينصبون
للملك سريره فى حومة الحرب ويحقّ به من خدمه وحاشيته
وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه وترفع الرايات فى
اركان السرير ويحدق به سياج اخر من الرماة والرجالة فيعظم
هيكل السرير ويصير فئة للمقاتلة وملجاء للكرّ والفرّ وفعل
ذلك الفرس ايام القادسية وكان رستم جالسا فيها على سرير
نصبه لجلوسه حتى اختلّت صفوف فارس وخالطه العرب
فى سريره ذلك فتحوّل عنه الى الفراة وقتل (واما) اهل
الكرّ والفرّ من العرب واكثر الامم البدوية الرحالة فيصفّون

لذلك ابلهم والظهر الذى يحمل ظعائنهم فيكون فئة لهم ويسمّونه المجبودة (1) وليس امّة من الامم الا وهى تفعل ذلك فى حروبها وتراه اوثق من الجولة وامن من الغرة والهزيمة وهو امر مشاهد وقد اغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظهر الحامل للاثقال والفساطيط يجعلونها ساقة من خلفهم ولا تغنى غناء الفيلة والابل فصارت العساكر بذلك عرضة للهزايم مستشعرة للفرار فى المواقف وكان الحرب اول الاسلام كلّه زحفا وان كان العرب انما يعرفون الكرّ والفرّ لكن حملهم على ذلك اول الاسلام امران احدهما ان عدوهم كانوا يقاتلون زحفا فيضطرّون الى مقاتلتهم بمثل قتالهم الثانى انهم كانوا مستميتين فى جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما رسخ فيهم من الايمان والزحف الى الاستماتة اقرب (واول) من ابطل الصفّ فى الحرب وصار الى التعبية كراديس مروان بن الحكم فى قتال الضحاك الخارجى والخيبرى بعده قال الطبرى لما ذكر قتل الخيبرى فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبد العزيز اليشكرى ويلقب ابا الدلفا وقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وابطل الصفّ من يومئذ انتهى فتنوسى قتال الزحف بابطال الصفّ ثم تنوسى الصفّ وراء المقاتلة بما

(1) Man. C. محمودة. D. مجبودة.

داخل الدولة من الترف وذلك انها حين ما كانت بدوية وسكناهم الخيام كانوا يستكثرون من الابل وسكنى النساء والولدان معهم فى الاحياء فلما حصلوا على ترف الملك والفوا سكنى القصور والحواضر وتركوا شأن البادية والقفر نسوا لذلك عهد الابل والظعائن وصعب عليهم اتّخاذها فخلفوا النساء فى الاسفار وحملهم الملك والترف على اتّخاذ الفساطيط والاخبية فاقتصروا على الظهر الحامل للاثقال والآنية وكان ذلك صفّهم فى الحرب ولا يغنى كل الغناء لانه لا يدعو الى الاستماتة كما يدعو اليها الاهل والمال فيخفّ الصبر من اجل ذلك وتفرقهم الهيعات وتخرم صفوفهم (فصل) ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العسكر وتاكّده فى قتال الكرّ والفرّ صار ملوك المغرب يستخدمون طوائف من الفرنج فى جندهم واختصّوا بذلك لان قتال اهل وطنهم كله بالكرّ والفرّ والسلطان يتاكّد فى حقّه ضرب المصاف ليكون ردأ للمقاتلة امامه فلا بدّ وان يكون اهل ذلك الصفّ من قوم متعوّدين للثبات فى الزحف والا اجفلوا على طريقة اهل الكرّ والفرّ فانهزم السلطان والعسكر بانجفالهم فاحتاج الملوك بالمغرب ان يتّخذوا جندا من هذه الامّة المعوّدة الثبات فى الزحف وهم الا فرنج ويرتبون مصافهم المحدق بهم منها هذا على ما فيه من الاستعانة

باهل الكفر وانما استخفوا ذلك للضرورة التى اريناكها من
تخوّف الانجفال على مصاف السلطان والفرنج لا يعرفون غير
الثبات فى ذلك لان عادتهم فى القتال الزحف فكانوا
اقوم بذلك من غيرهم مع ان الملوك فى المغرب انما
يفعلون ذلك عند الحرب مع امم العرب والبربر وقتالهم
قبائلهم على الطاعة واما فى الجهاد فلا يستعينون بهم حذرا
من ممالاتهم على المسلمين هذا هو الواقع بالمغرب لهذا
العهد وقد ابدينا سببه والله بكل شئ عليم (فصل) ويبلغنا
عن امم الترك لهذا العهد قتالهم مناضلة بالسهام وان
تعبية الحرب عندهم بالمصاف وانهم يقسمون عسكرهم ثلاثة
صفوف يضربون صفّا وراء صفّ ويترجّلون عن خيولهم
يفرغون سهامهم (1) بين ايديهم ثم يتناضلون جلوسا وكل صفّ
ردء للذى امامه ان يكبسهم العدوّ الى ان يتهيّأ النصر لاحدى
الطائفتين على الاخرى وهى تعبية محكمة غريبة (فصل)
وكان من مذاهب الاول فى حروبهم حفر الخنادق على
معسكرهم عند ما يتقاربون للزحف حذرا من معرّة البيات
والهجوم على العسكر بالليل لما فى ظلمته ووحشته من
مضاعفة الخوف فتلوذ الجيوش بالفرار وتجد النفوس فى
الظلمة سترا من عاره فاذا تساووا فى ذلك ازحف المعسكر

(1) Man. A. ينثنون كنائنهم. B. ينشلون كنائنهم.

ووقعت الهزيمة فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على معسكرهم اذا نزلوا وضربوا ابنيتهم ويديرون الحفائر نطاقا عليهم من جميع جهاتهم حصنا ان يخالطهم العدوّ بالبيات فيتخاذلوا وكانت للدول فى امثال هذا قوة وعليه اقتدار باحتشاد الرجل وجمع الايدى عليه فى كل منزل من منازلهم بما كانوا عليه من وفور العمران وضخامة الملك فلما خرب العمران وتبعه ضعف الدول وقلّة الجنود وعدم الفعلة نسى الشأن جملة كانه لم يكن والله خير القادرين (وانظر) فى وصية على رضى الله عنه وتحريضه لاصحابه يوم صفّين تجد كثيرا من علم الحرب ولم يكن احد ابصر بها منه قال فى كلام له فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدّموا الذراع واخّروا المحاسر (1) وعضوا على الاضراس فانه انبا للسيوف عن الهام والتووا فى اطراف الرماح فانه اصون (2) للاسنّة وغضّوا الابصار فانه اربط للجاش واسكن للقلوب واميتوا الاصوات فانه اطرد للفشل واولى بالوقار وراياتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها ولا تجعلوها الا بايدى شجعانكم واستعينوا بالصدق والصبر فانه بعد الصبر ينزل النصر (وقال) الاشتر يومئذ يحرّض الازد عضّوا على النواجد من الاضراس واستقبلوا القوم بهامكم وشدّوا شدّة قوم موتورين يثارون بابائهم واخوانهم حنقا على

(1) Man. A. et B. المجاسر.

(2) Man. A. et B. اصول.

عدوّهم قد وطنوا على الموت انفسهم كيلا يسبقوا بوتر ولا يلحقهم فى الدنيا عار وقد اشار الى كثير من ذلك ابو بكر الصيرفى شاعر لمتونة واهل الاندلس فى كلمة يمدح فيها تاشفين بن على بن يوسف ويصف ثباته فى حرب شهدها ويذكره بامور الحرب فى وصايا وتحذيرات تنبهك على معرفة الكثير من سياسة الحرب يقول فيها

يا ايها الملاء الذى يتقنّع   من منكم الملك الهمام الاروع
ومن الذى غدر العدوّ به دجى   فانفض كل وهو لا يتضعضع
تمضى الفوارس والطعان يصدها   عنه ويدمرها الوفا فترجع
والليل من وضح الترائك انه   صبح على هام الجيوش ملمع
انى فزعتم يابنى صنهاجة   واليكم فى الروع كان المفزع
وصددتم عن تاشفين وانه   لعقابه لو شاء فيكم موضع
انسان عين لم يصنه (1) منكم   جفن وقلب اسلمته الاضلع
ما انتم الا اسود خفية   كل بكل كريهة مستطلع (2)
يا تاشفين اقم لجيشك عذره   بالليل والقدر الذى لا يدفع (3)

(ومنها فى سياسة الحروب)

اهديك من ادب السياسة ما به   كانت ملوك الفرس قبلك تولع
لا اننى ادرى بها لكنها   ذكرى تخصّ المومنين وتنفع
البس من الحلق المضاعفة التى   وصى بها صنع الصنائع تبع
والهندوانى الرقيق فانه   امضى على حدّ الدلاص واقطع
واركب من الخيل السوابق عدّة   حصنا حصينا ليس فيه مدفع
خندق عليك اذا ضربت محلّة   سيان تتبع ظافرا او تتبع
والواد لا تعبره وانزل عنده   بين العدوّ وبين جيشه يقطع

(1) Man. A. B. يصبه. (2) Man. A. B. مستضلع. (3) Man. A. et B. ينفع.

واجعل منازلة العدو(1) عشية ووراءك الصدق الذى هو امنع
واذا تضايقت الجيوش بمعرك ضنك فاطراف الرماح توسع
واصدمه اول وهلة لا تكترث شيا فاظهار النكول تضعضع
واجعل من الطلاع اهل شهامة الصدق فيهم شيمة لا مخدع
لا تسمع الكذّاب جاءك مرجفا لا راى للمكذوب فيما يصنع

وقوله واصدمه من اول وهلة البيت مخالف لما عليه الناس من امر الحرب فقد قال عمر لابى عبيد بن مسعود الثقفى لما ولاه حرب فارس والعراق فقال له اسمع من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم واشركهم فى الامر ولا تجيبن مسرعا حتى يتبيّن فانها الحرب ولا يصلح لها الا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكفّ وقال له فى اخرى انه لم تمنعنى ان اومر سليطا الا سرعته فى الحرب وفى التسرّع فى الحرب الا عن بيان ضياع والله لولا ذلك لامّرته لكن الحرب لا يصلحها الا المكيث هذا كلام عمر وهو شاهد بان التثاقل فى الحرب اولى من الخفوف حتى يتبيّن حال تلك الحروب وذلك عكس ما قاله الصيرفى الا ان يريد ان الصدم بعد البيان فله وجه والله اعلم (فصل) ولا وثوق فى الحرب بالظفر وان حصلت اسبابه من العدّة والعديد وانّما الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتّفاق وبيان ذلك ان اسباب الغلب فى الاكثر مجتمعة من امور ظاهرة وهى

(1) Man. C. D. مناجزة الجيوش.

الجيوش ووفورها وكمال الاسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصاف وصدق القتال وما جرى مجرى ذلك ومن امور خفية وهى امّا من حيَل البشر وخدعهم فى الارجاف والتشانيع التى يقع بها التخذيل وفى التقدّم الى الاماكن المرتفعة ليكون الحرب من على فيتوهّم المنخفض لذلك ويتخاذل وفى الكمون فى الغياض ومطمئن الارض والتوارى بالكدا عن العدوّ حتى تبدو لهم العساكر دفعة وقد تورّطوا فيتلفّتون الى النجاة وامثال ذلك وامّا ان تكون الاسباب الخفيّة امور سماويّة لا قدرة للبشر على اكتسابها تلقى فى القلوب فيستولى الرهب عليهم من اجلها فتختلّ مراكزهم وتقع الهزيمة واكثر ما تقع الهزائم عن هذه الاسباب الخفيّة لكثرة ما يعتمد كل واحد من الفريقين فيها حرصا على الغلب فلا بدّ من وقوع التأثير فى ذلك لاحدهما ضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة ومن امثال العرب ربّ حيلة انفع من قبيلة فقد تبيّن ان وقوع الغلب فى الحروب غالبا عن اسباب خفيّة غير ظاهرة ووقوع الاشياء عن الاسباب الخفيّة هو معنى البخت كما تقرّر فى موضعه فاعتبره فتفهم من وقوع الغلب عن الامور السماويّة كما شرحناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر وما وقع من غلبه للمشركين

فى حياته بالعدد القليل وغلب المسلمين اياهم بعده كذلك
فى الفتوحات فان الله سبحانه وتعالى تكفّل لنبيه بالقاء
الرعب فى قلوب الكافرين حتى يستولى على قلوبهم
فينهزموا معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان الرعب
فى القلوب سببا للهزائم فى الفتوحات الاسلاميّة كلّها الا انه
خفى عن العيون (وقد) ذكر الطرطوشى ان من اسباب الغلب
فى الحرب ان تفضل عدّة الفرسان المشاهير من الشجعان
فى احد الجانبين على عدّتهم فى الجانب الاخر مثل ان
يكون احد الجانبين فيه عشرة او عشرين من الشجعان
المشاهير وفى الجانب الاخر ثمانية او ستّة عشر فالجانب
الزائد ولو بواحد يكون له الغلب واعاد فى ذلك وابدا
وهو راجع الى الاسباب الظاهرة التى قدّمنا وليس بصحيح وانّما
الصحيح المعتبر فى الغلب حال العصبيّة ان تكون فى
احدى الجانبين عصبيّة واحدة جامعة لكلهم وفى الجانب
الاخر عصائب متعدّدة والجانبان معا متقاربان فى العدّة فان
الجانب الذى عصبيّته واحدة اقوى واغلب من الجانب
الذى هو عصائب متعدّدة لان العصائب اذا كانت متعدّدة يقع
بينها من التخاذل مع يقع فى الوحدان المفترقين الفاقدين
للعصبيّة اذ تتنزّل كل عصابة منهم منزلة الواحد ويكون
الجانب الذى عصائبه متعدّده لا يقاوم الجانب الذى

عصبيّته واحدة لاجل ذلك فتفهمه واعلم انه اصحّ فى الاعتبار ممّا ذهب اليه الطرطوشى ولم يحمله على ذلك الّا نسيان شأن العصبيّة فى جيله وبلده وانّهم انّما يريدون الدفاع والحماية والمطالبة الى الوحدان والجماعة الناشئة عنهم ولا يعتبرون فى ذلك عصبيّة ولا نسبا وقد بيّنّا ذلك فى اول الكتاب مع ان هذا وامثاله على تقدير صحّته انّما هو من الاسباب الظاهرة مثل اتّفاق الجيشين فى العدّة وصدق القتال وكثرة الاسلحة وما اشبهها فكيف يجعل ذلك سببا كفيلا بالغلب ونحن قد قدّرنا الآن ان شئا منها لا يعارض الاسباب الخفيّة مثل الحِيَل والخدع ولا الامور السماويّة من الرعب والخذلان الالهى فاعلمه وتفهّم احوال الكون فالله مقدّر الليل والنهار (فصل) ويلحق بمعنى الغلب فى الحروب وان اسبابه خفيّة وغير طبيعيّة حال الشهرة والصيت فقلّ ان تصادف موضعها فى احد من طبقات الناس من الملوك او العلماء او الصالحين او المنتحلين للفضائل على العموم فكثير ممن اشتهر وبعد صيته وليس هناك وكثير ممن اشتهر بالشرّ وهو بخلافه وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو احقّ بها واهلها وقد تصادف موضعها وتكون طبقا على صاحبها والسبب فى ذلك ان الشهرة والصيت انّما هى بالاخبار والاخبار يدخلها الذهول

عن المقاصد عند التناقل ويدخلها التعصّب والتشيّع ويدخلها الاوهام ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للاحوال لخفائها بالتلبيس والتصنّع اولجهل الناقل ويدخلها التقرّب لاصحاب التجلّة والمراتب الدنيويّة بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر بذلك والنفوس مولعة بحبّ الثناء والناس متطاولون الى الدنيا واسبابها من جاه او ثروة وليسوا فى الاكثر براغبين فى الفضائل ولا منافسين اهلها واين مطابقة الحقّ من هذه كلها فتحصل الشهرة عن اسباب خفيّة من هذه وتكون غير مطابقة وكل ما حصل بسبب خفىّ فهو الذى يعبّر عنه بالبخت كما تقرّر

فصل فى الجباية وسبب نقصها ووفورها

اعلم ان الجباية اول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة والسبب فى ذلك ان الدولة ان كانت على سنن الدين فليس الّا المغارم الشرعيّة من الصدقات والخراج والجزية وهى قليلة الوزائع لان مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت وكذا زكاة الحبوب والماشية وكذا الجزى والخراج وجميع المغارم الشرعيّة وهى حدود لا تتعدّى وان كانت على سنن العصبيّة والتغلّب فلا بدّ من البداوة فى اولها كما تقدّم

والبداوة تقتضى المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجافى عن امور الناس والغفلة عن تحصيل ذلك الّا فى النادر فيقلّ لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزيعة التى تجتمع الاموال من مجموعها واذا قلّت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه فيكثر الاعتمار ويتزائد لحصول الاغتباط بقلّة المغرم واذا كثر الاعتمار كثرت اعداد تلك الوظائف والوزائع فكثرت الجباية التى هى جملتها فاذا استمرّت الدولة واتّصلت وتعاقب ملوكها واحدا بعد واحد واتّصفوا بالكيس وذهب سرّ البداوة والسذاجة وخلقها من الاغضاء والتجافى وجاء الملك الغضوض (1) والحضارة الداعية الى الكيس وتخلّق اهل الدولة بخلق التحذلق وتكثّرت عوائدهم وحاجاتهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والاكرة والفلّاحين وسائر اهل المغارم ويزيدون فى كلّ وظيفة ووزيعة مقدارا عظيما لتكثر لهم الجباية ويضعون المكوس على البياعات وفى ابواب المدينة كما نذكر بعد ثم تتدرّج الزيادات فيها مقدارا بعد مقدار لتدرّج عوائد الدولة فى الترف وكثرة الحاجات والانفاق بسببه حتى تثقل المغارم على الرعايا وتبهضهم وتصير عادة مفروضة لان تلك

(1) Man. C. et D. العضوض.

الزيادة تدرّجت قليلا قليلا ولم يشعر احد بمن زادها على التعيين ولا من هو واضعها انما تثبت على الرعايا كأنّها عادة مفروضة ثم تزيد الى الخروج عن حدّ الاعتدال فتذهب غبطة الرعايا فى الاعتمار لذهاب الامل من نفوسهم بقلّة النفع اذا قابل بين نفقته ومغارمه وبين ثمرته وفائدته فينقبض كثير من الايدى عن الاعتمار جملة فتنقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها وربّما يزيدون فى مقدار الوظائف اذا راوا ذلك النقص فى الجباية ويحسبونه جبرا لما نقص حتى ينتهى كل وظيفة ووزيعة الى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الانفاق حينئذ فى الاعتمار وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به فلا تزال الجملة فى نقص ومقدار الوزائع والوظائف فى زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها الى ان ينتقص (1) العمران بذهاب الآمال من الاعتمار ويعود وبال ذلك على الدولة لان فائدة الاعتمار عائدة اليها واذا فهمت ذلك علمت ان اقوى الاسباب فى الاعتمار تقليل مقدار الوظائف على المعتمرين ما امكن فبذلك تنشط النفوس ليقينها بادراك المنفعة فيه والله مالك الامور

(1) Man. A. ينتقص. B. ينقص.

فصل فى ضرب المكوس آخر الدول

اعلم ان الدول تكون فى اولها بدوية كما قلنا فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فيكون خرجها وانفاقها قليلا فيكون فى الجباية حينئذ وفآء بازيد منها بل يفضل منها كثير عن حاجاتها ثم لا يلبث ان تاخذ بدين الحاضرة والترف وعوائدها وتجرى على نهج الدول السالفة قبلها فيكثر لذلك خرج الدولة ويكثر خرج السلطان خصوصا كثرة بالغة بنفقته على خاصته وكثرة عطائه ولا تفى بذلك الجباية فتحتاج الدولة الى الزيادة فى الجباية لما تحتاج اليه الحامية من العطاء والسلطان من النفقة فتزيد فى مقدار الوظائف والوزائع اولا كما قلناه ثم يزيد الخرج والحاجات بالتدريج فى عوائد الترف وفى العطاء للحامية ويدرك الدولة الهرم وتضعف عصابتها عن جباية الاموال من الاعمال والقاصية فتقل الجباية وتكثر العوائد وتكثر بكثرتها ارزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة انواعا من الجباية يضربها على البياعات ويفرض لها قدرا معلوما على الاثمان فى الاسواق وعلى اعيان السلع فى ابواب المدينة وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه اليه ترف الناس من كثرة العطاء مع زيادة الجيوش والحامية وربما يزيد ذلك فى آخر الدول زيادة بالغة فتكسد

الاسواق بفساد الآمال ويؤذن ذلك باختلال العمران ويعود على الدولة ولا يزال ذلك يتزايد الى ان يضمحلّ وقد كان وقع منه بامصار المشرق فى اخريات الدولة العباسيّة والعبيديّة كثير وفرضت المغارم حتى على الحاج فى الموسم واسقط صلاح الدين بن ايوب رحمه الله تلك الرسوم جملة واعاضها بآثار الخير وكذلك وقع بالاندلس لعهد الطوائف حتى محى رسمه يوسف بن تاشفين امير المرابطين وكذلك وقع بامصار الجريد بافريقية لهذا العهد حتى استبدّ بها رؤساوها والله سبحانه لطيف بعباده

فصل فى ان التجارة من السلطان مضرّة بالرعايا مفسدة للجباية

اعلم ان الدولة اذا ضاقت جبايتها بما قدّمناه من الترف وكثرة العوائد والنفقات وقصر الحاصل من جبايتها عن الوفاء بحاجاتها ونفقاتها واحتاجت الى مزيد المال والجباية فتارة بوضع المكوس على بياعات الرعايا واسواقهم كما قدّمنا ذلك فى الفصل قبله وتارة بالزيادة فى القاب المكوس ان كانت قد استحدثت قبل وتارة بمقاسمة العمّال والجباة وامتكاك عظامهم لما يرون انّهم قد حصلوا على طائل من اموال الجباية لا يظهره الحسبان وتارة

باستحداث التجارة والفلح للسلطان حرصا على تنمية الجباية لما يرون التجار والفلّاحين يحصلون على الفوائد والغلّات مع يسارة اموالهم وان الارباح تكون على نسبة رؤس الاموال فياخذون فى اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله وفى شرءا البضائع والتعرّض بها لحوالة الاسواق يحسبون ذلك من ادرار الجباية وتكثير الفوائد وهو غلط عظيم وادخال للضرر على الرعايا من وجوه متعدّدة فاولا مضايقة الفلّاحين والتجّار فى شراء الحيوان والبضائع وتيسير اسباب ذلك فان الرعايا متكافئون فى اليسار او متقاربون ومزاحمة بعضهم بعضا ينتهى الى غاية موجودهم او تقرّب واذا رافقهم السلطان فى ذلك وماله اعظم كثيرا منهم فلا يكاد احد منهم يحصل على غرضه فى شئ من حاجاته ويدخل على النفوس من ذلك غمّ او نكد ثم ان السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك اذا تعرّض له غصبا وبايسر ثمن اذ لا يجد من ينافسه فيبخس ثمنه على بائعه ثم اذا حصلت فوائد الفلاحة ومغلّها كلّه من زرع او حرير او عسل او سكر او غير ذلك من انواع الغلّات وحصلت بضائع التجّار من سائر الانواع فلا ينتظرون به حوالة الاسواق ولا نفاق البياعات لما تدعوهم اليه تكاليف الدولة فيكلّفون اهل تلك الاصناف من تاجر او فلّاح بشراء تلك البضائع ولا يرضون فى اثمانها الا القيم وازيد فيستوعبون

فى ذلك ناضّ اموالهم وتبقى تلك البضائع بايديهم عروضا جامدة ويمكثون عطلا من الادارة التى فيها كسبهم ومعاشهم وربّما تدعوهم الضرورة الى شئ من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الاسواق بابخس ثمن وربّما يتكرّر ذلك على التاجر او الفلّاح منهم بما يذهب برأس ماله فيقعد عن سوقه ويتعدّد ذلك ويتكرّر ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقة وفساد الارباح ما يقبض آمالهم عن السعى فى ذلك جملة ويؤدى الى فساد الجباية فان معظم الجباية انّما هى من الفلّاحين والتجّار لا سيما بعد وضع المكوس ونمو الجباية بها فاذا انقبض الفلّاحون عن الفلاحة وقعد التجّار عن التجارة ذهبت الجباية جملة او دخلها النقص المتفاحش واذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الارباح القليلة وجدها بالنسبة اقلّ من القليل ثم انه ولو كان مفيدا فيذهب له بحظّ عظيم من الجباية فيما يعانيه من شراء وبيع فانه من البعيد ان يوخذ منه فيه مكس ولو كان غيره فى تلك الصفقات لكان مكسها كلها حاصلا من جملة الجباية ثم فيه التعرّض لفساد عمرانه واختلال الدولة بفساده ونقصه فان الرعايا اذا قعدوا عن تثمير اموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات وكان فيها تلاف احوالهم فافهم ذلك

(ولقد) كان الفرس لا يملكون عليهم الا من اهل بيت المملكة ثم يختارونه من اهل الدين والفضل والادب والسخاء والشجاعة والكرم ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل وان لا يتّخذ ضيعة فيضرّ بجيرانه ولا يتاجر فيحبّ غلاء الاسعار فى البضائع ولا يستخدم العبيد فانهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة واعلم ان السلطان لا يثمر ماله ويدرّ موجوده الا الجباية وادرارها انما يكون بالعدل فى اهل الاموال والنظر لهم فبذلك تنبسط آمالهم وتنشرح صدورهم للاخذ فى تثمير الاموال وتنميتها فتعظم منها جباية السلطان واما غير ذلك للسلطان من تجارة او فلح فانّما هو مضرّة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة ولقد ينتهى الحال بهولاء المنتحلين للتجارة والفلاحة من الامراء والمتغلّبين فى البلدان انهم يتعرّضون لشراء الغلّات والسلع من اربابها الواردين الى بلدهم ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤن ويبيعونها فى وقتها لمن تحت ايديهم من الرعايا بما يفرضونه من الثمن وهذه اشدّ من الاولى واقرب الى فساد الرعية واختلال احوالهم وربّما يحمل السلطان على ذلك من يداخله فى هذه الاصناف اعنى التجّار والفلّاحين بما هى صناعته التى نشاء عليها فيحمل السلطان على ذلك ويضرب معه بسهم لنفسه فيحصل على غرضه من جمع المال سريعا سيما مع

ما يحصل له من التجارة بلا مغرم ولا مكس فانها اجدر بنمو الاموال واسرع فى تثميرها ولا يفهم مع ذلك ما يدخل على السلطان من الضرر بنقص جبايته فينبغى للسلطان ان يحذر من هولاء ويعرض عن سعايتهم المضرّة بجبايته وسلطانه والله سبحانه وتعالى يلهمنا رشد انفسنا وينفعنا بصالح اعمالنا لا ربّ غيره

فصل فى ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون فى وسط الدولة

والسبب فى ذلك ان الجباية فى اول الدولة تتوزّع على القبيل واهل العصبيّة بمقدار غنائهم وعصبيتهم ولان الحاجة اليهم فى تمهيد الدولة كما قلناه من قبل فرئيسهم فى ذلك متجافٍ لهم عمّا يسمون اليه من الجباية معتاض عن ذلك بما هو يروم من الاستبداد عليهم فلهم عليه عزّة وله اليهم حاجة فلا يطير فى سهمانه من الجباية الا الاقلّ من حاجته فتجد حاشيته لذلك واذياله من الوزراء والكتّاب والموالى مملقين فى الغالب وجاههم متقلص لانه من جاه مخدومهم ونطاقه قد ضاق بمن يزاحمه فيه من اهل عصبيّته فاذا استفحلت طبيعة الملك وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه قبض ايديهم عن الجبايات الا ما يطير لهم بين

الناس فى سهمانهم وتقلّ حظوظهم اذ ذاك لقلّة غنائهم فى الدولة بما انكبح من اعنّتهم وصار الموالى والصنائع مساهمين لهم فى القيام بالدولة وتمهيد الامر فينفرد صاحب الدولة حينئذ بالجباية او معظمها ويحتوى على الاموال ويحتجنها للنفقة فى مهمات الاحوال فتكثر ثروته وتمتلى خزائنه ويتّسع نطاق جاهه ويعتزّ على سائر قومه فيعظم حال حاشيته وذويه من وزير وكاتب وحاجب ومولى وشرطى ويتّسع جاههم ويقتنون الاموال ويتاثّلونها ثم اذا اخذت الدولة فى الهرم بتلاشى العصبيّة وفناء القبيل الماهدين للدولة احتاج صاحب الامر حينئذ الى الاعوان والانصار لكثرة الخوارج والمنازعين والثوّار وبوهم الانتقاص فصار خراجه لظهرائه واعوانه وهم ارباب السيوف واهل العصبيّات وانفق خزائنه وحاصله فى مهمّات جبر الدولة وقلّت مع ذلك الجباية لما قدّمناه من كثرة العطاء والانفاق فيقلّ الخراج وتشتدّ حاجة الدولة الى المال فيتقلّص ظل النعمة والترف عن الخواصّ والحجّاب والكتّاب بتقلّص الجاه عنهم وضيق نطاقه على صاحب الدولة ثم تشتدّ حاجة صاحب الدولة الى المال وينفق ابناء البطانة والحاشية ما تاثّل اباؤهم من الاموال فى غير سبيلها من اعانة صاحب الدولة ويقبلون على غير ما كان عليه اباؤهم وسلفهم من

المناصحة ويرى صاحب الدولة انه احقّ بتلك الاموال التى اكتسبت فى دولة سلفه وبجاههم فيصطلمها وينتزعها منهم لنفسه شيئا فشيئا وواحدا بعد واحد على نسبة رتبهم وتتنكّر (1) الدولة لهم ويعود وبال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها واهل الثروة والنعمة من بطانتها ويتقوّض بذلك كثير من مبانى المجد بعد ان يدعمه اهله ويرفعوه وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسيّة فى بنى قحطبة وبنى برمك وبنى سهل وبنى طاهر وامثالهم ثم فى الدولة الاموية بالاندلس عند انحلالهم ايام الطوائف فى بنى شُهَيد وبنى ابى عبدة وبنى حدير وبنى برد وامثالهم وكذا فى الدولة التى ادركناها لعهدنا سنّة الله ولن تجد لسنّة الله تبديلا (فصل) ولما يتوقعه اهل الدولة من امثال هذه المعاطب صار الكثير منهم ينزعون الى الفرار عن الرتب والتخلّص عن ربقة السلطان بما حصل بايديهم من مال الدولة الى قطر اخر ويرون انه اهنأ لهم واسلم فى انفاقه وحصول ثمرته وهو من الاغلاط الفاحشة والاوهام المفسدة لاحوالهم ودنياهم واعلم ان الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير ممتنع فان صاحب هذا الغرض ان كان هو الملك نفسه فلا تمكّنه الرعية من ذلك طرفة عين ولا اهل العصبية

(1) Man. A. et B. تتنكى.

المزاحمون له بل فى ظهور ذلك منه هدم ملكه وتلاف نفسه لمجارى العادة بذلك لان ربقة الملك يعسر الخلاص منها سيما عند استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والخلال والتخلّق بالشرّ واما ان كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان وحاشيته واهل الرتب فى دولته فقلّ ان يخلى بينه وبين ذلك اما اولا فلما يراه الملوك ان ذويهم وحاشيتهم بل وسائر رعاياهم مماليك لهم مطّلعون على ذات صدورهم فلا يسمحون بحلّ ربقته من الخدمة ضنانة باسرارهم واحوالهم ان يطّلع عليها احد وغيرة من خدمته لسواهم ولقد كان بنو امية بالاندلس يمنعون اهل دولتهم من السفر لفريضة الحجّ لما يتوهّمونه من وقوعهم بايدى بنى العباس فلم يحجّ سائر ايامهم من اهل دولتهم وما ابيح الحجّ لاهل الدول من الاندلس الا بعد فراغ شأن الاموية ورجوعها الى الطوائف واما ثانيا فانهم وان سمحوا بحلّ ربقته فلا يسمحون بالتجافى عن ذلك المال لما يرون انه جزء من مالهم كما كان ربّه جزءا من دولتهم اذ لم يكتسب الا بها وفى ظلّ جاهها فتحوم نفوسهم على انتزاع ذلك المال او ابقائه كما هو جزءا من الدولة ينتفعون به ثم اذا توهّمنا انه خلص بذلك المال الى قطر اخر وهو فى النادر الاقلّ

فتمتدّ اليه اعين الملوك بذلك القطر وينتزعونه بالارهاب والتخويف تعريضا او بالقهر ظاهرا لما يرون انه مال الجباية والدول وانه مستحقّ للانفاق فى المصالح فاذا كانت عيونهم تمتدّ الى اهل الثروة واليسار المكتسبين من وجوه المعاش كما ذكرنا فاحرى بها ان تمتدّ الى مال الجباية والدول التى تجد السبيل اليه بالشرع والعادة وانظر ما وقع لقاضى جبلة الثاير بها على ابن عمار صاحب طرابلس لما غلبه الفرنج عليها ونجا الى دمشق ثم الى بغداذ وفيها السلطان بركياروق بن ملكشاه وذلك آخر الماية الخامسة فجاءه وزير السلطان واستقرض منه غالب ماله ثم استصفوه جميعا وكان لا يعبّر عنه كثرة ولقد حاول السلطان ابو يحيى زكريا بن احمد اللحيانى تاسع او عاشر ملوك الحفصيّين بافريقية الخروج عن عهدة الملك واللحاق بمصر فرارا من طلب صاحب الثغور الغربيّة لما استجمع لغزو تونس فاستعمل اللحيانى الرحلة الى ثغر طرابلس يورى بتمهيده وركب السفن من هناك وخلص الى الاسكندرية بعد ان حمل جميع ما وجد ببيت المال من الصامت والذخيرة وباع كلما كان بخزائنهم من المتاع والعقار والجوهر حتى الكتب واحتمل ذلك كله الى مصر ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة تسع عشرة من المائة الثامنة فاكرم نزله ورفع

مجلسه ولم يزل يستخلص ذخيرته شئا فشئا بالتعريض الى ان حصل عليها ولم يبق معاش ابن اللحيانى الا فى جرايته التى فرض له الى ان هلك سنّة ثمان وعشرين حسبما نذكره فى اخباره فهذا وامثاله من جهلة الوسواس الذى يعترى اهل الدول لما يتوقّعونه من ملوكهم من المعاطب وانّما يخلصون ان آتفق لهم الخلاص بانفسهم وما يتوهّمونه من الحاجة فغلط ووهم والذى حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كافٍ فى وجدان المعاش لهم بالجرايات السلطانيّة او بالجاه فى انتحال طرق الكسب من التجارة والفلاحة والدول انساب لكن النفس راغبة اذا رغّبتها واذا تردّ الى قليل تقنع والله الرزّاق ذو القوة المتين

فصل فى ان نقص العطاء من السلطان نقص فى الجباية

والسبب فى ذلك ان الدولة والسلطان هى السوق الاعظم للعالم ومنه مادّة العمران فاذا احتجن السلطان الاموال والجبايات او فقدت فلم يصرفها قلّ حينئذ ما بايدى الحاشية وانقطع ايضا ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلّت نفقاتهم جملة وهم معظم السواد ونفقاتهم اكثر مادّة للاسواق من سواهم فيقع الكساد حينئذ فى الاسواق وتضعف الارباح فى المتاجر لقلّة الاموال فيقلّ الخراج لذلك لان

الخراج والجباية انها يكون من الاعتمار والمعاملات ونفاق الاسواق وطلب الناس للفوائد والارباح ووبال ذلك عائد على الدولة بالنقص لقلّة اموال السلطان حينئذ بقلّة الخراج فان الدولة كما قلناه هى السوق الاعظم امّ الاسواق كلّها واصلها ومادّتها فى الدخل والخرج فاذا كسدت وقلّ مصارفها فاجدر بما بعدها من الاسواق ان يلحقها مثل ذلك واشدّ منه وايضا فالمال انّما هو متردّد بين الرعيّة والسلطان منهم اليه ومنه اليهم فاذا حبسه السلطان عنده فقدته الرعيّة سنّة الله فى عباده

فصل فى ان الظلم مؤذن بخراب العمران

اعلم ان العدوان على الناس فى اموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من ان غايتها ومصيرها انتهابها من ايديهم واذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت ايديهم عن السعى فى ذلك وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعى فى الاكتساب فان كان الاعتداء كثيرا وعامّا فى جميع ابواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع ابوابها وان كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض عن الكسب على نسبته والعمران ووفوره ونفاق اسواقه انّما

هو بالاعمال وسعى الناس فى المصالح والمكاسب ذاهبين وجآئين فاذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت ايديهم عن المكاسب كسدت اسواق العمران وانتقضت الاحوال واندعر الناس فى الآفاق من غير تلك الايالة وفى طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها فخفّ ساكن القطر وخلت دياره وخربت امصاره واختلّ باختلاله حال الدولة والسلطان لما انّها صورة للعمران تفسد بفساد مادّتها ضرورة وانظر فى ذلك ما حكاه المسعودى فى اخبار الفرس عن الموبذان صاحب الدين عندهم ايام بهرام بن بهرام وما عرض به للملك فى انكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته فى الدولة بضرب المثال فى ذلك على لسان البوم حين سمع الملك اصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال ان بوما ذكرا يروم نكاح بوم انثى وانها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب فى ايام بهرام لتنوح فيها فقبل شرطها وقال لها ان دامت ايام الملك اقطعتك الف قرية وهذا اسهل مرام فتنبّه الملك من غفلته وخلا بالموبذان وسأله عن مراده فقال ايّها الملك انّ الملك لا يتمّ عزّه الا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرّف تحت امره ونهيه ولا قوام للشريعة الّا بالملك ولا عزّ للملك الّا بالرجال ولا قوام للرجال الّا بالمال ولا سبيل الى المال الّا بالعمارة ولا سبيل للعمارة

الّا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الربّ
وجعل له قيّما وهو الملك وانّك ايّها الملك عمدت
الى الضياع فانتزعتها من اربابها وعمّارها وهم ارباب الخراج
ومن تؤخذ منهم الاموال واقطعتها الحاشية والخدم وارباب
البطالة فتركوا العمارة والنظر فى العواقب وما يصلح الضياع
وسومحوا فى الخراج لقربهم من الملك ووقع الحيف
على من بقى من ارباب الخراج وعمّار الضياع فانجلوا عن
ضياعهم وخلوا ديارهم واووا الى ما بعد او تعذر من الضياع
فسكنوها فقلت العمارة وخربت الضياع وقلّت الاموال
وهلكت الجنود والرعية وطمع فى ملك فارس من
جاورهم من الملوك لعلمهم بانقطاع الموادّ التى لا تستقيم
دعائم الملك الّا بها فلما سمع الملك ذلك اقبل على النظر
فى ملكه وانتزعت الضياع من ايدى الخاصّة وردّت الى
اربابها وحُمِلوا على رسومهم السالفة واخذوا بالعمارة وقوى
من ضعف منهم فعمرت الارض واخصبت البلاد وكثرت
الاموال عند جباية الخراج وقويت الجنود وقطعت موادّ
الاعداء وشحنت الثغور واقبل الملك على مباشرة اموره
بنفسه فحسنت ايامه وانتظم ملكه فتفهم من هذه
الحكاية ان الظلم مخرب للعمران وان عائدة الخراب فى
العمران على الدولة بالفساد والانتقاض ولا تنظر فى ذلك

الّا (1) ان الاعتداء قد يوجد بالامصار العظيمة من الدول التى بها ولم يقع فيها خراب واعلم ان ذلك انّما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء واحوال اهل المصر فلما كان المصر كبيرا وعمرانه كثيرا واحواله متّسعة بما لا ينحصر كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيرا اذ النقص انّما يقع بالتدريج فاذا خفى بكثرة الاحوال واتّساع الاعمال فى المصر لم يظهر اثره الا بعد حين وقد تذهب تلك الدولة المعتدية من اصلها قبل خراب المصر وتجئ الدولة الاخرى فترقّعه (2) بجدتها وينجبر النقص الذى كان خفيا فيه فلا يكاد يشعر به الا ان ذلك فى الاقلّ والمراد من هذا ان حصول النقص فى العمران عن الظلم والعدوان امر واقع لا بدّ منه لما قدّمناه ووباله عائد على الدول ولا تحسبن الظلم انما هو اخذ المال او الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور بل الظلم اعمّ من ذلك وكل من اخذ ملك احد او غصبه فى عمله او طالبه بغير حقّ او فرض عليه حقّا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه فجباة الاموال بغير حقّها ظلمة والمعتدون عليها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والمانعون لحقوق الناس ظلمة وغصّاب الاملاك على العموم ظلمة ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذى هو مادّتها لذهاب

(1) Man. A. et B. الى.   (2) Man. A. et B.. فترفعه.

الاموال من اهله واعلم ان هذه هى الحكمة المقصودة للشارع
فى تحريم الظلم وما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه
وذلك موذن بانقطاع النوع البشرى وهى الحكمة العامّة
المراعاة للشرع فى جميع مقاصده الضروريّة الخمسة (1) من حفظ
الدين والعقل والنفس والنسل والمال فلما كان الظلم كما
رايت موذنا بانقطاع النوع لما ادى اليه من تخريب العمران
كانت حكمة الحظر فيه موجودة فكان تحريمه مهمّا وادلّته
من القران والسنّة كثيرة اكثر من ان ياخذها قانون الضبط
والحصر ولو كان كل احد قادرا عليه لوضع بازائه من العقوبات
الزاجرة ما وضع بازاء غيره من المفسدات للنوع التى يقدر
كل احد على اقترابها من الزناء والقتل والسكر الا ان الظلم لا يقدر
عليه الّا من لا يُقْدَر عليه لانه انما يقع من اهل القدرة والسلطان
فبولغ فى ذمّه وتكثير الوعيد فيه عسى ان يكون الوازع فيه للقادر
عليه من نفسه وما ربّك بظلّام للعبيد ولا تقولن ان العقوبة قد
وضعت بازاء الحرابة فى الشرع وهى من ظلم القادر لان
المحارب زمن حرابته قادر فان الجواب عن ذلك من
طريقين احدهما ان تقول العقوبة التى وضعت فى ذلك
انّما هى بازاء ما يقترفه من الجنايات فى نفس او مال على
ما ذهب اليه كثير وذلك انما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة

(1) Man. A. et B. الحسّيّة.

بجنايته واما نفس الحرابة فهى خلو من العقوبة الطريق الثانى ان نقول المحارب لا يوصف بالقدرة لانّا انّما نعنى بقدرة الظالم اليد المبسوطة التى لا تعارضها قدرة فهى المؤذنة بالخراب وانما قدرة المحارب فانّما هى اخافة يجعلها ذريعة لاخذ الاموال والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعا وسياسة فليست من القدرة المؤذنة بالخراب والله قادر على ما يشأ (فصل) ومن اشدّ الظلامات واعظمها افسادا للعمران تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بغير حقّ وذلك ان الاعمال من قبيل التموّلات لما سنبيّن فى باب الرزق ان الكسب والرزق انّما هو قيّم اعمال اهل العمران فاذًا مساعيهم واعمالهم كلّها متموّلات ومكاسب لهم بل لا مكاسب لهم سواها فان الرعيّة المعتملين فى العمارة انّما معاشهم ومكاسبهم من اعتمالهم ذلك فاذا كُلِّفوا العمل فى غير شأنهم واُتُّخذوا سُخريّا فى غير معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو متموّلهم فدخل عليه الضرر وذهب لهم حظّ كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجملة وان تكرّر ذلك عليهم افسد آمالهم فى العمارة وقعدوا عن السعى فيها جملة فادى ذلك الى انتقاض العمران وتخريبه والله يرزق من يشأ بغير حساب (فصل) واعظم من ذلك فى الظلم وافسد للعمران والدولة التسلّط على الناس فى

شراء ما بايديهم بابخس الاثمان ثم فرض البضائع عليهم بارفع الاثمان على وجه الغصب والاكراه فى الشراء والبيع وربّما يفرض عليهم تلك الاثمان على التراخى والتأجيل فيتعلّلون فى الخسارة التى تلحقهم بما تحدّثهم به المطامع من جبر ذلك بحوالة الاسواق فى تلك البضائع التى فرضت عليهم بالغلاء ثم يطالبون بتلك الاثما معجّلة فيضطرّون الى بيعها بابخس الثمن وتعود خسارة ما بين الصفقتين على رؤس اموالهم وقد يعمّ ذلك اصناف التجّار المقيمين بالمدينة والواردين من الآفاق فى البضائع وسائر السوقة واهل الدكاكين فى المأكل والفواكه واهل الصنائع فيما يتّخذ من الآلات والمواعين فتشمل الخسارة سائر الاصناف والطبقات وتتوالى على البياعات وتجحف بروس الاموال ولا يجدون عنها وليجة الّا القعود عن الاسواق لذهاب رؤس الاموال فى جبرها بالارباح ويتثاقل الواردون من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من اجل ذلك فتكسد الاسواق ويبطل معاش الرعايا لانّ عامّته من البيع والشراء واذا كانت الاسواق عُطلا منها بطل معاشهم وتنقص جباية السلطان او تفسد لان معظمها من اواسط الدولة وما بعدها انما هو من المكوس على البياعات كما قدّمناه ويؤل ذلك الى تلاشى الدولة وفساد عمران المدينة ويتطرّق هذا الخلل

على التدريج ولا يشعر به هذا فيما كان بامثال هذه الذرائع والاساب الى اخذ الاموال واما اخذها مجانا والعدوان على الناس فى اموالهم وحرمهم ودمائهم وابشارهم واعراضهم فهو يفضى الى الخلل والفساد دفعة وتنتقض الدولة سريعا لما ينشأ عنه من الهرج المفضى الى الانتقاض ومن اجل هذه المفاسد حظر الشرع ذلك كلّه وشرع المكايسة فى البيع والشراء وحظر اكل اموال الناس بالباطل سدّا لابواب المفاسد المفضية الى انتقاض العمران بالهرج او بطلان المعاش واعلم ان الداعى لذلك كله انّما هو حاجة الدولة والسلطان الى الاكثار من الاموال بما يعرض لهم من الترف فى الاحوال فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج ولا يفى به الدخل على القوانين المعتادة فيستحدثون القابا ووجوها يوسعون بها الجباية ليفى لهم الدخل بالخرج ثم لا يزال الترف يزيد والخرج بسببه يكثر والحاجة الى اموال الناس تشتدّ ونطاق الدولة يضيق الى ان تمحى دائرتها ويذهب رسمها ويغلبها طالبها والله مقدّر الامور لا ربّ غيره

فصل فى الحجاب كيف يقع فى الدولة وانه يعظم عند الهرم

اعلم ان الدولة فى اول امرها تكون بعيدة عن منازع

الملك كما قدّمناه لانها لا بدّ لها من العصبية التى بها يتمّ امرها ويحصل استيلاؤها والبداوة هى شعار العصبيّة فالدولة ان كان قيامها بالدين فانه بعيد عن منازع الملك وان كان قيامها بعزّ الغلب فقط فالبداوة التى بها يحصل الغلب بعيدة ايضا عن منازع الملك ومذاهبه فاذا كانت الدولة فى امرها بدويّة كان صاحبها على حال الغضاضة والبداوة والقرب من الناس وسهولة الاذن فاذا رسخ عزّه وصار الى الانفراد بالمجد واحتاج الى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع اوليائه فى خواصّ شؤنه لما يكثر حينئذ من غاشيته فيطلب الانفراد من العامّة ما استطاع ويتّخذ الاذن ببابه على من لا بدّ منه من اوليائه واهل دولته فيكون حاجبا له عن الناس ويقيمه ببابه لهذه الوظيفة ثم اذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحالت خلق صاحب الدولة الى خلق الملك وهى خلق غريبة مخصوصة يحتاج مباشرها الى مداراتها ومعاملتها بما يجب لها وربّما جهل تلك الخلق منهم بعض من يباشرهم فوقع فيما لا يرضيهم فسخطوه وصاروا الى حالة الانتقام منه فانفرد بمعرفة هذه الآداب معهم الخواصّ من اوليائهم وحجبوا غير اولئك الخاصّة عن لقائهم فى كل وقت حفظا على انفسهم من معاينة ما يسخطهم وعلى الناس من التعرّض لعقابهم فصار

لهم حجاب اخر اخصّ من الحجاب الاول يفضى اليهم منه
خواصّهم من الاولياء ويحجب دونه من سواهم والحجاب
الثانى يفضى الى مجالس الاولياء ويحجب دونه من سواهم
من العامّة فالحجاب الاول يكون فى اول الدولة كما ذكرنا
كما حدث ايام معاوية وعبد الملك وخلفاء بنى امية
وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم الحاجب
جريا على مذهب الاشتقاق الصحيح ثم لما جاءت دولة
بنى العباس وحدث للدولة من الترف والعزّ ما هو معروف
وكملت خلق الملك على ما يجب فيها فدعى ذلك
الى الحجاب الثانى وصار اسم الحاجب اخصّ به وصار
بباب الخلفاء داران للغاشية دار للخاصّة ودار للعامّة كما
هو مسطور فى اخبارهم ثم حدث فى الدول حجاب ثالث
اخصّ من الاولين وهو عند محاولة الحجر على صاحب الدولة
وذلك ان اهل الدولة وخواصّ الملك اذا نصبوا الابناء
من الاعقاب وحاولوا الاستبداد عليهم فاول ما يبداء به ذلك
المستبدّ ان يحجب عنه بطانة ابيه وخواصّ اوليائه توهمه (1)
ان فى مباشرتهم اياه خرق حجاب الهيبة وفساد قانون
الادب ليقطع بذلك عنه لقاء الغير ويعوّده ملابسة اخلاقه
هو حتى لا يتبدّل به سواه الى ان يستحكم الاستيلاء عليه

(1) Man. A. B. et D. يوهمه.

فيكون هذا الحجاب من دواعيه وهذا الحجاب لا يقع فى الغالب الا اواخر الدول كما قدّمناه فى الحجر ويكون دليلا على هرم الدولة ونفاد قوتها وهو مما يخشاه اهل الدول على انفسهم لانّ القائمين بالدولة يحاولون على ذلك بطباعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد من اعقاب ملوكها لما ركب فى النفوس من محبّة الاستبداد بالملك وخصوصا مع الترشّح لذلك وحصول دواعيه ومباديه والله غالب على امره

فصل فى انقسام الدولة الواحدة الى دولتين

اعلم ان اول ما يقع من آثار الهرم فى الدولة انقسامها وذلك ان الملك عند ما يستفحل ويبلغ احوال الترف والنعيم الى غايتها ويستبدّ صاحب الدولة بالمجد وينفرد به يأنف حينئذ عن المشاركة ويصير الى قطع اسبابها ما استطاع باهلاك من استراب به من ذوى قرابته المرشّحين لمنصبه فربّما ارتاب المساهمون له فى ذلك بانفسهم ونزعوا الى القاصية واجتمع اليهم من يلحق بهم فى مثل حالهم من الاسترابة والاعتزاز ويكون نطاق الدولة قد اخذ فى التضائق ورجع عن القاصية فيستبدّ ذلك النازع من القرابة فيها ولا يزال امره يعظم بتراجع نطاق الدولة حتى

يقاسم الدولة او يكاد وانظر ذلك فى الدولة الاسلامية العربيّة حين كان امرها عزيزا مجتمعا ونطاقها ممتدّا فى الاتّساع وعصبيّة بنى عبد مناف واحدة غالبة على سائر مُضَر فلم ينبض عرق من الخلاف سائر ايامهم الا ما كان من نزعة الخوارج المستميتين فى شأن بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رياسة ولم يتمّ امرهم لمزاحمتهم العصبيّة القويّة ثم لما خرج الامر من بنى امية واستقلّ بنو العباس بالامر وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف وآذنت بالتقلّص عن القاصية نزع عبد الرحمن الداخل الى الاندلس قاصية دولة الاسلام فاستحدث بها ملكا واقتطعها عن دعوتهم وصيّر الدولة دولتين ثم نزع ادريس الى المغرب وخرج به وقام بامره وامر ابنه من بعده البرابرة من اوربة ومغيلة وزناتة واستولى على ناحية المغربين ثم ازدادت الدولة تقلّصا فاضطربت الاغالبة على الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة وقام بامرهم كتامة وصنهاجة واستولوا على افريقية والمغرب ثم مصر والشام والحجاز وغلبوا على الادارسة وقسموا الدولة دولتين اخريين وصارت الدولة العربية ثلاث دول دولة بنى العباس بمركز العرب واصلهم ومادّة الاسلام ودولة بنى امية المجدّدين بالاندلس ملكهم القديم وخلافتهم بالمشرق ودولة العبيديّين بافريقية ومصر والشام والحجاز ولم

تزل هذه الدول الى ان كان انقراضها متقاربا او جميعا
وكذلك انقسمت دولة بنى العباس بدول اخرى فكان
بالجزيرة والموصل بنو حمدان وبنو عقيل بعدهم وبمصر
والشام بنو طولون وبنو طغج بعدهم وكان بالقاصية بنو سامان
فى ما وراء النهر وخراسان والعلويّة فى الديلم وطبرستان وآل
ذلك الى استيلاء الديلم على فارس والعراقين وعلى بغداذ
والخلفاء ثم جاء السلجوقيّة فملكوا جميع ذلك ثم
انقسمت دولتهم ايضا بعد الاستفحال كما هو معروف فى
اخبارهم وكذلك اعتبره فى دولة صنهاجة بالمغرب وافريقية
لما بلغت الى غايتها ايام باديس بن المنصور وخرج عليه
عمّه حماد واقتطع ممالك المغرب لنفسه ما بين جبل
اوراس الى تلمسان وملوية واختطّ القلعة بجبل كتامة (1) حيال
المسيلة ونزلها واستولى على مركزهم اشير بجبل تيطرى
واستحدث ملكا اخر قسيما (2) لملك آل باديس وبقى آل
باديس بالقيروان وما اليها ولم يزل ذلك الى انقراض امرهما
جميعا وكذلك دولة الموحّدين لما تقلّص ظلّها ثار بافريقية
بنو ابى حفص فاستقلّوا بها واستحدثوا ملكا لاعقابهم
بنواحيها ثم لما استفحل امرهم واستولى على الغاية خرج
بالممالك الغربيّة من اعقابهم الامير ابو زكريا يحيى بن

(1) Man. A. et B. كياثه. (2) Man. A. قيما. C. et D. قسما.

السلطان ابى اسحق ابراهيم رابع خلفائهم واستحدث ملكا ببجاية وقسنطينة وما اليها اورثه بنيه وقسموا به الدولة قسمين ثم استولوا على كرسى الحضرة بتونس ثم انقسم الملك ما بين اعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم وقد ينتهى الانقسام الى اكثر من دولتين وثلاثة فى غير اعياص الملك من قومه كما وقع فى ملك الطوائف بالاندلس وملوك العجم بالمشرق وفى ملك صنهاجة بافريقية فقد كان لآخر دولتهم فى كل حصن من حصون افريقية ثائر مستقلّ بامره كما نذكره وكذا حال الجريد والزاب من افريقية قبيل هذا العهد كما نذكره ايضا وهكذا شأن كل دولة لا بدّ وان تعرض فيها عوارض الهرم بالترف والدعة وتقلّص ظلّ الغلب فيقتسم اعياصها او من يغلب من رجال دولتها الامر وتتعدّد فيها الدول والله وارث الارض ومن عليها

فصل فى ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع

قد قدّمنا ذكر العوارض المؤذنة بالهرم واسبابه واحدا بعد واحد وبيّنّا انها تحدث للدولة بالطبع وانها كلها امور طبيعيّة لها واذا كان الهرم طبيعيّا فى الدولة كان حدوثه بمثابة حدوث الامور الطبيعيّة كما يحدث الهرم فى المزاج الحيوانى والهرم من الامراض المزمنة التى لا يمكن دواوها

ولا ارتفاعها لما انه طبيعيّ والامور الطبيعيّة لا تتبدّل وقد يتنبّه
كثير من اهل الدول ممّن له يقظة فى السياسة فيرى ما
نزل بدولتهم من عوارض الهرم واسبابه ويحسبه ممكن الارتفاع
فياخذ نفسه بتلافى الدولة واصلاح مزاجها عن ذلك الهرم
ويظنّ انه لحقها لتقصير من قبله من اهل الدولة او غفلتهم
ليس كذلك فانها امور طبيعيّة للدولة والعوائد هى المانعة
من تلافيها والعوائد تتنزّل منزلة طبيعة اخرى فانّ من
ادرك مثلا اباه وكبراء اهل بيته يلبسون الحرير والديباج
ويتحلّون بالذهب فى السلاح والمراكب ويحتجبون عن
الناس فى المجالس والصلوات فلا يمكنه مخالفة سلفه فى
ذلك الى الخشونة فى اللباس والزىّ والاختلاط بالناس
اذ العوائد حينئذ تمنعه وتقبح عليه مرتكبه ولو فعله لرُمى
بالجنون والوسواس فى الخروج عن العوائد دفعة وخشى عليه
عائدة ذلك وعاقبته فى سلطانه وانظر شأن الانبياء فى
انكار العوائد ومخالفتها لولا التأئيد الالهى والنصر السماوىّ
(وربّما) تكون العصبيّة قد ذهبت فتكون الابّهة تعوض
عن موقعها من النفوس فاذا ازيلت تلك الابّهة مع ضعف
العصبيّة تجاسرت الرعايا على الدولة بدوام اوهام الابّهة
فتتدرّع الدولة بتلك الابّهة ما امكنها حتى ينقضى الامر
وربّما تحدث عند آخر الدولة قوة توهم ان الهرم قد ارتفع

عنها ويومض ذبالها ايماضة الخمود كما يقع فى الذبال المشتعل فانه عند مقاربة انطفائه يومض ايماضة توهم انها اشتعال وهى انطفاء فاعتبر ذلك ولا تغفل سرّ الله وحكمته فى اطراد وجوده على ما قدّر فيه فلكل اجل كتاب

فصل فى كيفيّة طروق الخلل للدول

اعلم ان مبنى الملك على اساسين لا بدّ منهما فالاول الشوكة والعصبيّة وهو المعبّر عنه بالجند والثانى المال الذى هو قوام اولئك الجند واقامة ما يحتاج اليه الملك من الاحوال والخلل اذا طرق الدولة طرقها من هذين الاساسين فلنذكر اولا طروق الخلل فى الشوكة والعصبيّة ثم نرجع الى طروقه فى المال والجباية واعلم ان تمهيد الدولة وتاسيسها كما قلناه انما يكون فى العصبيّة وانه لا بدّ من عصبيّة كبرى جامعة للعصايب مستتبعة لها وهى عصبيّة صاحب الدولة الخاصّة به من عشيره وقبيله فاذا جاءت للدولة طبيعة الملك والترف وجدع انوف اهل العصبيّة كان اول ما يجدع انوف عشيره وذوى قرباه المقاسمين له فى اسم الملك فيشتدّ فى جدع انوفهم بابلغ من سواهم وياخذهم الترف ايضا اكثر من سواهم لمكانهم من الملك والعزّ والغلب فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقهر ثم يصير القهر آخرا

الى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ الملك لصاحب الامر فتنقلب غيرته منهم الى الخوف على ملكه فياخذهم بالقتل والاهانة وسلب النعمة والترف الذى تعوّدوا الكثير منه فيهلكون ويقتلون وتفسد عصبيّة صاحب الدولة منهم وهى العصبيّة الكبرى التى كان يجمع بها العصائب ويستتبعها فتنحلّ عروتها وتضعف شكيمتها ويستبدل منها بالبطانة من موالى النعمة وصنائع الاحسان ويتّخذ منهم عصبيّة الا انها ليست مثل تلك فى شدّة الشكيمة لفقدان الرحم والقرابة منها وقد كنّا قدّمنا ان شأن العصبيّة وقوتها انّما هى بالقرابة والرحم لما جعل الله فى ذلك فينفرد صاحب الدولة عن العشير والانصار اهل النعرة الطبيعيّة ويحسّ بذلك اهل العصائب الاخرى فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسرا طبيعيّا فيهلكهم صاحب الدولة ويتتبّعهم بالقتل واحدا بعد واحد ويقلّد الاخر من اهل الدولة فى ذلك الاول مع ما يكون قد نزل بهم من مهلكة الترف الذى قدّمناه فيستولى عليهم الهلاك بالترف والقتل حتى يخرجوا عن صبغة تلك العصبيّة وينسوا نعرتها وسورتها ويصيروا اجراء على الحماية ويقلّون لذلك فتقلّ الحامية التى تنزل بالاطراف والثغور فتتجاسر الرعايا على نقض الدعوة فى الاطراف وتبادر الخوارج على الدولة من الاعياص وغيرهم الى

تلك الاطراف لما يرجون حينئذ من حصول غرضهم بمتابعة اهل القاصية لهم وامنهم من وصول الحامية اليهم ولا يزال ذلك يتدرّج ونطاق الدولة يتضايق حتى تصير الخوارج فى اقرب الاماكن الى مركز الدولة وربّما انقسمت الدولة عند ذلك بدولتين او ثلاث على قدر قوتها فى الاصل كما قلناه ويقوم بامرها غير اهل عصبيّتها لكن اذعانا لاهل عصبيّتها ولغلبهم المعهود (واعتبر) هذا فى دولة العرب فى الاسلام انتهت اولا الى الاندلس والهند والصين وكان امر بنى امية نافذا فى جميع العرب بعصبيّة عبد مناف حتى لقد امر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل ولم يردّ امره ثم تلاشت عصبيّة بنى امية بما اصابهم من الترف فانقرضوا وجاء بنو العباس فغضوا من اعنّة بنى هاشم وقتلوا الطالبيين وشرّدوهم فانحلّت عصبيّة عبد مناف وتلاشت وتجاسر العرب عليهم فاستبدّ عليهم اهل القاصية مثل بنى الاغلب بافريقية واهل الاندلس وغيرهم وانقسمت الدولة ثم خرج بنو ادريس بالمغرب وقام البربر بامرهم اذعانا للعصبيّة التى لهم وامنا ان يصلهم مقاتلة او حامية للدولة فاذا خرج الدعاة آخرا فيتغلّبون على الاطراف والقاصية ويحصل لهم هنالك دعوة وملك تنقسم به الدولة وربّما يزيد ذلك متى

زادت الدولة تقلّصا الى ان تنتهى الى المركز وتضعف البطانة بعد ذلك بما اخذ منها الترف فتهلك وتضمحلّ وتضعف الدولة المنقسمة كلّها وربّما طال امدها بعد ذلك فتستغنى عن العصبيّة بما حصل لها من الصبغة فى نفوس اهل ايالتها وهى صبغة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التى لا يعقل احد من الاجيال مبدأها ولا اوليّتها فلا يعقلون الا التسليم لصاحب الدولة فتستغنى بذلك عن قوة العصائب ويكفى صاحبها فى تمهيد امرها الاجراء على الحماية من جندى ومرتزق ويعضد ذلك ما وقر فى النفوس عامّة من عقيدة التسليم فلا يكاد احد ان يتصوّر عصيانا او خروجا الّا والجمهور منكرون عليه مخالفون له فلا يقدر على التصدّى لذلك ولو جهد جهده وربّما كانت الدولة فى هذا الحال اسلم من الخوارج والمنازعة لاستحكام صبغة التسليم والانقياد لهم فلا تكاد النفوس تحدث سرّها بمخالفة ولا يختلج فى ضميرها انحراف عن الطاعة فتكون اسلم من الهرج والانتقاض الذى يحدث بالعصائب والعشائر ثم لا يزال امر الدولة كذلك وهى تتلاشى فى ذاتها شأن الحرارة الغريزية فى البدن العادم للغذا الى ان تنتهى الى وقتها المقدور فلكلّ اجل كتاب ولكلّ دولة امد والله مقدّر الليل والنهار

واما الخلل الذى يتطرّق من جهة المال

فاعلم ان الدولة فى اولها تكون بدويّة كما مرّ فيكون لها خلق الرفق بالرعايا والقصد فى النفقات والتعفّف عن الاموال فتتجافى عن الامعان فى الجباية والتحذلق والكيس فى جمع المال وحسبان العمّال ولا داعية حينئذ الى الاسراف فى النفقة فلا تحتاج الدولة الى كثير المال ثم يحصل الاستيلاء ويعظم ويستفحل الملك فيدعو الى الترف ويكثر الانفاق بسببه فتعظم نفقات السلطان واهل الدولة على العموم بل يتعدّى ذلك الى اهل المصر ويدعو ذلك الى الزيادة فى اعطيات الجند وارزاق اهل الدولة فيكثر الاسراف فى النفقات وينتشر (1) ذلك فى الرعيّة لان الناس على دين الدولة وعوائدها ويحتاج السلطان الى ضرب المكوس على اثمان البياعات فى الاسواق لادرار الجباية لما يراه من ترف المدينة الشاهد عليهم بالرفه ولما يحتاج هو اليه من نفقات سلطانه وارزاق جنده ثم تزيد عوائد الترف فلا تفى بها المكوس وتكون الدولة قد استفحلت فى الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا فتمتدّ ايديهم الى جمع المال من اموال الرعايا من مكس او تجارة او تعدّ فى بعض الاحوال بشبهة او بغير شبهة ويكون الجند فى ذلك الطور قد تجاسروا على الدولة بما لحقها من الفشل

(1) Man. C. ينشر. D. ينشئ.

والهرم من العصبيّة فيتوقّع ذلك منهم ويداوى تسكينه
بافاضة العطاء وكثرة الانفاق فيهم ولا يجد عن ذلك وليجة
ويكون جباة الاموال فى الدولة قد عظمت ثروتهم فى هذا
الطور بكثرة الجباية وكونها بايديهم وربّما اتّسع لذلك من
جاههم فتتوجّه التهم اليهم باحتجان الاموال من الجباية
وتفشو السعاية فيهم بعضهم من بعض للمنافسة والحسد
فتعمّهم النكبات والمصادرات واحدا بعد واحد الى ان
تذهب ثروتهم وتتلاشى احوالهم ويفقد ما كان للدولة من
الابّهة والجمال بهم واذا أُصْطُلِمَتْ نعمهم تجاوزتهم الدولة
الى اهل الثروة من الرعايا سواهم ويكون الوهن فى هذا
الطور قد لحق الشوكة وضعفت عن الاستطالة والقهر
فتنصرف سياسة صاحب الدولة حينئذ الى مداراة الامور
ببذل المال ويراه انفع من السيف لقلّة عنايه فتعظم حاجته
الى الاموال زيادة على النفقات وارزاق الجند ولا تغنى فيما
يريد ويعظم الهرم بالدولة ويتجاسر عليها اهل النواحى والدول
تنحل عراها فى كل طور من هذه الى ان تفضى الى الهلاك
ويتعرّض الاستيلاء الطلاب فان قصدها طالب انتزعها من
ايدى القائمين بها والّا بقيت وهى تتلاشى الى ان
تضمحلّ كالذبال فى السراج اذا فنى زيته وطفى والله تعالى
مالك الامور ومدبّر الاكوان لا اله الّا هو

فصل فى اتّساع نطاق الدولة اولا الى نهايته ثم تضايقه طورا بعد طور الى فناء الدولة واضمحلالها

قد كان تقدّم لنا فى فصل الخلافة والملك وهو الثالث من هذه المقدّمة ان كل دولة لها حصّة من الممالك والعمالات لا تزيد عليها واعتبر ذلك بتوزيع عصابة الدولة على حماية اقطارها وجهاتها فحيث نفذ عددهم فالطرف الذى انتهى عنده هو الثغر ويحيط بالدولة من سائر جهاتها كالنطاق وقد تكون النهاية هى نطاق الدولة الاول وقد يكون اوسع منه اذا كان عدد العصابة اوفر من الدولة قبلها وهذا كله عند ما تكون الدولة فى شعار البداوة وخشونة البأس فاذا استفحل العزّ والغلب وتوفّرت النعم والارزاق بدرور الجبايات وزخر بحر الترف والحضارة ونشأت الاجيال على اعتياد ذلك لطفت اخلاق الحامية ورقّت حواشيهم وعاد من ذلك الى نفوسهم هيات الجبن والكسل بما يعانونه من حنث الحضارة المؤدى الى الانسلاخ من شعار البأس والرجوليّة بمفارقة البداوة وخشونتها وباخذهم العزّ بالتطاول الى الرياسة والتنازع فيها فيفضى الى قتل بعضهم بعضهم ويكبحهم السلطان عن ذلك بما يؤدى الى قتل اكابرهم واهلاك رؤسائهم فتفقد الامراء والكبراء ويكثر التابع والمرؤس فيقلّ

ذلك من حدّ الدولة ويكسر من شوكتها ويقع الخلل الاول فى الدولة وهو الذى من جهة الجند والحامية كما تقدّم ويساوق ذلك السرف فى النفقات بما يعتريهم من ابّهة العزّ وتجاوز الحدود فى البذخ بالمناغات فى المطاعم والملابس وتشييد القصور واستجادة السلاح وارتباط الخيول فيقصر دخل الدولة حينئذ من خرجها ويطرق الخلل الثانى فى الدولة وهو الذى من جهة المال والجباية ويحصل العجز والانتقاص بوجود الخللين وربّما تنافس رؤساؤهم فتنازعوا وعجزوا عن مغالبة المجاورين والمنازعين ومدافعتهم وربّما اعتزّ اهل الثغور والاطراف بما يحسّون من ضعف الدولة وراءهم فيصيرون الى الاستقلال والاستبداد بما فى ايديهم من العمالات ويعجز صاحب الدولة عن حملهم على الجادّة فيضيق نطاق الدولة عمّا كانت انتهت اليه فى اوّلها وترجع العناية فى تدبيرهما بنطاق دونه الى ان يحدث فى النطاق الثانى ما حدث فى الاول بعينه من العجز والكسل فى العصابة وقلّة الاموال والجباية فيذهب القائم بالدولة الى تغيير القوانين التى كانت عليها سياسة الدولة فى قبل الجند والمال والولايات ليجرى حالها على استقامة بتكافؤ الدخل والخرج والحامية والعمالات وتوزيع الجباية على الارزاق ومقايسة ذلك باول الدولة فى سائر الاحوال

والمفاسد مع ذلك متوقّعة من كل جهة فيحدث فى هذا الطور من بعد ما حدث فى الاول من قبل ويعتبر صاحب الدولة ما اعتبره الاول ويقايس بالوزان الاول احوالها الثانية يروم دفع مفاسد الخلل الذى يتجدّد فى كل طور وياخذ من كل طرف حتى يضيق نطاقها الاخر الى نطاق دونه كذلك ويقع فيه ما وقع فى الاول وكل واحد من هولاء المغيّرين للقوانين قبلهم كانّهم منشؤن دولة اخرى ومجدّدون ملكا حتّى تنقرض الدولة وتتطاول الامم حولها الى التغلّب عليها وانشاء دولة اخرى لهم فيقع من ذلك ما قدّر الله وقوعه (واعتبر) ذلك فى الدولة الاسلاميّة كيف اتّسع نطاقها بالفتوحات والتغلّب على الامم ثم تزايد الحامية وتكاثر عددهم بما تخوّلوه من النعم والارزاق الى ان انقرض امر بنى امية وغلب بنو العباس ثم تزايد الترف ونشاءت الحضارة وطرق الخلل فضاق النطاق من الاندلس والمغرب بحدوث الدولة الامويّة المروانيّة والعلويّة واقتطعوا ذينك الثغرين عن نطاقها الى ان وقع الخلاف بين بنى الرشيد وظهر دعاة العلويّة فى كل جانب وتمهّدت لهم دول ثم قتل المتوكّل واستبدّ الامراء على الخلفاء وحجروهم واستقلّ الولاة بالعمالات فى الاطراف وانقطع الخراج منها وتزايد الترف وجآء المعتضد فغيّر قوانين الدولة الى قانون اخر من السياسة

اقطع فيه ولاة الاطراف ما غلبوا عليه مثل بنى سامان وراء النهر وبنى طاهر العراق وخراسان وبنى الصفّار السند وفارس وبنى طولون مصر وبنى الاغلب افريقية الى ان افترق امر العرب وغلب العجم واستبدّ بنو بويه والديلم بدولة الاسلام وحجروا الخلافة وبقى بنو سامان فى استبدادهم وراء النهر وتطاول الفاطميّون من المغرب الى مصر والشام فملكوه ثم قامت الدولة السلجوقيّة من الترك فاستولوا على ممالك الاسلام وابقوا الخلفاء فى حجرهم الى ان تلاشت دولهم واستبدّ الخلفاء منذ عهد الناصر فى نطاق اضيق من هالة القمر وهو عراق العرب الى اصبهان وفارس والبحرين واقامت الدولة كذلك بعض الشئ الى ان انقرض امر الخلفاء على يد هولاكو بن طولى بن دوشى خان ملك الططر والمغل حين غلبوا السلجوقيّة وملكوا ما كان فى ايديهم من ممالك الاسلام وهكذا يتضايق نطاق كل دولة على نسبة نطاقها الاول ولا يزال طورا بعد طور الى ان تنقرض الدولة واعتبر ذلك فى كل دولة عظمت او صغرت فهكذا سنّة الله فى الدول الى ان يأتى ما قدر الله من الفناء على خلقه وكل شئ هالك الا وجهه

فصل فى حدوث الدول وتجدّدها كيف يقع

اعلم ان نشاءة الدول وبدايتها اذا اخذت الدولة المستقرّة فى الهرم والانتقاص تكون على نوعين امّا ان تستبدّ ولاة الاعمال فى الدولة بالقاصية عند ما يتقلّص ظلّها عنهم فيكون لكل واحد منهم دولة يستجدّها لقومه وملك يستقرّ فى نصابه ويرثه عنه ابناؤه ومواليه ويستفحل لهم الملك بالتدريج وربّما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه ويتنازعون فى الاستيثار به ويغلب منهم من يكون له فضل قوّة على صاحبه وينزع ما فى يده كما وقع فى دولة بنى العباس حين اخذت دولتهم فى الهرم وتقلّص ظلّها عن القاصية فاستبدّ بنو سامان بما وراء النهر وبنو حمدان بالموصل والشام وبنو طولون بمصر وكما وقع فى الدولة الاموية بالاندلس وافترق ملكها فى الطوائف الذين كانوا ولاتها فى الاعمال وانقسمت دولا وملوكا اورثوها من بعدهم من قرابتهم او مواليهم وهذا النوع لايكون بينهم وبين الدولة المستقرّة حرب لانهم مستقرّون فى رياستهم ولا يطمعون فى الاستيلاء على الدولة المستقرّة وانّما الدولة ادركها الهرم فتقلّص ظلّها عن القاصية وعجزت عن الوصول اليها والنوع الثانى بان يخرج على الدولة خارج ممّن يجاورها من الامم والقبائل امّا بدعوة يحمل الناس عليها

كما اشرنا اليه او بان يكون صاحب شوكة وعصبيّة كثيرا فى قومه قد استفحل امره فيهم فيسمو بهم الى الملك وقد حدّثوا به انفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرّة وما نزل بها من الهرم فيتعيّن له ولقومه الاستيلاء عليها ويمارسونها بالمطالبة الى ان يظفروا بها ويرثون امرها كما وقع للسلجوقيّة مع بنى سبكتكين ولبنى مرين بالمغرب مع الموحّدين والله غالب على امره

فصل فى ان الدولة المستجدّة انّما تستولى على الدولة المستقرّة بالمطاولة لا بالمناجزة

قد ذكرنا ان الدول الحادثة المتجدّدة نوعان نوع من ولاة الاطراف اذا تقلّص ظلّ الدولة عنهم وانحسر تيّارها وهولاء لا تقع منهم مطالبة للدولة فى الاكثر كما قدّمناه لان قصاراهم القنوع بما فى ايديهم وهو نهاية قوتهم والنوع الثانى نوع الدعاة والخوارج على الدولة وهولاء لا بدّ لهم من المطالبة لان قوتهم وافية بها فان ذلك انّما يكون فى نصاب يكون له من العصبيّة والاعتزاز ما هو كفاء ذلك ووافٍ به فيقع بينهم وبين الدولة المستقرّة حروب سجال تتكرّر وتتّصل الى ان يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطاولة ولا يحصل لهم فى الغالب ظفر بالمناجزة والسبب فى ذلك ان

الظفر فى الحروب انّما يقع غالبا كما قدّمناه بامور نفسانيّة وهميّة وان كان العدد والسلاح وصدق القتال كفيلا به لكنه قاصر مع تلك الامور الوهميّة كما مرّ ولذلك كان الخداع من انفع ما يستعمل فى الحرب واكثر ما يقع الظفر به وفى الحديث الحرب خدعة والدولة المستقرّة قد صيّرت العوائد المألوفة طاعتها ضروريّة واجبة كما تقدّم فى غير موضع فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستجدّة ويكسر من همم اتباعه واهل شوكته وان كان الاقربون من بطانته على بصيرة فى طاعته وموازرته الّا ان الاخرين اكثر وقد داخلهم الفشل والكسل بتلك العقائد فى التسليم للدولة المستقرّة فيحصل الفتور منهم ولا يكاد صاحب الدولة المستجدّة لذلك يقاوم صاحب الدولة المستقرّة فيرجع الى الصبر والمطاولة حتّى يتّضح هرم الدولة المستقرّة فتضمحلّ عقائد التسليم لها من قومه وتنبعث منهم الهمم لصدق المطالبة معه فيقع الظفر والاستيلاء وايضا فالدولة المستقرّة كثيرة الترف بما استحكم لهم من الملك وتسوّغوه من النعم واللذّات واختصّوا به دون غيرهم من اموال الجباية فيكثر عندهم ارتباط الخيول واستجادة الاسلحة وتعظم فيهم الابّهة الملكيّة ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم اختيارا واضطرارا فيرهبون بذلك كله عدوّهم واهل الدولة

المستجدّة بمعزل عن ذلك لما هم فيه من البداوة واحوال
الفقر والخصاصة التى يفقد معها الاستعداد من ذلك
فيسبق الى قلوبهم اوهام الرعب لما يبلغهم عن احوال الدولة
المستقرّة وكثرة استعدادها ويحجمون عن قتالهم من اجل
ذلك فيضطرّ اميرهم الى المطاولة حتى تأخذ الدولة
المستقرّة مأخذها من الهرم ويستحكم الخلل فيها فى العصبيّة
والجباية فينتهز حينئذ صاحب الدولة المستجدّة فرصته فى
الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة سنّة الله فى عباده
وايضا فاهل الدولة المستجدّة كلّهم مباينون لاهل الدولة
المستقرّة بانسابهم وعوائدهم وفى سائر مناحيهم ثم منافرون
لهم ومنابذون بما وقع من هذه المطالبة ويطمعهم فى
الاستيلاء عليهم فتتمكّن المباعدة بين اهل الدولتين سرّا
وجهرا ولا يصل الى اهل الدولة المستجدّة خبر عن اهل
الدولة المستقرّة يصيبون به غرّة فيهم باطنا ولا ظاهرا لانقطاع
المداخلة بين الدولتين فيقيمون على المطالبة وهم معها فى
احجام ونكول عن المناجزة حتى اذا تاذن الله بزوال الدولة
المستقرّة ونفاد عمرها ووفور الخلل فى جميع جهاتها واتّضح
لاهل الدولة المستجدّة مع الايّام ما كان يخفى عنهم من
هرمها وتلاشيها وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من اعمالها
ونقصوه من اطرافها فتنبعث هممهم يدا واحدة للمناجزة

ويذهب ما كان يفتّ فى عزائمهم من التوهّمات وتنتهى المطاولة الى حدّها ويقع الاستيلاء آخرا بالمناجزة واعتبر ذلك فى دولة بنى العباس عند ظهورها وبدايتها كيف اقام الشيعة بخراسان بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم على المطالبة عشر سنين او تزيد وحينئذ تمّ لهم الظفر واستولوا على الدولة الامويّة وكذا العلويّة بطبرستان عند ظهور دعوتهم فى الديلم كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلك الناحية ثم لما انقضى امر العلويّة وسما الديلم الى ملك فارس والعراقين فمكثوا سنين كثيرة يطاولون حتى اقتطعوا اصبهان وفارس ثم استولوا على الخليفة ببغداد (وكذا) العبيديّون اقام داعيتهم بالمغرب ابو عبد الله الشيعىّ بين كتامة من قبائل البربر عشر سنين وتزيد يطاول بنى الاغلب بافريقية حتى ظفر بهم واستولوا على المغرب كله ثم سموا الى ملك مصر فمكثوا ثلاثين سنة او نحوها فى طلبها يجهزون اليها العساكر والاساطيل فى كل وقت ويجئ المدد لمدافعتهم برّا وبحرا من بغداذ والشام وملكوا الاسكندرية والفيوم والصعيد وتخطّت دعوتهم من هنالك الى الحجاز واقيمت بالحرمين ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها واقتلع دولة بنى طغج من اصولها واختطّ القاهرة فجاء خليفته معد المعزّ لدين الله فنزلها لستّين سنة

او نحوها منذ استيلائهم على الاسكندرية (وكذا) السلجوقية ملوك الترك لما استولوا على بنى سامان واجازوا من وراء النهر مكثوا نحوا من ثلاثين سنة يطاولون ابن سبكتكين بخراسان حتى استولوا على دولته ثم زحفوا الى بغداذ وعلى الخليفة بعد ايام من الدهر وكذا الططر من بعدهم خرجوا من المفازة اعوام سبعة عشر وستّماية فلم يتمّ لهم الاستيلاء الا بعد اربعين سنة (وكذا) اهل المغرب خرج بهم المرابطون من لمتونة على ملوكه من مغراوة فطاولوهم سنين حتى استولوا عليهم (ثم) خرج الموحّدون بدعوتهم على لمتونة فمكثوا نحوا من ثلاثين سنة يحاربونهم حتى استولوا على كرسيهم بمراكش وكذا بنو مرين من زناتة خرجوا على الموحّدين فمكثوا يطاولونهم نحوا من ثلاثين سنة واستولوا على فاس واقتطعوها واعمالها من ملكهم ثم اقاموا فى محاربتهم ثلاثين اخرى حتى استولوا على كرسيهم بمراكش حسبما ذلك كله مذكور فى تواريخ هذه الدول (فهكذا) حال الدول المستجدّة مع المستقرّة فى المطالبة والمطاولة سنّة الله فى عباده ولن تجد لسنّة الله تبديلا (ولا يعترض) ذلك بما وقع فى الفتوحات الاسلاميّة وكيف كان الاستيلاء على فارس والروم لثلاث او اربع من وفاة النبى صلى الله عليه وسلّم واعلم ان ذلك انها كان معجزة من معجزات نبينا صلى الله

عليه وسلّم سرّها استماتة المسلمين فى جهاد عدوّهم استبصارا (1) بالايمان من غير مطاولة وما اوقع الله فى قلوب عدوّهم كفى ذلك من الرعب والتخاذل فكان ذلك كله خارقا للعادة المعلومة فى مطاولة الدولة المستجدّة المستقرّة واذا كان ذلك خارقا فهو من معجزات نبينا صلوات الله وسلامه عليه المتعارف ظهورها فى الملّة الاسلاميّة والمعجزات لا يقاس عليها الامور العاديّة ولا يعترض بها

فصل فى وفور العمران اواخر الدول وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

انه قد تقرّر لك فيما سلف ان الدول فى اول امرها لا بدّ من الرفق فى ملكتها والاعتدال فى ايالتها امّا من الدين ان كانت الدعوة دينيّة او من المكارمة والمحاسنة التى تقتضيها البداوة الطبيعيّة للدول واذا كانت الملكة رفيقة محسنة انبسطت آمال الرعايا وانتشطوا للعمران واسبابه فتوفر وكثر التناسل واذا كان ذلك كله بالتدريج فانّها يظهر اثره بعد جيل او جيلين فى الاقلّ وفى انقضاء الجيلين تشرف الدولة على نهاية امرها الطبيعيّ فيكون حينئذ العمران فى غاية الوفور والنماء ولا تقولن انه قد مرّ لك

(1) Man. D. استنصارا.

ان اواخر الدول يكون فيها الاجحاف بالرعايا وسوء الملكة فذلك صحيح ولا يعارض ما قلناه لان الاجحاف وان حدث حينئذ وقلّت الجبايات فانّما يظهر اثره فى تناقص العمران بعد حين من اجل التدريج فى الامور الطبيعيّة (ثم) انّ المجاعات والموتان تكثر عند ذلك فى اواخر الدول والسبب فيه اما المجاعات فلقبض الناس ايديهم عن الفلح فى الاكثر بسبب ما يقع فى اواخر الدول من العدوان فى الاموال والجبايات والبياعات بالمكوس او من الفتن الواقعة فى انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة فيقلّ احتكار الزرع غالبا وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمرّ الوجود ولا على وتيرة واحدة فطبيعة العالم فى كثرة الامطار وقلّتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف ويقلّ ويكثر الزرع والثمار والضرع على نسبته الا ان الناس واثقون فى اقواتهم بالاحتكار فاذا فقد الاحتكار عظم توقّع الناس للمجاعات فغلى الزرع وعجز عنه اولو الخصاصة فهلكوا اوكان بعض السنوات والاحتكار مفقود فشمل الناس الجوع (واما) كثرة الموتان فلها اسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه او كثرة الفتن لاختلال الدول فيكثر الهرج والقتل او وقوع الوباء وسببه فى الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة واذا فسد الهواء وهو غذاء

الروح الحيوانى وملابسه دايما فيسرى الفساد الى مزاجه فان كان الفساد قويّا وقع المرض فى الرية وهذه هى الطواعين وامراضها مخصوصة بالرية وان كان الفساد دون القوى والكثير فيكثر العفن به ويتضاعف فتكثر الحميات فى الامزجة وتمرض الابدان وتهلك وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة فى هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة بما كان فى اوائلها من حسن الملكة ورفقها وعظم الحماية وقلّة المغرم وهو ظاهر ولهذا تبيّن فى موضعه فى الحكمة ان تخلّل الخلاء والقفر بين العمران ضرورىّ ليكون تموّج الهواء يذهب بما يحصل فى الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات وياتى بالهواء الصحيح ولهذا ايضا فان الموتان يكون فى المدن الموفورة العمران اكثر من غيرها بكثير كمصر بالمشرق وفاس بالمغرب والله يقدر ما يشاء

فصل فى ان العمران البشرى لا بدّ له من سياسة ينتظم بها امره

انه قد تقدّم لنا فى غير موضع ان الاجتماع البشرى ضرورىّ وهو معنى العمران الذى نتكلّم فيه وانه لا بدّ لهم فى الاجتماع من وازع وحاكم يرجعون اليه وحكمه فيهم تارة يكون مستندا الى شرع منزّل من عند الله يوجب انقيادهم اليه وايمانهم

بالثواب والعقاب الذى جاء به مبلغه وتارة الى سياسة عقليّة يوجب انقيادهم اليها ما يتوقّعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم فالاولى يحصل نفعها فى الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح فى العاقبة ولمراعاته نجاة العباد فى الآخرة والثانية انّما يحصل نفعها فى الدنيا فقط وما تسمعه من السياسة المدنيّة فليس من هذا الباب وانّما معناه عند الحكماء ما يجب ان يكون عليه كل واحد من اهل ذلك المجتمع فى نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكّام رأسا ويسمون المجتمع الذى يحصل فيه ما ينبغى من ذلك بالمدينة الفاضلة والقوانين المراعاة فى ذلك بالسياسة المدنيّة وليس مرادهم السياسة التى يحمل عليها اهل الاجتماع بالاحكام للمصالح العامّة فان هذه غير تلك وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة او بعيدة الوقوع وانّما يتكلّمون عليها على جهة الفرض والتقدير (ثم) ان السياسة العقليّة التى قدّمناها تكون على وجهين احدهما تراعى فيه المصالح على العموم ومصالح السلطان فى استقامة ملكه على الخصوص وهذه كانت سياسة الفرس وهى على وجه الحكمة وقد اغنانا الله عنها فى الملّة ولعهد الخلافة لان احكام الشريعة مغنية عنها فى المصالح العامّة والخاصّة والآداب واحكام الملك مندرجة فيها الوجه الثانى ان تراعى فيها

مصلحة السلطان وكيف يستقيم فيه الملك مع القهر والاستطالة وتكون المصالح العامّة فى هذه تبعا وهذه السياسة هى التى لسائر الملوك فى العالم من مسلم وكافر الا ان ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الاسلاميّة بحسب جهدهم فقوانينها اذن مجتمعة من احكام شرعيّة وآداب خلقيّة وقوانين فى الاجتماع طبيعيّة واشياء من مراعاة الشوكة والعصبيّة ضروريّة والاقتداء فيها بالشرع اولا ثم بالحكماء فى آدابهم والملوك فى سيرهم ومن احسن ما كتب فى ذلك واوعبه كتاب طاهر بن الحسين قائد المأمون لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقّة ومصر وما بينهما (فكتب) اليه ابوه طاهر كتابه المشهور عهد اليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج اليه فى دولته وسلطانه من الآداب الدينيّة والخلقيّة والسياسات الشرعيّة والملوكيّة وحثّه على مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة ونصّ الكتاب منقولا من كتاب الطبرىّ وهو هذا بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عزّ وجلّ ومزايلة سخطه وحفظ رعيتك فى الليل والنهار والزم ما البسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما انت سائر اليه وموقوف عليه ومسؤل عنه والعمل فى ذلك كله بما يعصمك الله

عزّ وجلّ وينجيك يوم القيامة عن عقابه واليم عذابه فان الله سبحانه قد احسن اليك واوجب عليك الرأفة بمن استرعاك امرهم من عباده والزمك العدل فيهم والقيام بحقّه وحدوده عليهم والذبّ عنهم والدفع عن حريمهم وبيضتهم والحقن لدمائهم والامن لسبلهم وادخال الراحة عليهم ومواخذك بما فرض عليك وموقفك عليه ومسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدّمت واخرت وفرّغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا يشغلك عنه شاغل فانّه رأس امرك وملاك شأنك واول ما يوفّقك الله عزّ وجلّ به لرشدك وليكن اول ما تلزم به نفسك وتنسب اليه فعلك المواظبة على ما افترض الله عزّ وجلّ عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك وتوقعها على سننها فى اسباغ الوضوء لها وافتتاح ذكر الله عزّ وجلّ فيها وترتّل فى قراءتك وتمكن فى ركوعك وسجودك وتشهّدك ولتصدق فيها لربّك نيتك واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك وادّب عليها فانّها كما قال الله عزّ وجلّ تنهى عن الفحشاء والمنكر ثم اتبع ذلك بالاخذ بسنن رسول الله صلعم والمثابرة على خلائقه واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده واذا ورد عليك امر فاستعن عليه باستخارة الله عزّ وجلّ وتقواه وبلزوم ما انزل الله عزّ وجلّ فى كتابه من

امره ونهيه وحلاله وحرامه واتمام ما جاءت به الآثار عن رسول الله صلعم ثم قم فيه بما يحقّ الله عزّ وجلّ عليك ولا تميلن عن العدل فيما احببت او كرهت لقريب من الناس او بعيد وآثر الفقه واهله والدين وحملته وكتاب الله عزّ وجلّ والعالمين به فان افضل ما تزين به المرء الفقه فى الدين والطلب له والحثّ عليه والمعرفة بما يتقرّب به منه الى الله عزّ وجلّ فانه الدليل على الخير كله والقائد اليه والآمر به والناهى عن المعاصى والموبقات كلّها وبها مع توفيق الله عزّ وجلّ يزداد العبد معرفة له واجلالا له ودركا للدرجات العلى فى المعاد مع ما فى ظهوره للناس من التوقير لامرك والهيبة لسلطانك والانسة بك والثقة بعدلك وعليك بالاقتصاد فى الامور كلها فليس شئ ابين نفعا ولا احضر امنا ولا اجمع فضلا منه والقصد داعية الى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد الى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد فآثره فى دنياك كلها ولا تقصر فى طلب الآخرة والاعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد ولا غاية للاستكثار فى البرّ والسعى له اذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته ومرافقة اولياء الله تعالى فى دار كرامته واعلم ان القصد فى شأن الدنيا يورث العزّ ويحصن من الذنوب وانّك لن تحوط نفسك ومرتبتك

ولا تستصلح اموركك بافضل منه فإنه واهتد به تتمّ اموركك وتزيد مقدرتك وتصلح خاصّتك وعامّتك واحسن ظنّك بالله عزّ وجلّ تستقم لك رعيتك والتمس الوسيلة اليه فى الامور كلها تستدم به النعمة عليك ولا تتهمن احدا من الناس فيما توليه من عملك قبل ان تكشف امره فان ايقاع التهم بالبراء والظنون السئة بهم مأثم فاجعل من شأنك حسن الظنّ باصحابك واطرد عنك سوء الظنّ بهم وارفضه فيهم يغنيك ذلك عن اصطناعهم ورياضتهم ولا يجدن عدوّ الله الشيطان فى امرك مغمزا فانه انما يكتفى بالقليل من وهنك فيدخل عليك من الغمّ فى سوء الظنّ ما ينغص لذاذة عيشك واعلم انك تجد بحسن الظنّ قوة وراحة وتكتفى به ما احببت كفايته من امورك وتدعو به الناس الى محبّتك والاستقامة فى الامور كلها ولا يمنعك حسن الظنّ باصحابك والرافة برعيتك ان تستعمل المسئلة والبحث عن امورك والمباشرة لامور الاولياء والحياطة للرعية والنظر فيما يقيمها ويصلحها بل لتكن المباشرة لامور الاولياء والحياطة للرعية فى النظر فى حوائجهم وحمل مؤناتهم آثر عندك مما سوى ذلك فانه اقوم للدين واحيا للسنّة واخلص نيتك فى جميع هذا وتفرّد بتقويم نفسك تفرّد من يعلم انه مسئول عمّا صنع ومجزى بما احسن

وماخوذ بما اساء فانّ الله عزّ وجل جعل الدين عزّا وحرزا ورفع من اتبعه وعزّزه فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريق الهدى واقم حدود الله تعالى فى اصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقّوه ولا تعطل ذلك ولا تتهاون فيه ولا تؤخّر عقوبة اهل العقوبات فان فى تفريطك فى ذلك ما يفسد عليك حسن ظنّك واعزم على امرك فى ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك وتقم مروءتك واذا عاهدت عهدا فَف به واذا وعدت الخير فانجزه واقبل الحسنة وادفع بها واغمض عن كل عيب ذى عيب من رعيتك واسدد لسانك عن قول الكذب والزور وابغض اهل النميمة فان فساد امورك فى عاجلها وآجلها تقريب الكذوب والجراءة على الكذب لان الكذب رأس المأثم والزور والنميمة خاتمتها لان النميمة لا يسلم صاحبها وقابلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم لطبعها امر وأجب امر الصلاح والصدق واعِن الاشراف بالحقّ وواصل الضعفاء وصل الرحم وابتغ بذلك وجه الله تعالى واعزاز امره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة واجتنب سوء الاهواء والجور واصرف عنهما رايك واظهر براءتك لرعيتك وانعم بالعدل سياستهم وقم بالحقّ فيهم وبالمعرفة التى تنتهى بك الى سبيل الهدى واملك

نفسك عن الغضب وآثر الوقار والحلم وايّاك والحدّة والطيش والغرور فيما انت بسبيله وايّاك ان تقول انا مسلّط افعل ما اشاء فانّ ذلك سريع فيك الى نقص الرأى وقلّة اليقين بالله وحده لا شريك له واخلص لله النية فيه واليقين به واعلم ان الملك لله يؤتيه من يشاء وينزعه ممّن يشاء ولن تجد تغيير النعمة وحلول النقمة الى احد اسرع منه الى جهلة النعمة من اصحاب السلطان والمبسوط لهم فى الدولة اذا كفروا نعم الله عزّ وجلّ واحسانه واستطالوا بها اتاهم الله عزّ وجلّ من فضله ودَعْ عنك شره نفسك ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تذخر وتكثر البرّ والتقوى والعدل واستصلاح الرعيّة وعمارة بلادهم والتفقّد لامورهم والحفظ لدمائهم والاغاثة لملهوفهم واعلم ان الاموال اذا كثرت وذخرت فى الخزائن لا تثمر واذا كانت فى صلاح الرعيّة واعطاء حقوقهم وكفّ المؤنة عنهم نمت وزكت وصلحت العامّة وتزيّنت به الولاة وطاب الزمان واعتقد فيه العزّ والمنعة فليكن كنز خزائنك تفريق الاموال فى عمارة الاسلام واهله وفرّق منه على اولياء امير المؤمنين قبلك حقوقهم واوف رعيّتك من ذلك حصصهم وتعهّد ما يصلح امورهم ومعاشهم فانّك اذا فعلت ذلك قرّت النعمة عليك واستوجبت المزيد من الله تعالى وكنت بذلك فى جباية

خراجك وجمع اموال رعيّتك وعملك اقدر وكان الجميع لما شملهم من عدلك واحسانك اسكن لطاعتك واطيب نفسا بكل ما اردت فاجهد نفسك بما حددت لك فى هذا الباب وليعظم خشيتك فيه فانّما يبقىٰ من المال ما انفق فى سبيل الله حقّه واعرف للشاكرين شكرهم واثبهم عليه وايّاك ان تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحقّ عليك فانّ التهاون يورث التفريط والتفريط يورث البوار وليكن عملك لله عزّ وجلّ وارج الثواب فان الله سبحانه قد اسبغ عليك نعمته فى الدنيا واظهر لديك فضله واعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيرا واحسانا فان الله عزّ وجلّ يثيب بقدر شكر الشاكرين وسيرة المحسنين وقضّى الحقّ فيما حمّل من النعم والبس من الكرامة ولا تحقرن ذنبا ولا تمالين حاسدا ولا ترحمن فاجرا ولا تصلن كفورا ولا تداهنن عدوّا ولا تصدقن نمّاما ولا تأمنن غدّارا ولا توالين فاسقا ولا تتبعن غاويا ولا تحمدن مرائيا ولا تحقرن انسانا ولا تردّن سائلا فقيرا ولا تحسنن باطلا ولا تلاحظن مضحكا ولا تخلفن موعدا ولا ترهبن فخرا ولا تظهرن غضبا ولا تأتين بذخا ولا تمشين مرحا ولا تزكين سفيها ولا تفرطن فى طلب الآخرة ولا تدفع الايام عتابا ولا تغمضن عن ظالم رهبة منه او محاباة ولا تطلبن ثواب

الآخرة فى الدنيا واكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك
بالحلم وخذ عن اهل التجارب وذوى العقل والرائ
والحكمة ولا تدخلن فى مشورتك اهل الرفه والبخل
ولا تسمعن لهم قولا فان ضررهم اكثر من نفعهم وليس شئ
اسرع فسادا لما استقبلت فيه امر رعيّتك من الشحّ واعلم
انك اذا كنت حريصا كنت كثير الاخذ قليل العطية
واذا كنت كذلك لم يستقم لك امرك الا قليلا فان
رعيّتك آنما تعتقد على محبّتك بالكفّ عن اموالهم
وترك الجور عليهم ووال من صفا لك (1) من اوليائك
بالافضال عليهم وحسن العطية لهم فاجتنب الشحّ واعلم
انه اول ما عصى به الانسان ربّه وان العاصى بمنزلة خزى
وهو قول الله عزّ وجلّ ومن يوق شحّ نفسه فاولئك هم
المفلحون وسهّل طريق الجور بالحقّ واجعل للمسلمين
كلهم من فيئك حظّا وايقن ان الجود من افضل اعمال
العباد فاعدده لنفسك خلقا وسهّل طريق الجور بالحقّ
وارض به عملا ومذهبا وتفقّد الجند فى دوائنهم ومكاتبتهم
وأَدرر (2) عليهم ارزاقهم ووسّع عليهم فى معائشهم ليذهب الله
عزّ وجلّ بذلك فاقتهم فيقوى لك امرهم وتزيد قلوبهم
فى طاعتك وامرك خلوصا وانشراحا وحسب ذى السلطان

(1) M. C. et D. يدوم صفاء اوليائك لك.

(2) M. A. B. et C. ادِر.

من السعادة ان يكون على جنده ورعيّته رحمة فى عدله وحيطته وانصافه وعنايته وشفقته وبرّه وتوسعته فزايل مكروه احد البابين باستشعار فضيلة الباب الاخر ولزوم العمل به تلق ان شاء الله نجاحا وصلاحا وفلاحا واعلم ان القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس به شئ من الامور لانّه ميزان الله الذى تعتدل عليه احوال الناس فى الارض وباقامة الفضل والعدل فى القضاء تصلح احوال الرعيّة وتامن السبل وينتصف المظلوم ممّن ظلم وتأخذ الناس حقوقهم وتحصن المعيشة وتؤدى حقّ الطاعة ويرزق الله العافية والسلامة ويقوم الدين وتجرى السنن والشرائع على مجاريها بتنجيز الحقّ فى القضاء واشتدّ فى امر الله عزّ وجلّ وتورّع من التطفيف وامض لاقامة الحدود واقلل العجلة وابعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم وليسكن ريحك ويقرّ حدّك وانتفع بتجربتك وانتبه فى صمتك واشدد فى منطقك وانصف الخصم وقف عند الشبهة وابلغ فى الحجّة ولا تاخذك فى احد من رعيّتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم وتثبّت وتأنّ وراقب وانظر وتفكّر وتدبّر واعتبر وتواضع لربّك وارفق بجميع الرعيّة وسلّط الحقّ على نفسك ولا تسرع الى سفك دم فانّ الدماء من الله عزّ وجلّ بمكان عظيم انتهاكها بغير حقّها وانظر هذا الخراج الذى

استقامت عليه الرعيّة وجعله الله للاسلام عزّا ورفعة ولاهله توسعة ومنعة ولعدوّه وعدوّهم كبتا وغيظا ولاهل الكفر من معاهدتهم ذلّا وصغارا فوزّعه بين اصحابه بالحقّ والعدل والتسوية والعموم فيه ولا ترفعن منه شئا عن شريف لشرفه وعن غنى لغناه ولا عن كاتب لك ولا عن احد من خاصّتك ولا حاشيتك ولا تاخذن منه فوق الاحتمال ولا تكلفن امرءا فيه شططا واحمل الناس كلهم على مرّ الحقّ فان ذلك اجمع لالفتهم والزم لرضاء العامّة واعلم انّك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا وانّما سمى اهل عملك رعيّتك لانّك راعيهم وقيّمهم فخذ منهم ما اعطوك من عفوهم وتنفذه فى قوام امرهم وصلاحهم وتقويم اودهم واستعمل عليهم ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة والعلم بالسياسة والعفاف ووسّع عليهم فى الرزق فانّ ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلّدت واسند اليك ولا يشغلنك عنه شاغل ولا يصرفنك عنه صارف فانّك متى اثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربّك وحسن الاحدوثة فى عملك واجتررت (1) به المحبّة من رعيّتك واعنت على الصلاح فدرّت الخيرات ببلدك وفشت العمرة بناحيتك وظهر الخصب فى كورك وكثر خراجك

(1) Man. D. احرزت.

وتوفّرت اموالك وقويت بذلك على ارتضاء جندك وارضاء العامّة بافاضة العطاء فيهم من نفسك وكنت محمود السياسة مرضى العدل فى ذلك عند عدوّك وكنت فى امورك كلّها ذا عدل وآلة وقوة وعدّة فنافس فى هذا ولا تقدّم عليه شئا تحمد مغبّة امرك ان شاء الله واجعل فى كل كورة من عملك امينا يخبرك اخبار عمّالك ويكتب لك بسيرهم واعمالهم حتى كانّك مع كلّ عامل فى عمله معاين لاموره كلها وان اردت ان تامرهم بامر فانظر فى عواقب ما اردت من ذلك فان رايت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع فأمضه والّا فتوقّف عنه وراجع اهل البصر والعلم به ثمّ خذ فيه عدّته فانّه ربّما نظر الرجل فى امر من امره وقد اتاه على ما يهوى فاغواه ذلك واعجبه فان لم ينظر فى عواقبه اهلكه ونقض عليه امره فاستعمل الحزم فى كل ما اردت وباشره بعد عون الله بالقوة واكثر من استخارة ربّك فى جميع امورك وافرغ من عمل يومك ولا تؤخّره واكثر مباشرته بنفسك فان لغد امورا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى اخّرت واعلم ان اليوم اذا مضى ذهب ما فيه فاذا أخّرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيثقلك ذلك حتى تمرض منه واذا امضيت لكل يوم عمله ارحت بدنك

ونفسك واحكمت امور سلطانك وانظر احرار الناس وذوى السنّ منهم فمن تستيقن صفاء طويتهم وشهدت مودّتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على امرك فاستخلصهم واحسن اليهم وتعاهد اهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة فاحتمل مؤنتهم واصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلّتهم مسّا وافرد نفسك للنظر فى امور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر على رفع مظلمته اليك والمحتقر الذى لا علم له بطلب حقّه فسئل له عنه اخفى مسئلة ووكّل بامثاله اهل الصلاح من رعيّتك ومُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك لتنظر فيها بما يصلح الله به امرهم وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم واراملهم واجعل لهم ارزاقا من بيت المال اقتداء بامير المؤمنين اعزّه الله تعالى فى العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله تعالى بذلك عيشهم ويرزقك الله به بركة وزيادة وأَجْر للاضرّاء من بيت المال وقدّم حملة القران منهم والحافظين لاكثره فى الجراية على غيرهم وانصب لمرضى المسلمين دورا تؤويهم وقوّاما يرفقون بهم واطبّاء يعالجون اسقامهم واسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك الى سرف فى بيت المال واعلم ان الناس اذا اعطوا حقوقهم وافضل امانيهم لم يرضهم ذلك ولم تطب انفسهم دون رفع حوائجهم الى ولاتهم طمعا فى نيل الزيادة

وفضل الرفق منهم وربّما يبرم المتصفّح لامور الناس لكثرة
ما يرد عليه ويشغل ذهنه وفكره فيها ممّا يناله به مؤنة
ومشقّة وليس من يرغب فى العدل ويعرف محاسن اموره
فى العاجل وفضل ثواب الآجل كالذى يستقبل ما يقرّبه
الى الله ويلتمس رحمته فاكثر الاذن للناس عليك وأرهم
وابرز لهم وجهك سكّن لهم حراسك واخفض لهم جناحك
واظهر لهم بشرك ولِن لهم فى المسئلة والنطق واعطف
عليهم بجودك وفضلك واذا اعطيت فاعط بسماحة وطيب
نفس والتماس للصنيعة والاجر من غير تكدير ولا امتنان فان
العطية على ذلك تجارة مربحة ان شاء الله تعالى واعتبر بما
ترى من امور الدنيا ومن مضى من قبلك من اهل
السلطان والرياسة فى القرون الخالية والامم البايدة ثم اعتصم
فى احوالك كلها بامر الله سبحانه وتعالى والوقوف عند
محبّته والعمل بشريعته وسنّته واقامة دينه وكتابه
واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا الى سخط الله
واعرف ما يجمع عمّالك من الاموال وينفقون منها
ولا تجمع حراما ولا تنفق اسرافا واكثر مجالسة العلماء
ومشاورتهم ومخالطتهم وليكن هواك اتباع السنن واقامتها
وايثار مكارم الاخلاق ومعاليها وليكن اكرم دخلائك عليك
وخاصّتك عليك من اذا راى عيبا فيك فلا تمنعه هيبتك

من انهاء ذلك اليك فى سرّ واعلامك ما فيه من النقص
فان اولئك انصح اوليائك ومظاهريك لك وانظر
عمّالك الذين بحضرتك وكتّابك فوقت لكل رجل
منهم فى كل يوم وقتا يدخل عليك فيه بكتبه ومواامراته وما
عنده من حوائج اعمالك وامور كورك ورعيّتك ثم فرّغ لما
يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك
وكرّر النظر فيه والتدبير له فما كان موافقا للحقّ والحزم
فامضه واستخر الله عزّ وجلّ فيه وما كان مخالفا لذلك
فاصرفه الى التثبت فيه والمسئلة عنه ولا تمنن على رعيّتك
ولا على غيرهم بمعروف تؤتيه اليهم ولا تقبل من احد الا
الوفاء والاستقامة والعون فى امور المسلمين ولا تضعن المعروف
الّا على ذلك وتفهّم كتابى اليك واكثر النظر فيه
والعمل به واستعن بالله على جميع امورك واستخره فانّ
الله عزّ وجل مع الصلاح واهله وليكن اعظم سيرتك
وافضل رغبتك ما كان للّه عزّ وجل رضى ولدينه نظاما
ولاهله عزّا وتمكينا وللملّة والذمّة عدلا وصلاحا وانا اسأل
الله عزّ وجلّ ان يحسن عونك وتوفيقك ورشدك
وكلاتك والسلام (وحدّث) الاخباريّون ان هذا الكتاب لمّا
ظهر وشاع امره اعجب به الناس واتّصل بالمأمون ولما قرئ
عليه قال ما ابقى ابو الطيب يعنى طاهرا شيئا من امر الدنيا

والدين والتدبير والراى والسياسة واصلاح الملك والرعيّة وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة الا وقد احكمه واوصى به ثم امر المامون فكتب به الى جميع العمّال فى النواحى ليقتدوا به ويعملوا بما فيه هذا احسن ما وقفت عليه فى هذه السياسة والله يلهم من يشاء من عبّاده

فصل فى امر الفاطمىّ وما يذهب اليه الناس فى شأنه وكشف الغطاء عن ذلك

ان من المشهور بين الكافة من اهل الاسلام على مرّ الاعصار انه لا بدّ فى آخر الزمان من ظهور رجل من اهل البيت يؤيّد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولى على الممالك الاسلاميّة ويسمى بالمهدى ويكون خروج الدجّال وما بعده من اشراط الساعة الثابتة فى الصحيح على اثره وان عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجّال او ينزل معه فيساعده على قتله ويأتمّ بالمهدى فى صلاته ويحتجّون فى الباب باحاديث خرّجها الايمّة وتكلّم فيها المنكرون لذلك وربّما عارضوها ببعض الاخبار وللمتصوّفة المتأخّرين فى امر هذا الفاطمى طريقة اخرى ونوع من الاستدلال وربّما يعتمدون فى ذلك على الكشف الذى هو اصل طريقتهم ونحن الآن نذكر هنا الاحاديث الواردة فى هذا الباب وما للمنكرين فيها من

المطاعن وما لهم فى انكارهم من المستند ثم نتبعه بذكر كلام المتصوّفة وآراءهم ليتبيّن لك الصحيح من ذلك ان شاء الله تعالى فنقول ان جماعة من الايمّة خرّجوا احاديث المهدى منهم الترمذى وابو داود والبزار وابن ماجة والحاكم والطبرانى وابو يعلى الموصلى واسندوها الى جماعة من الصحابة مثل على وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وابى هريرة وانس وابى سعيد الخدرى وامّ حبيبة وامّ سلمة وثوبان وقرّة بن اياس وعلى الهلالى وعبد الله بن الحارث ابن جزء باسانيد ربّما تعرض لها المنكرون كما نذكره الآن لان المعروف عند اهل الحديث ان الجرح مقدّم على التعديل فاذا وجدنا طعنا فى بعض رجال الاسناد بغفلة او سوء حفظ او قلّة ضبط او ضعف او سوء رأى تطرّق ذلك الى صحّة الحديث واوهن منه ولا تقولن ان مثل ذلك ربّما يتطرّق الى رجال الصحيحين فان الاجماع من المحدّثين على صحّة ما فيهما كما ذكره البخارى ومسلم والاجماع ايضا قد اتّصل فى الامّة على تلقيهما بالقبول والعمل بما فيهما وفى الاجماع اعظم حماية واحسن دفع وليس غير الصحيحين بمثابتهما فى ذلك فقد نجد مجالا للكلام فى اسانيدهما لها نقل عن ايمّة الحديث فى ذلك ولقد توغّل ابو بكر بن ابى

خيثمة على ما نقل السهيلى عنه فى جمعه للاحاديث الواردة فى المهدى فقال ومن اغربها اسنادا ما ذكره ابو بكر الاسكاف فى فوائد الاخبار مسندا الى مالك بن انس عن محمد بن المنكدر (1) عن جابر قال قال رسول الله صلعم من كذب بالمهدى فقد كفر ومن كذب بالدجال (2) فقد كذب وقال فى طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك فيما احسب وحسبك بهذا غلوا والله اعلم بصحّة طريقه الى مالك بن انس على ان ابا بكر الاسكاف عندهم متّهم وضاع واما الترمذى فخرج هو وابو داود بسندهما الى ابن مسعود من طريق عاصم بن ابى النجود احد القرّاء السبعة عن زرّ بن ابى حبيش عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلعم لو لم يبق من الدنيا الا يوم قال زايدة لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجل منّى او من اهل بيتى يواطئ اسمه اسمى واسم ابيه اسم ابى هذا لفظ ابى داود وسكت عليه وقال فى رسالته المشهورة ان ما سكت عليه فى كتابه فهو صالح ولفظ الترمذى لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من اهل بيتى يواطئ اسمه اسمى وفى لفظ اخر حتى يلى رجل من اهل بيتى وقال فى كليهما حديث حسن صحيح ورواه ايضا من طريق

(1) Man. A. et B. المكندر.
(2) Man. A. B. C. الدخان

عاصم موقوفا على ابى هريرة وقال الحاكم رواه الثورى
وشعبة وزايدة وغيرهم من ايمّة المسلمين عن عاصم قال
وطرق عاصم عن زرّ عن عبد الله كلّها صحيحة على ما
اصّلته من الاحتجاج باخبار عاصم اذ هو امام من ايمّة
المسلمين انتهى الا ان عاصما قال فيه احمد بن حنبل كان
رجلا صالحا قارئا للقران خيرا ثقة والاعمش احفظ منه وكان
شعبة يختار الاعمش عليه فى تثبيت الحديث وقال
العجلى كان يختلف عليه فى زرّ وابى وائل يشير بذلك
الى ضعف روايته عنهما وقال محمد بن سعد كان ثقة الا انه
كثير الخطاء فى حديثه وقال يعقوب بن سفيان فى حديثه
اضطراب وقال عبد الرحمن بن ابى حاتم قلت لابى ان
ابا زرعة يقول عاصم ثقة فقال ليس محلّه هذا وقد تكلّم
فيه ابن عليّة فقال كل من اسمه عاصم سيّى الحفظ وقال
ابو حاتم محلّه عندى محلّ الصدق صالح الحديث ولم
يكن بذلك الحافظ واختلف فيه قول النسائى وقال ابن
خراش فى حديثه نكرة وقال ابو جعفر العقيلى لم يكن فيه
الّا سوء الحفظ وقال الدارقطنى فى حفظه شئ وقال يحيى
القطان ما وجدت رجلا اسمه عاصم الا وجدته ردىّ الحفظ
وقال ايضا سمعت شعبة يقول حدّثنا عاصم ابن ابى
النجود وفى النفس ما فيها وقال الذهبى ثبت فى القراءة

وهو فى الحديث دون الثبت صدوق يهم وهو حسن الحديث وان احتجّ احد بان الشيخين اخرجا له فانّما اخرجا له مقرونا بغيره لا اصلا والله اعلم (وخرّج) ابو داود فى الباب عن على رضى الله عنه من رواية فطر ابن خليفة بالفاء عن القاسم بن ابى بزة عن ابى الطفيل عن على عن النبى صلعم قال لو لم يبق من الدهر الا يوم لبعث الله رجلا من اهل بيتى يملأها عدلا كما ملئت جورا وفطر بن خليفة وان وثقه احمد ويحيى ابن القطان وابن معين والنسائى وغيرهم الا ان العجلى قال حسن الحديث وفيه تشيّع قليل وقال ابن معين مرّة ثقة شيعىّ وقال احمد بن عبد الله بن يونس كنّا نمرّ على فطر وهو مطروح لا نكتب عنه وقال مرّة كنت امرّ به وادعه مثل الكلب وقال الدارقطنى لا يحتجّ به وقال ابو بكر بن عياش ما تركت الرواية عنه الا لسوء مذهبه وقال الجوزجانى زايغ غير ثقة انتهى (وخرّج) ابو داود ايضا بسنده الى على رضى الله عنه عن هرون بن المغيرة عن عمرو بن ابى قيس عن شعيب بن خالد عن ابى اسحق السبيعى قال قال على ونظر الى ابنه الحسن فقال انّ ابنى هذا سيّد كما سمّاه رسول الله صلعم سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه فى الخلق ولا يشبهه فى الخلق ثم ذكر قصّة يملاء

الارض عدلا وقال هرون حدّثنا عمرو بن ابى قيس عن مطرف بن طريف عن ابى الحسن عن هلال بن عمرو سمعت عليّا يقول قال النبى صلعم يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث على مقدمته رجل يقال له منصور يوطئ او يمكن لآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله وجب على كل مؤمن نصره او قال اجابته سكت عليه ابو داود وقال فى موضع اخر فى هرون هو من الشيعة وقال السليمانى فيه نظر وقال ابو داود فى عمرو بن ابى قيس لا بأس به فى حديثه خطاء وقال الذهبى صدوقا له اوهام واما ابو اسحق السبيعى وان خرج عنه فى الصحيحين فقد ثبت انه اختلط آخر عمره وروايته عن على منقطعة وكذا رواية ابى داود عن هرون بن المغيرة اما السند الثانى فابو الحسن فيه وهلال بن عمرو مجهولان ولم يعرف ابو الحسن الّا من رواية مطرف بن طريف عنه انتهى (وخرّج) ابو داود ايضا عن امّ سلمة وكذا ابن ماجة والحاكم فى المستدرك من طريق على بن نفيل عن سعيد بن المسيّب عن امّ سلمة قالت سمعت رسول الله صلعم يقول المهدى من عترتى من ولد فاطمة لفظ ابى داود وسكت عليه ولفظ ابن ماجة المهدى من ولد فاطمة ولفظ الحاكم سمعت رسول الله صلعم يذكر المهدى فقال نعم هو حقّ

وهو من بنى فاطمة ولم يتكلّم عليه بتصحيح ولا غيره وقد
ضعّفه ابو جعفر العقيلى وقال لا يتابع على بن نفيل عليه
ولا يعرف الّا به (وخرّج) ابو داود ايضا عن امّ سلمة من
رواية صالح ابى الخليل عن صاحب له عن امّ سلمة عن
النبى صلعم قال يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج
رجل من اهل المدينة هاربا الى مكّة فيأتيه ناس من اهل
مكّة فيخرجونه وهو كاره فيبايعونه بين الركن والمقام
ويبعث اليه بعث من الشام فيخسف بهم بالبيداء بين
مكّة والمدينة فاذا رأى الناس ذلك اتاه ابدال الشام
وعصائب اهل العراق فيبايعونه ثمّ ينشأ رجل من قريش
اخواله كلب فيبعث عليهم بعثا فيظهرون عليهم وذلك
بعث كلب والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب فيقسم المال
ويعمل فى الناس بسنّة نبيهم ويلقى الاسلام بجرانه الى
الارض فيلبث سبع سنين ثم يتوفّى ويصلّى عليه المسلمون
قال ابو داود قال بعضهم عن هشام تسع سنين وقال بعضهم
سبع سنين ثم رواه ابو داود من رواية ابى الخليل عن عبد
الله بن الحارث عن امّ سلمة فتبيّن بذلك المبهم فى
الاسناد الاول ورجاله رجال الصحيحين لا مطعن فيهم ولا مغمز
وقد يقال انه من روايه قتادة عن ابى الخليل وقتادة مدلس
وقد عنعنه والمدلس لا يقبل من حديثه الّا ما صرّح فيه ابو

داود فى ابوابه (وخرّج) ابو داود ايضا وتابعه الحاكم عن ابى سعيد الخدرى من طريق عمران القطان عن قتادة عن ابى نضرة عن ابى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلعم المهدى منّى اجلا الجبهة اقنى الانف يملأ الارض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يملك سبع سنين هذا لفظ ابى داود وسكت عليه ولفظ الحاكم المهدى منّا اهل البيت اشمّ الانف اقنا اجلأ يملا الارض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يعيش هكذا وبسط يساره واصبعين من يمينه السبّابة والابهام وعقد ثلاثة قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه انتهى وعمران القطان مختلف فى الاحتجاج به وانّما اخرج له البخارى استشهادا لا اصلا وقال يحيى القطان لا يحدث عنه وقال يحيى بن معين ليس بالقوى وقال مرّة ليس بشئ وقال احمد بن حنبل ارجو ان يكون صالح الحديث وقال يزيد بن زريع كان حروريّا وكان يرى السيف على اهل القبلة وقال النسائى ضعيف وقال ابو عبيد الاجرّى سألت ابا داود عنه فقال من اصحاب الحسن وما سمعت الا خيرا وسمعته ذكره مرّة اخرى فقال ضعيف افتى فى ايام ابراهيم بن عبد الله بن حسن بفتوى شديدة فيها سفك الدماء وخرّج الترمذى وابن ماجة

والحاكم عن ابى سعيد الخدرى قال خشينا ان يكون بعد نبينا حدث فسألنا نبى الله فقال ان فى امّتى المهدى يخرج يعيش خمسا او سبعا او تسعا زيد الشاكّ قال قلنا وما ذاك قال سنين قال فيجئ اليه الرجل فيقول يا مهدى اعطنى قال فيحثى له فى ثوبه ما استطاع ان يحمله لفظ الترمذىّ وهذا حديث حسن وقد روى من غير وجه عن ابى سعيد الخدرى عن النبى صلعم ولفظ ابن ماجة والحاكم يكون فى امّتى المهدى ان قصّر فسبع والّا فتسع فتنعم فيه امّتى نعمة لم يسمعوا مثلها قط تؤتى الارض اكلها ولا تذخر منهم شئا والمال يومئذ كدوس فيقوم الرجل فيقول يا مهدى اعطنى فيقول انتهى وزيد العمىّ وان قال فيه الدارقطنى واحمد بن حنبل ويحيى بن معين انه صالح وزاد احمد انه فوق يزيد الرقاشى وفضل بن عيسى الّا انه قال فيه ابو حاتم ضعيف يكتب حديثه ولا يحتجّ به وقال يحيى بن معين فى رواية اخرى لا شئ وقال مرّة يكتب حديثه وهو ضعيف وقال الجوزجانىّ متماسك وقال ابو زرعة ليس بقوىّ واهى الحديث ضعيف وقال ابو داود ليس بذاك وقد حدّث عنه شعبة وقال النسائى ضعيف وقال ابن عدى عامّة ما يرويه ومن يروى عنهم ضعفاء على ان شعبة قد روى عنه

ولعلّ شعبة لم يرو عن اضعف منه وقد يقال ان حديث
الترمذى وقع تفسيرا لما رواه مسلم فى صحيحه من حديث
جابر قال قال رسول الله صلعم يكون فى آخر امّتى خليفة
يحثى المال حثيا لا يعدّه عدّا ومن حديث ابى سعيد قال
من خلفائكم خليفة يحثو المال حثيا ومن طريق اخر
عنهما قال يكون فى آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعدّه
انتهى واحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدى ولا دليل
يقوم على انه المراد بها ورواه الحاكم ايضا من طريق
عوف الاعرابىّ عن ابى الصديق الناجى عن ابى سعيد
الخدرىّ قال قال رسول الله صلعم لا تقوم الساعة حتى
تملأ الارض ظلما وجورا وعدوانا ثم يخرج من اهل بيتى
من يملأها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا وقال فيه
الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم
يخرجاه ورواه الحاكم ايضا من طريق سليمان بن عبيد
عن ابى الصديق الناجى عن ابى سعيد الخدرى ان
رسول الله صلعم قال يخرج آخر امّتى المهدى يسقيه الله
الغيث وتخرج الارض نباتها ويعطى المال صحاحا وتكثر الماشية
وتعظم الامّة يعيش سبعا او ثمانيا يعنى حججا وقال فيه
حديثا صحيح الاسناد ولم يخرجاه مع ان سليمان بن
عبيد لم يخرج له احد من السنّة لكن ذكره ابن حبان فى

الثقات ولم ار احدا تكلّم فيه (ثم) رواه الحاكم ايضا من طريق اسد بن موسى عن حمّاد بن سلمة عن مطر الوراق وابى هرون العبدى عن ابى الصديق الناجى عن ابى سعيد ان رسول الله صلعم قال تملأ الارض جورا وظلما فيخرج رجل من عترتى فيملك سبعا او تسعا فيملأ الارض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما وقال فيه الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم لانه اخرج عن حمّاد بن سلمة وعن شيخه مطر الورّاق واما شيخه الاخر وهو ابو هرون العبدى فلم يخرج له وهو ضعيف جدّا متهم بالكذب ولا حاجة الى بسط اقوال الايمّة فى تضعيفه واما الراوى له عن حمّاد بن سلمة وهو اسد بن موسى يلقب اسد السنّة وان قال البخارى مشهور الحديث واستشهد به فى صحيحه واحتجّ به ابو داود النسائى الا انه قال مرّة اخرى ثقة لو لم يصنف كان خيرا له وقال فيه ابو محمّد بن حزم منكر الحديث ورواه الطبرانى فى معجمه الاوسط من رواية ابى الواصل عن عبد الحميد بن واصل عن ابى الصديق الناجى عن الحسن بن يزيد السعدى احد بنى بهدلة عن سعيد الخذرى قال رسول الله صلعم يقول يخرج رجل من امّتى بسنّتى ينزل الله عزّ وجل له القطر من السماء وتخرج له الارض من بركتها تملأ الارض منه قسطا وعدلا كما ملئت

جورا وظلما يعمل على هذه الامّة سبع سنين وينزل بيت المقدس وقال فيه الطبرانى رواه جماعة عن ابى الصديق ولم يدخل احد بينه وبين ابى سعيد احدا الا ابا الواصل فانه رواه عن الحسن بن يزيد عن ابىٔ سعيد انتهى وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن ابى حاتم ولم يعرّفه باكثر ممّا فى هذا الاسناد من روايته عن ابى سعيد ورواية ابى الصديق عنه وقال الذهبى فى الميزان انه مجهول لكن ذكره ابن حيان فى الثقات واما ابو الواصل الذى رواه عن ابى الصديق فلم يخرج له احد من الستّة وذكره ابن حيان فى الثقات فى الطبقة الثانية وقال فيه يروى عن انس. وروى عنه شعبة وعتاب بن بشير (وخرج) ابن ماجة فى كتاب السنن له عن عبد الله بن مسعود من طريق يزيد بن ابى زياد عن ابراهيم بن علقمة عن عبد الله قال بينما نحن عند رسول الله صلعم اذ اقبل فتية من بنى هاشم فلما راهم النبى صلم اغرورقت عيناه وتغيّر لونه قال فقلت ما نزال نرى فى وجهك شئا نكرهه قال انا اهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وان اهل بيتى سيلقون بعدى بلاء وتشريدا وتطريدا حتى ياتى قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون فينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها الى رجل من

اهل بيتى فيملأها قسطا كما ملاؤها جورا فمن ادرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبوا على الثلج انتهى وهذا الحديث يعرف عند المحدّثين بحديث الرايات ويزيد بن ابى زياد راويه قال فيه شعبة كان رفّاعا يعنى يرفع الاحاديث التى لا تعرف مرفوعة وقال محمّد بن فضيل كان من كبار ايمّة الشيعة وقال احمد بن حنبل لم يكن بالحافظ وقال مرّة حديثه ليس بذاك وقال يحيى بن معين ضعيف وقال العجلى جايز الحديث وكان بآخره يلقن وقال ابو زرعة لين يكتب حديثه ولا يحتجّ به وقال ابو حاتم ليس بالقوى وقال الجوزجانى سمعتهم يضعّفون حديثه وقال ابو داود لا اعلم احدا ترك حديثه وغيره احبّ الىّ منه وقال ابن عدى هو من شيعة اهل الكوفة ومع ضعفه يكتب حديثه وروى له مسلم لكن مقرونا بغيره وبالجملة فالاكثرون على ضعفه وقد صرّح الايمّة بتضعيف هذا الحديث الذى رواه عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله وهو حديث الرايات فقال وكيع بن الجراح فيه ليس بشئ وكذلك قال احمد بن حنبل وقال ابو قدامة سمعت ابا اسامة يقول فى حديث يزيد عن ابراهيم فى الرايات لو حلف عندى خمسين يمينا قسامة ما صدّقته اهذا مذهب ابراهيم اهذا مذهب علقمة اهذا مذهب عبد الله واورد العقيلى هذا الحديث

فى الضعفاء وقال الذهبى ليس بصحيح (وخرج) ابن ماجة عن على رضى الله عنه من رواية ياسين العجلى عن ابراهيم بن محمد بن الحنفية عن ابيه عن جدّه قال رسول الله صلعم المهدى منّا اهل البيت يصلحه الله فى ليلة وياسين العجلى وان قال فيه ابن معين ليس به بأس فقد قال البخارى فيه نظر وهذه اللفظة فى اصطلاحه قوية فى التضعيف جدّا واورد له ابن عدى فى الكامل والذهبى فى الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له وقال هو معروف به (وخرج) الطبرانى فى معجمه الاوسط عن على رضى الله عنه انه قال للنبى صلعم امنّا المهدى ام من غيرنا يا رسول الله قال بل منّا بنا يختم الله كما بنا فتح وبنا يستنقذون من الشرك وبنا يؤلف الله بين قلوبهم بعد عداوة بيّنة كما بنا الف بين قلوبهم بعد عدواة الشرك قال على رضى الله عنه امؤمنون ام كافرون قال مفتون وكافر انتهى وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال وفيه عمرو بن جابر الحضرمى وهو اضعف منه قال احمد بن حنبل روى عن جابر مناكير وبلغنى انه كان يكذب وقال النسائى ليس بثقة وقال ابن لهيعة كان شيخا احمق ضعيف العقل وكان يقول علىّ فى السحاب ويجلس معنا فيبصر سحابة فيقول هذا علىّ قد مرّ فى السحاب (وخرج)

الطبرانى ايضا عن على رضى الله عنه ان رسول الله صلعم
قال تكون فى آخر الزمان فتنة يحصل الناس فيها كما
يحصل الذهب فى المعدن فلا تسبّوا اهل الشام ولكن سبّوا
اشرارهم فان فيهم الابدال يوشك ان يرسل على اهل الشام
سبب من السماء فيفرق جماعتهم حتى لو قاتلتهم الثعالب
غلبتهم فعند ذلك يخرج خارج من اهل بيتى فى
ثلاث رايات المكثر يقول هم خمسة عشر الفا والمقلّل
يقول هم اثنا عشر الفا امارتهم امِت امت امت
يلقون سبع رايات تحت كل راية منها رجل
منهم يطلب الملك فيقتلهم الله جميعا ويردّ الله الى المسلمين
الفتهم ونعمتهم وقاصيهم ورايهم انتهى وفيه عبد الله بن
لهيعة وهو ضعيف معروف الحال ورواه الحاكم فى مستدركه
فقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه وفى روايته ثم يظهر
الهاشمى فيردّ الله الناس الى الفتهم الى آخره وليس فى طريق
ابن لهيعة وهو اسناد صحيح كما ذكر (وخرّج) الحاكم فى
المستدرك عن على رضى الله عنه من رواية ابى الطفيل
عن محمد بن الحنفية قال كنّا عند على رضى الله عنه فسأله
رجل عن المهدى فقال علىّ هيهات ثم عقد بيده سبعا
فقال ذاك يخرج فى آخر الزمان اذا قال الرجل الله الله
قتل فيجمع الله له قوما قزّع كقزع السحاب يؤلف الله

PROLÉGOMÈNES
d'Ebn-Khaldoun.

بين قلوبهم لا يستوحشون الى احد ولا يفرحون باحد دخل
فيهم على عدّة اصحاب بدر لم يسبقهم الاولون ولا يدركهم
الاخرون وعلى عدّة اصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر
قال ابو الطفيل قال ابن الحنفية اتريده قلت نعم قال فانه
يخرج من بين هذه الاخشبين قلت لا جرم والله لا اريمهما
حتى اموت فمات بها يعنى مكّة قال الحاكم هذا
حديث صحيح على شرط الشيخين انتهى وانّما هو على
شرط مسلم فقط فان فيه عمار الذهبى ويونس ابن ابى
اسحق ولم يخرج لهما البخارى وفيه عمرو ابن محمّد
العنقزى ولم يخرج له البخارى احتجاجا بل استشهادا مع ما
ينضمّ الى ذلك من تشيّع عمار الذهبى وهو وان وثقه
احمد وابن معين وابو حاتم والنسائى وغيرهم فقد قال على
بن المدينى عن سفيان ان بشير بن مروان قطع عرقوبيه
قلت فى ايّ شئ قال فى التشيّع (وخرّج) ابن ماجة عن
انس بن مالك رضى الله عنه من رواية سعد بن عبد
الحميد عن جعفر عن على بن زياد اليمامى عن عكرمة
بن عمار عن اسحق بن عبد الله عن انس قال سمعت
رسول الله صلعم يقول نحن ولد عبد المطلب سادة اهل الجنّة
انا وحمزة وعلى وجعفر والحسن والحسين والمهدى انتهى
وعكرمة بن عمار وان اخرج له مسلم فانما اخرج له متابعة

وقد ضعّفه بعض ووثّقه اخرون وقال ابو حاتم الرازى هو مدلس فلا يقبل الّا ان يصرح بالسماع وعلى بن زياد قال الذهبى فى الميزان لايدرى من هو ثم قال الصواب فيه عبد الله بن زياد وسعد بن عبد الحميد وان وثقه يعقوب بن شيبة وقال فيه يحيى بن معين ليس به بأس فقد تكلّم فيه الثورى قالوا لانه راءه يفتى فى مسائل ويخطئ فيها وقال ابن حيان كان ممّن فحش خطاؤه فلا يحتجّ به وقال احمد بن حنبل سعد بن عبد الحميد يدّعى انه سمع عرض كتب مالك والناس ينكرون عليه ذلك وهو هاهنا ببغداذ لم يحجّ فكيف سمعها وجعله الذهبى ممّن لم يقدح فيه كلام من تكلّم فيه (وخرّج الحاكم فى مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفا عليه قال مجاهد قال لى عبد الله بن عباس لو لم اسمع انّك مثل اهل البيت ما حدّثتك بهذا الحديث قال فقال مجاهد فانه فى ستر لا اذكره لمن تكره قال فقال ابن عباس منّا اهل البيت اربعة منّا السفّاح ومنّا المنذر ومنّا المنصور ومنّا المهدى قال فقال مجاهد بيّن لى هولاء الاربعة فقال اما السفّاح فربّما قتل انصاره وعفى عن عدوّه وامّا المنذر اراه قال فانه يعطى المال الكثير ولا يتعاظم فى نفسه ويمسك القليل من حقّه واما المنصور فانه يعطى النصر على عدوّه الشطر مما كان يعطى رسول الله صلعم يرعب منه

عدوّه على مسيرة شهرين والمنصور يرعب منه عدوّه على مسيرة شهر واما المهدى الذى يملأ الارض عدلا كما ملئت جورا وتأمن البهائم والسباع وتلقى الارض افلاذ كبدها قال قلت وما افلاذ كبدها قال امثال الاسطوانة من الذهب والفضّة انتهى وقال الحاكم هذا الحديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وهو من رواية اسمعيل بن ابراهيم بن مهاجر عن ابيه واسمعيل ضعيف وابوه ابراهيم وان خرج له مسلم فالاكثرون على تضعيفه (وخرج) ابن ماجة عن ثوبان قال قال رسول الله صلعم يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا تصير الى واحد منهم ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونكم قتلا لم يقتله قوم ثم ذكر شئا لا احفظه فقال فاذا رايتموه فبايعوه ولو حبوا على الثلج فانه خليفة الله المهدى انتهى ورجاله رجال الصحيح الا ان فيه ابا قلابة الجرمى وذكر الذهبى وغيره انه مدلس وفيه سفيان الثورى وهو مشهور بالتدليس وكل واحد منهما عنعن ولم يصرح بالسماع فلا يقبل وفيه عبد الرزّاق ابن همام وكان مشهورا بالتشيّع وعمى فى آخر عمره وخلط قال ابن عدى حدّث باحاديث فى الفضائل لم يوافقه عليها احد ونسبوه الى التشيّع انتهى (وخرج) ابن ماجة عن عبد الله بن الحارث ابن جزء الزبيدى من طريق ابن لهيعة عن ابى

زرعة عمرو بن جابر الحضرمى عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال قال رسول الله صلعم يخرج ناس من المشرق فيوطّئون للمهدى يعنى سلطانه قال الطبرانى تفرّد به ابن لهيعة وقد تقدّم لنا فى حديث على الذى خرجه الطبرانى فى معجمه الاوسط ان ابن لهيعة ضعيف وان شيخه عمرو بن جابر اضعف منه (وخرج) البزار فى مسنده والطبرانى فى معجمه الاوسط واللفظ للطبرانى عن ابى هريرة عن النبى صلعم قال يكون فى امّتى المهدى ان قصّر فسبع والّا فثمان والّا فتسع ينعم امّتى فيها نعمة لم ينعموا بمثلها ترسل السماء عليهم مدرارا ولا تذخر الارض شئا من النبات والمال كدوس يقوم الرجل يقول يا مهدى اعطنى فيقول خذ قال الطبرانى والبزار تفرّد به محمد بن مروان العجلى زاد البزار ولا يعلم تابعه عليه احد وهو وان وثّقه ابو داود وابن حيان بما ذكره فى الثقات وقال فيه يحيى بن معين صالح وقال مرّة ليس به بأس فقد اختلفوا فيه وقال ابو زرعة ليس عندى بذاك وقال عبد الله بن احمد بن حنبل رايت محمد بن مروان العقيلى وحدّث باحاديث وانا شاهد لم اكتبها تركتها على عمد وكتب بعض اصحابنا عنه كانه ضعّفه (وخرج) ابو يعلى الموصلى فى مسنده عن ابى هريرة قال حدّثنى خليلى ابو القاسم صلعم قال

لا تقوم الساعة حتى يخرج عليهم رجل من اهل بيتى
فيضربهم حتى يرجعوا الى الحقّ قال قلت وكم يملك
قال خمس واثنتين قال قلت ما خمس واثنتين قال لا ادرى
انتهى وهذا السند وان كان فيه بشير بن نهيك وقال فيه
ابو حاتم لا يحتجّ به فقد احتجّ به الشيخان ووثّقه الناس
ولم يلتفتوا الى قول ابى حاتم لا يحتجّ به الا ان فيه مرجا
بن رجا اليشكرى وهو مختلف فيه قال ابو زرعة ثقة
وقال يحيى بن معين ضعيف وقال مرّة صالح وعلق له
البخارى فى صحيحه حديثا (1) واحدا (وخرج) ابو بكر البزار
فى مسنده والطبرانى فى معجمه الكبير والاوسط عن قرّة
بن اياس قال قال رسول الله صلعم لتملأنّ الارض جورا
وظلما فاذا ملئت جورا وظلما بعث الله رجلا منّى اسمه
اسمى واسم ابيه اسم ابى يملأها عدلا وقسطا كما ملئت
جورا وظلما فلا تمنع السماء شئا من قطرها ولا الارض شئا
من نباتها يلبث فيكم سبعا او ثمانيا او تسعا يعنى سنين
انتهى وفيه داود بن المحبّر بن قحذم عن ابيه وهما
ضعيفان جدّا (وخرج) الطبرانى فى معجمه الاوسط عن امّ
حبيبة قالت سمعت رسول الله صلعم يقول يخرج ناس من
قبل المشرق يريدون رجلا عند البيت حتى اذا كانوا ببيداء

(1) Man. A. et B. C. حذما, جذما.

من الارض خسف بهم فيلحق بهم من تخلّف فيصيبهم ما
اصابهم قلت يا رسول الله كيف بمن كان اخرج مستكرها
قال يصيبهم ما اصاب الناس ثم يبعث الله كل امرء على
نيته انتهى وفيه سلمة بن الابرش وهو ضعيف وفيه محمد بن
اسحق وهو مدلس وقد عنعن ولا يقبل الا ان يصرح
بالسماع (وخرج) الطبرانى فى معجمه الاوسط عن ابى عمر
قال كان رسول الله صلعم فى نفر من المهاجرين والانصار
على بن ابى طالب عن يساره والعباس عن يمينه اذ تلاحى
العباس ورجل من الانصار فاغلظ الانصارى للعباس فاخذ
النبى صلعم بيد العباس ويد على فقال سيخرج من صلب
هذا حتى تملأ الارض جورا وظلما وسيخرج من صلب هذا
حتى تملأ الارض قسطا وعدلا فاذا رايتم ذلك فعليكم بالفتى
التميمى فانه يقبل من قبل المشرق وهو صاحب راية
المهدى انتهى وفيه عبد الله بن عمر العمرى وعبد الله بن
لهيعة وهما ضعيفان انتهى وخرج) الطبرانى فى معجمه
الاوسط عن طلحة بن عبيد الله عن النبى صلعم قال
ستكون فتنة لا يهدأ منها جانب الا جاش منها جانب
حتى ينادى منادٍ من السماء ان اميركم فلان انتهى
وفيه المثنى ابن السباح وهو ضعيف جدّا وليس فى الحديث
تصريح بذكر المهدى وانّما ذكروه فى ابوابه وترجمته

استيناسا هذه جملة الاحاديث التى خرّجها الايمّة فى شأن المهدى وخروجه آخر الزمان وهى كما رايت ولم يخلص منها على النقد الا القليل او الاقلّ منه (وربّما) تمسّك المنكرون لشأنه بما رواه محمد بن خالد الجندى عن ابان بن صالح عن ابى عياش عن الحسن البصرى عن انس بن مالك عن النبى صلعم انه قال لا مهدى الا عيسى بن مريم وقال يحيى بن معين فى محمد بن خالد الجندى انه ثقة وقال البيهقى تفرّد به محمد بن خالد وقال الحاكم فيه انه رجل مجهول واختلف عليه فى اسناده فمرّة يروونه كما تقدّم ونسب ذلك الى محمد بن ادريس الشافعى ومرّة يروى عن محمد بن خالد عن ابان عن الحسن عن النبى صلعم مرسلا قال البيهقى فرجع الى رواية محمد بن خالد وهو مجهول عن ابان عن ابى عياش وهو متروك عن الحسن عن النبى صلعم وهو منقطع وبالجملة فالحديث ضعيف مضطرب وقد قيل ان معنى لا مهدى الا عيسى اى لا يتكلم فى المهدى الا عيسى يحاولون بهذا التأويل ردّ الاحتجاج به او الجمع بينه وبين الاحاديث وهو مدفوع بحديث جريج ومثله من الخوارق (واما المتصوّفة) فلم يكن المتقدمون منهم يخوضون فى شئ من هذا وانّما كان كلامهم فى المجاهدة بالاعمال وما يحصل عنها من

نتائج المواجد والاحوال وكان كلام الامامية والرافضة من الشيعة فى تفضيل على رضى الله عنه والقول بامامته وادّعاء الوصيّة له بذلك من النبى صلعم والتبرّئ من الشيخين كما ذكرناه فى مذاهبهم ثم حدث فيهم من بعد ذلك القول بالامام المعصوم وكثرت التواليف فى مذاهبهم (وجاء) الاسماعيليّة منهم يدّعون الوهيّة الامام بنوع الحلول واخرون يدّعون رجعة من مات من الايمّة بنوع التناسخ او الحقيقة واخرون ينتظرون مجئ من يقطع بموته منهم واخرون ينتظرون عود الامر فى اهل البيت مستدلّين على ذلك بما قدّمناه من احاديث المهدى وغيرها (ثم) حدث ايضا عند المتاخّرين من المتصوّفة الكلام فى الكشف وفيما وراء حجاب الحسّ وظهر من كثير منهم القول على الاطلاق بالحلول والوحدة فشاركوا فيها الاماميّة والرافضة لقولهم بالوهيّة الايمّة او حلول الاله فيهم وظهر منهم القول بالقطب والابدال وكانّه يحاكى مذهب الرافضة فى الامام والنقباء واشربوا اقوال الشيعة وتوغّلوا فى الديانة بمذاهبهم حتى لقد جعلوا مستند طريقتهم فى لباس الخرقة ان عليّا رضى الله عنه البسها الحسن البصرى واخذ عليه العهد بالتزام الطريقة واتّصل ذلك عندهم بالجنيد من شيوخهم ولا يعلم هذا عن علىّ من وجه صحيح ولم تكن هذه الطريقة خاصّة بعلىّ كرم الله

وجهه بل الصحابة كلهم اسوة فى طريق الدين وفى تخصيص هذا بعلىّ دونهم رايحة من التشيّع قويّة تفهم منها ومن غيرها ممّا تقدّم دخولهم فى التشيّع وانخراطهم فى سلكه فامتلأت كتب الاسماعيليّة من الرافضة وكتب المتأخّرين من المتصوّفة بمثل ذلك فى الفاطمى المنتظر وكان بعضهم يمليه على بعض ويلقنه بعض عن بعض وكله مبنىّ على اصول واهية من الفريقين وربّما يستند بعضهم فى ذلك الى كلام المنجمين فى القرانات وهو من نوع الكلام فى الملاحم ويأتى الكلام عليها فى الباب الذى يلى هذا واكثر من تكلّم من هولاء المتصوّفة المتاخّرين فى شأن الفاطمى ابن العربى الحاتمى فى كتاب عنقاء مغرب وابن قسى فى كتاب خلع النعلين وعبد الحقّ ابن سبعين وابن ابى واطيل من تلاميذه فى شرحه لكتاب خلع النعلين واكثر كلماتهم فى شأنه الغاز وامثال وربّما يصرّحون فى الاقل او يصرّح مفسرو كلامهم وحاصل مذهبهم فيه على ما ذكر ابن ابى واطيل ان النبوة بها ظهر الحقّ والهدى بعد الضلال والعمى وانّها تعقبها الخلافة ثم يعقب الخلافة الملك ثم يعود تجبّرا وتكبّرا وباطلا قالوا ولما كان فى المعهود من سنّة الله رجوع الامور الى ما كانت وجب ان يحيى امر النبوة والحقّ بالولاية ثم بخلافتها ثم يعقبها الدجل مكان الملك

والتسلّط ثم يعود الكفر بحاله كما كان قبل النبوة يشيرون بهذا الى ما وقع بعد النبوة من الخلافة ثم من بعدها الملك وهى ثلاث مراتب فكذلك ايضا الولاية التى لهذا الفاطمى الذى يحيى امر النبوة والحقّ ثم خلافة امره بعده ثم الدجل بعدها وهو الباطل الذى كنى عنه بخروج الدجّال فهى ثلاث مراتب على نسبة الثلاث مراتب الاولى ثم يعود الكفر كما كان قبل النبوة (قالوا) ولما كان امر الخلافة لقريش حكما شرعيّا بالاجماع الذى لا يوهنه انكار من لم يزاول علمه وجب ان تكون الامامة فيمن هو اخصّ من قريش بالنبى صلعم اما ظاهرا فكبنى عبد المطلب واما باطنا فممّن كان من حقيقة الآل والآل هم من اذا حضر لم يغب من هو آله وابن العربى الحاتمى سمّاه فى كتاب عنقاء مغرب من تأليفه خاتم الاولياء ويكنى عنه بلبنة الفضّة اشارة الى حديث البخارى فى باب خاتم النبيين قال صلعم مثلى فيمن قبلى من الانبياء كمثل رجل ابتنى بيتا واكمله حتى اذا لم يبق منه الا موضع لبنة فانا تلك اللبنة فيفسرون خاتم النبيين باللبنة التى اكملت البنيان ومعناه النبى الذى حصلت له النبوة الكاملة ويمثلون الولاية فى تفاوت مراتبها بالنبوة ويجعلون صاحب الكمال فيها خاتما للاولياء اى جائزا للمرتبة التى هى خاتمة الولاية كما كان خاتم الانبياء

جائزا للمرتبة التى هى خاتمة النبوة ولما كنى الشارع عن تلك المرتبة الخاتمة بلبنة البيت فى الحديث المذكور وهى على نسبة واحدة فيهما فهى لبنة واحدة فى التمثيل ففى النبوة لبنة ذهب وفى الولاية لبنة فضّة للتفاوت بين المرتبتين كما بين الذهب والفضّة فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبى صلعم ولبنة الفضّة كناية عن هذا الولىّ الفاطمىّ المنتظر ذاك خاتم الانبياء وهذا خاتم الاولياء (وقال) ابن العربى فيما نقل ابن ابى واطيل عنه وهذا الامام المنتظر من اهل البيت من ولد فاطمة وظهوره يكون بعد مضى خ ف ج من الهجرة ورسم حروفا ثلاثة يريد عددها بحساب الجمل وهى الخاء المعجمة بواحدة من فوق بستماية والفاء اخت القاف بثمانين والجيم المعجمة بواحدة من اسفل بثلاثة وذلك ستماية وثلاثة وثمانون سنة وهو آخر القرن السابع ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر حمل ذلك بعض المقلّدين لهم على ان المراد بتلك المدّة مولده وعبّر بظهوره عن مولده وان خروجه يكون عند العشر والسبعماية وانه الامام الناجم من ناحية المغرب قال واذا كان مولده كما زعم ابن العربى سنة ثلاث وثمانين وستّماية فيكون عمره عند خروجه ستّا وعشرين سنة قال وزعموا ان خروج الدجّال يكون سنة ثلاث واربعين وسبعماية من اليوم المحمدىّ وابتداء اليوم

المهدى عندهم من يوم وفاة النبى صلعم الى تمام الف
سنة (وقال) ابن ابى واطيل فى شرحه كتاب خلع النعلين
الولىّ المنتظر القائم بامر الله المشار اليه بمحمد المهدى
وخاتم الاولياء وليس هو بنبى وانّما هو ولىّ ابتعثه روحه وحبيبه
قال صلعم العالم فى قومه كالنبى فى امّته وقال علماء امّتى
كانبياء بنى اسرائيل (ولم) تزل البشرى تتتابع به من اول
اليوم المحمدى الى قبيل الخمسماية نصف اليوم وتاكّدت
وتضاعفت بتباشير المشائخ بتقريب وقته وازدلاف زمانه
منذ انقضت الى هلمّ جرّا (قال) وذكر الكندى ان هذا
الولىّ هو الذى يصلّى بالناس صلوة الظهر ويجدّد الاسلام
ويظهر العدل ويفتح جزيرة الاندلس ويصل الى رومة
فيفتحها ويسير الى المشرق فيفتحه ويفتح قسطنطينية ويصير
له ملك الارض فيتقوّى المسلمون ويعلو الاسلام ويظهر دين
الحنيفيّة فان من صلوة الظهر الى صلوة العصر وقت صلوة
قال عليه السلام ما بين هذين وقت وقال الكندى ايضا
الحروف العربيّة غير المعجمة يعنى المفتتح بها سور القران
جملة عددها بحساب الجمل سبعماية وثلاثة واربعون وسبعة
دجاليّة ثم ينزل عيسى فى وقت صلوة العصر فيصلح الدنيا
وتمشى الشاة مع الذئب ثم مبلغ ملك العجم بعد اسلامهم
مع عيسى ماية وستّون عاما عدد الحروف المعجمة وهى

ق ى ن دولة العدل منها اربعون عاما (قال) ابن ابى واطيل وما ورد من قوله لا مهدى الّا عيسى فمعناه لا مهدى يساوى هدايته وقيل لا يتكلّم فى المهدى الّا عيسى وهذا مدفوع بحديث جريح وغيره وقد جاء فى الصحيح انه قال لا يزال هذا الامر قائما حتى تقوم الساعة او يكون عليهم اثنى عشر خليفة يعنى قرشيا وقد اعطى الوجود ان منهم من كان فى اول الاسلام ومنهم من سيكون فى آخره وقال الخلافة بعدى ثلاثون او احدى وثلاثون او ستّة وثلاثون وانقضاوها فى خلافة الحسن واول امر معاوية فيكون اول امر معاوية خلافة اخذا باوائل الاسماء فهو سادس الخلفاء وامّا سابع الخلفاء فعمر بن عبد العزيز ثم الباقون خمسة من اهل البيت من ذرّيّة علىّ يؤيّده قوله انّك لذو قرينها يريد الامّة اى انّك خليفة فى اولها وذرّيّتك فى آخرها وربّما استدلّ بهذا الحديث القائلون بالرجعة فالاول هو المشار اليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها وقد قال صلعم اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله وقد انفق عمر بن الخطاب كنوز كسرى فى سبيل الله والذى يهلك قيصر وينفق كنوزه فى سبيل الله هذا هو المنتظر حين تفتح القسطنطينية فنعم الامير اميرها

ونعم الجيش ذلك الجيش كذا قال صلعم ومدّة حكمه
بضع والبضع من ثلاث الى تسع وقيل الى عشر وجاء ذكر
اربعين وفى بعض الروايات سبعين واما الاربعون فانها
مدّته ومدّة الخلفاء الاربعة الباقين من اهله القائمين بامره
من بعده عليهم جميعهم السلام (قال) وذكر اصحاب النجوم
والقرانات ان مدّة بقاء امره واهل بيته من بعده ماية
وتسعة وخمسون عاما فيكون الامر على هذا جاريا
على الخلافة والعدل اربعين او سبعين ثم تختلف الاحوال
فيكون ملك انتهى كلام ابى واطيل (وقال) فى موضع
اخر نزول عيسى يكون فى وقت صلاة العصر فى اليوم
المحمدى حين يمضى ثلاثة ارباعه (قال) وذكر الكندى
يعقوب بن اسحق فى كتاب الجفر الذى ذكر فيه القرانات
انه اذا وصل القران الى الثور على راس ضح بحرفى
الضاد المعجمة والحاء المهملة يريد ثمانية وتسعين وستّماية
من الهجرة ينزل المسيح فيحكم فى الارض ما شاء الله قال
وقد ورد فى الحديث ان عيسى ينزل عند المنارة البيضاء
شرقى دمشق ينزل بين مهرودتين يعنى حلّتين مزعفرتين
صفراوتين ممصّرتين واضعا كفّيه على اجنحة الملكين له لمّة كانّما
اخرج من ديماس اذا طأطأ راسه قطر واذا رفعه تحدر منه
جمان كاللؤلؤ كثير خيلان الوجه وفى حديث اخر مربوع

الخلق والى البياض والحمرة وفى اخر انه يتزوّج بالغرب والغرب دلو البادية يريد انه يتزوّج منها وتلد زوجته وذكر وفاته بعد اربعين عاما وجاء ان عيسى يموت بالمدينة ويدفن الى جانب عمر بن الخطاب وجاء ان ابا بكر وعمر يحشران من بين نبيين (قال) ابن ابى واطيل والشيعة تقول انه هو المسيح مسيح المسايح من آل محمد وعليه حمل بعضهم حديث لا مهدى الّا عيسى اى لا يكون مهدى الا المهدى الذى نسبته الى الشريعة المحمدّية نسبة عيسى الى الشريعة الموسويّة فى الاتباع وعدم النسخ الى كلام من امثال هذا كثير يعينون (1) فيه الوقت والرجل والمكان فينقضى الزمان ولا اثر لشئ من ذلك فيرجعون الى تجديد راى اخر منتحل كما تراه من مفهومات لغويّة واشياء تخييليّة واحكام نجوميّة فى هذا انقضت اعمار الاول منهم والآخر (واما المتصوّفة) الذين عاصرناهم فاكثرهم يشيرون الى ظهور رجل مجدّد لاحكام الملّة ومراسم الحقّ ويتحيّنون ظهوره لما قرب من عصرنا فبعضهم يقول من ولد فاطمة وبعضهم يطلق القول فيه سمعناه عن جماعة اكبرهم ابو يعقوب البادسىّ كبير الاولياء بالمغرب كان فى اول هذه المائة الثامنة واخبرنى بذلك حافده ابو زكريا يحيى عن

(1) M. A. B. D. يعنون.

ابيه ابى محمّد عبد الله الولىّ عن ابيه ابى يعقوب المذكور (هذا) آخر ما اطّلعنا عليه او بلغنا من كلام هولاء المتصوّفة وما اورده اهل الحديث من اخبار المهدى قد استوفينا جميعه بمبلغ طاقتنا (والحقّ) الذى ينبغى ان يتقرّر لديك انه لا تتمّ دعوة من الدين او الملك الّا بوجود شوكة وعصبيّة تظهره تدافع عنه من يدفعه حتّى يتمّ امر الله فيه وقد قرّرنا ذلك من قبل بالبراهين الطبيعيّة التى اريناكها هناك وعصبيّة الفاطميّين والطالبيّين بل وقريش اجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد امم اخرون استعلت عصبيّتهم على عصبيّة قريش الا ما بقى بالحجاز فى مكّة والينبع والمدينة من الطالبيّين بنى حسن وبنى حسين وبنى جعفر منتشرون فى تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب بدويّة مفترقون فى مواطنهم وامارتهم وارائهم يبلغون الآلاف من الكثرة فان صحّ ظهور هذا المهدى فلا وجه لظهور دعوته الا بان يكون منهم ويؤلّف الله بين قلوبهم فى اتباعه حتى تتمّ له شوكة وعصبيّة وافية باظهار كلمته وحمل الناس عليها واما غير هذا الوجه مثل ان يدعو الناس فاطمىّ منهم الى مثل ذلك الامر فى افق من آفاق الارض من غير عصبيّة ولا شوكة الا مجرّد نسبه فى اهل البيت فلا يتمّ ذلك ولا يتمكّن لما اسلفناه من البراهين الصحيحة (فاما) ما تدّعيه العامّة

والاغمار من الدهماء ممن لا يرجع فى ذلك الى عقل يهديه ولا علم يفيده (1) فيتحيّنون ذلك على غير نسبة وفى غير مكان تقليدا لما اشتهر من ظهور رجل فاطمىّ ولا يعلمون حقيقة الامر فيه كما بيّنّاه واكثر ما يتحيّنونه فى القاصية من الممالك واطراف العمران مثل الزاب بافريقية والسوس من المغرب وتجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطا بماسة من ارض السوس يتحيّنون هنالك لقاه زعما منهم انه يظهر بذلك الرباط وانه يبايع هنالك ولما كان ذلك الرباط بالقرب من الملثّمين من كدالة واعتقادهم انه منهم او قائمون بدعوته مزعما لا مستند له الا غرابة تلك الامم وبعدهم عن يقين المعرفة باحوالها من كثرة او قلّة او ضعف او قوة ولبعد القاصية عن منال الدول وخروجها عن نطاقها فتقوى عندهم الاوهام فى ظهوره هنالك لخروجه عن ربقة الدول ومنال الاحكام والقهر ولا محصول لديهم فى ذلك الّا هذا ولقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة تمنيه النفس تمامها وسواسا وحمقا وقتل كثير منهم اخبرنى شيخنا محمد بن ابراهيم الابلى قال خرج برباط ماسة لاول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلى التصوّف يعرف بالتويزرىّ نسبة

(1) Man. C. D. يقيّده.

الى توزر مصغّرا وادّعى انه الفاطمى المنتظر واتبعه الكثير من اهل السوس من صناكة وكذولة وعظم امره وكاد يستفحل وخافه رؤساء المصامدة على امرهم فدسّ عليه السكيسوى (1) من قتله بياتا وانحلّ امره وكذلك ظهر فى غمارة فى آخر المائة السابعة ولعشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادّعى انه الفاطمى واتبعه الدهماء من غمارة ودخل مدينة بادس عنوة وحرق اسواقها وارتحل الى بلد المزمة فقتل بها غيلة ولم يتمّ امره وكثير من هذا النمط (واخبرنى) شيخنا المذكور بغريبة فى مثل هذا وهو انه صحب فى حجّه من رباط العباد وهو مدفن الشيخ ابى مدين فى جبل تلمسان المطلّ عليها رجلا من اهل البيت من سكّان كربلا كان متبوعا معظما كثير التلميذ والخادم قال وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات فى اكثر البلدان قال وتأكّدت الصحبة بيننا فى تلك الطريق فانكشف لى امرهم وانهم انّما جاؤا من موطنهم بكربلا لطلب هذا الامر وانتحال دعوة الفاطمى بالمغرب فلما عاين دولة بنى مرين ويوسف بن يعقوب يومئذ منازل تلمسان قال لاصحابه ارجعوا فقد ازرى بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا ويدلّ هذا القول من هذا الرجل على انه مستبصر فى ان الامر

(1) Man. C. السكسيوى. D. السكسيوى.

لا يتمّ الا بالعصبيّة المكافية لاهل الوقت فلما علم انه غريب في ذلك الوطن ولا شوكة له وان عصبيّة بنى مرين لذلك العهد لا يقاومها احد من اهل المغرب استكان ورجع الى الحقّ واقصر عن مطامعه وبقى عليه ان يستيقن ان عصبيّة الفواطم وقريش اجمع قد ذهبت لا سيما في المغرب الا ان التعصّب لشأنه لم يتركه لهذه القول والله يعلم وانتم لا تعلمون (وقد) كانت بالمغرب لهذا العصور القريبة وفي العرب من سكّانه نزعة من الدعاء الى الحقّ والقيام بالسنّة لا ينتحلون فيها دعوة فاطمى ولا غيره وانّما ينزع منهم في بعض الاحيان الواحد فالواحد الى اقامة السنّة وتغيير المنكر ويعتنى بذلك ويكثر تابعه واكثر ما يعنون باصلاح السابلة لما ان كثر من فساد الاعراب فيها لما قدّمناه من طبيعة معاشهم فياخذون انفسهم في تغيير المنكر باصلاح السابلة ما استطاعوا الا ان الصبغة الدينيّة فيهم لا تستحكم لما ان توبة العرب ورجوعهم الى الدين انّما يقصدون بها الاقصار عن الغارة والنهب لا يعقلون في توبتهم واقبالهم على مناحى الديانة غير ذلك لانّها المعصية التى كانوا عليها قبل التوبة ومنها توبتهم فتجد تابع ذلك المنتحل للدعوة والقائم بزعمه بالسنّة غير متعمقين في فروع الاقتداء والاتباع انّما دينهم الاعراض عن النهب والبغى

وافساد السابلة ثم الاقبال على طلب الدنيا والمعاش باقصى جهدهم وشتّان بين طلب هذا الامر من صلاح الخلق وبين طلب الدنيا فاتّفاقهما ممتنع فلا تستحكم لهم صبغة فى الدين ولا يكمل لهم نزوع عن الباطل على الجملة ولا يكثرون ويختلف حال صاحب الدعوة منهم فى استحكام دينه وولايته فى نفسه دون تابعه فاذا هلك انحلّ امرهم وتلاشت عصبيّتهم وقد وقع ذلك بافريقية لرجل من بنى كعب من سُليم يسمى قاسم بن مرا بن احمد فى المائة السابعة ثم من بعده لرجل اخر من بادية رياح من بطن منهم يعرفون بمسلم وكان يسمى سعادة وكان اشدّ دينا من الاول واقوم طريقة فى نفسه ومع ذلك فلم يستتب امر تابعه لما ذكرناه حسبما يأتى ذكر ذلك فى موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح ومن بعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يتشبّهون بمثل ذلك ويلبسون فيه وينتحلون اسم السنّة وليسوا عليها الّا الاقلّ فلا يتمّ لهم ولا لمن بعدهم شئ من امرهم سنّة الله فى عباده

فصل فى حدثان الدول والامم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمّى الجفر

اعلم ان من خواصّ النفوس البشريّة التشوّف الى عواقب

امورهم وعلم ما سيحدث لهم من حياة او موت او خير او شرّ سيّما الحوادث العامّة كمعرفة ما بقى من الدنيا او معرفة مدد الدول وبقائها فالتطلّع الى هذا طبيعة للبشر مجبولون عليها ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوّفون الى الوقوف على ذلك فى المنام والاخبار عن الكهّان فى قصدهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة معروفة ولقد نجد فى المدن صنفا من الناس ينتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه فينتصبون لهم فى الطرقات والدكاكين يتعرّضون لمن يسأل عنه فيغدو عليهم ويروح نسوان المدينة وصبيانها بل وكثير من ضعفاء العقول يستكشفون عواقب امورهم فى الكسب والجاه والعشرة والعداوة وامثال ذلك ما بين خطّ فى الرمل ويسمّونه المنجم وطرق بالحصا والحبوب ويسمّونه الحاسب ونظر فى المرايا والمياه ويسمّونه ضارب المندل وهو من المنكرات الفاشية فى الامصار لما تقرّر فى الشريعة من ذمّ ذلك وان البشر محجوبون عن الغيب الا من اطلعه الله عليه من عنده فى نوم او بولاية واكثر ما يعتنى بذلك ويتطلّع اليه الملوك والامراء فى اماد دولهم ولذلك انصرفت العناية من اهل العلم اليه وكل امّة من الامم فيوجد لهم الكلام من كاهن او منجم او ولى فى مثل ذلك من ملك يرتقبونه او دولة يحدّثون

انفسهم بها وما سيحدث لهم مع الامم من الحروب والملاحم ومدّة بقاء الدولة وعدد الملوك فيها والتعرّض لاسمائهم ويسمى مثل هذا الحدثان (وكان) فى العرب الكهّان والعرّافون يرجعون اليهم فى ذلك وقد اخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدولة كما وقع لشقّ وسطيح فى تأويل روياء ربيعة بن نصر من ملوك اليمن اخبرهم بملك الحبشة بلادهم ثم رجوعها اليهم ثم ظهور الملّة والدولة للعرب من بعد ذلك وكذا تأويل سطيح لروياء الموبذان بعث اليه بها كسرى مع عبد المسيح واخبره بظهور الدولة للعرب وكذا كان فى جيل البربر كهّان وكان من اشهرهم موسى بن صالح من بنى يفرن ويقال من غمرت وله كلمات حدثانيّة على طريقة الشعر برطانتهم وفيها حدثان كثير ومعظمه فيما يكون لزناتة من الملك والدولة بالمغرب وهى متداولة بين اهل الجيل وهم يزعمون تارة انه ولىّ وتارة انه كاهن وقد يزعمون فى بعض مزاعمهم انه كان نبيا تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير والله اعلم (وقد) يستند الجيل فى ذلك الى خبر الانبياء ان كانوا لعهدهم كما وقع لبنى اسرائيل فان انبياءهم المتعاقبين فيهم كانوا يخبرونهم بمثله عندما يتعنّتون فى السؤال عنه واما فى الدولة الاسلاميّة فوقع منهم كثير

فيما يرجع الى بقاء الدنيا ومدّتها على العموم وفيها يرجع الى الدول واعمارها على الخصوص وكان المعتهد فى ذلك صدر الاسلام آثار منقولة عن الصحابة وخصوصا مسلمة بنى اسرائيل مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وامثالهما وربّما اقتبسوا بعض ذلك من ظواهر مأثورة وتأويلات محتملة ووقع لجعفر الصادق وامثاله من اهل البيت كثير من ذلك مستندهم فيه والله اعلم الكشف بما كانوا عليه من الولاية واذا كان مثله لا ينكر من غيرهم من الاولياء فى ذويهم واعقابهم وقد قال صلعم ان فيكم محدثين فهم اولى الناس بمثل هذه الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة واما بعد صدر الملّة وحين عكف الناس على العلوم والاصطلاحات وترجمت كتب الحكماء الى اللسان العربى فاكثر معتمدهم فى ذلك كلام المنجمين ففى الملك والدول وسائر الامور العامّة من القرانات وفى المواليد والمسائل وسائر الامور الخاصّة من الطوالع لها وهى شكل الفلك عند حدوثها (فلنذكر) الآن ما وقع لاهل الاثر فى ذلك ثم نرجع الى كلام المنجمين (امّا اهل الاثر) فلهم فى مدّة الملّة وبقاء الدنيا ما وقع فى كتاب السهيلى فانه نقل عن الطبرى ما يقتضى ان مدّة بقاء الدنيا منذ الملّة خمسماية سنة ونقض ذلك بظهور كذبه ومستند الطبرى فى ذلك

انه نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما ان الدنيا جمعة من جمع الآخرة ولم يذكر لذلك دليلا وسرّه والله اعلم تقدير الدنيا بايام خلق السموات والارض وهى سبعة ثم اليوم بالف سنة لقوله تعالى وان يوما عند ربّك كالف سنة مما تعدّون قال وقد ثبت فى الصحيح انه صلعم قال اجلكم فى اجل من كان قبلكم من صلاة العصر الى غروب الشمس وقال بعثت انا والساعة كهاتين واشار بالسبابة والوسطى وقدر ما بين صلاة العصر وغروب الشمس عند صيرورة ظلّ كل شئ مثليه يكون على التقريب نصف سبع وذلك فضل الوسطى على السبّابة فتكون هذه المدّة نصف سبع الجمعة كلها وهى خمسماية سنة ويؤيّده قوله صلعم لن يعجز الله ان يؤخّر هذه الامّة نصف يوم فدلّ ذلك على ان مدّة الدنيا قبل الملّة خمسة آلاف سنة وخمسماية سنة وعن وهب بن منبه انها خمسة آلاف وستماية اعنى الماضى وعن كعب ووهب ان مدّة الدنيا ستّة آلاف سنة ثم قال السهيلى وليس فى الحديثين ما يشهد بشئ مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه فاما قوله لن يعجز الله ان يؤخّر هذه الامّة نصف يوم فلا يقتضى نفى الزيادة على النصف واما قوله بعثت انا والساعة كهاتين فانّما فيه الاشارة الى القرب وانه ليس بينه وبين الساعة نبى غيره ولا شرع

غير شرعه ثم رجع السهيلى الى تعيين امد الهدّة من
مدرك اخر لو ساعده التحقيق وهو ان جمع الحروف المقطّعة
فى اوائل السور بعد حذف المتكرّر قال وهى اربعة
عشر حرفا يجمعها قولك الم يسطع نص حق كره فاخذ
عددها بحساب الجمل فكان سبعماية (1) وثلاثة تضاف الى
المقتضى من الالف الاخيرة قبل بعثته فهذه هى مدّة الملّة
ولا يبعد ان يكون ذلك من مقتضيات هذه الحروف
وفوائدها (قلت) وكونه لا يبعد لا يقتضى ظهوره ولا التعويل
عليه والذى حمل السهيلى على ذلك انّما هو ما وقع فى
كتاب السير لابن اسحق فى حديث ابنى اخطب من
احبار اليهود وهو ابو ياسر واخوه حيى حين سمعا الم من
هذه الحروف المقطّعة وتاوّلاها على بيان المدّة بهذا الحساب
فبلغت احدى وسبعين فاستقربا المدّة وجاء حيى الى النبى
صلعم يسأله هل مع هذا غيره فقال المص ثم استزاد فقال
الر ثم استزاد المر فكانت احدى وسبعين ومايتين فاستطال
الهدّة وقال لقد لُبّس علينا امرك يا محمد حتى ما ندرى
اقليلا اعطيت ام كثيرا ثم ذهبوا عنه وقال لهم ابو ياسر ما
يدريكم لعلّه اعطى عددها كلها بسبع ماية واربع سنين قال
ابن اسحق فنزل قوله تعالى منه ايات محكمات هن امّ

(1) Man. A. B. C. تسعماية.

الكتاب الايات انتهى ولا يقوم من القصّة دليل على تقدير الملّة بهذا العدد لان دلالة هذه الحروف على تلك الاعداد ليست طبيعيّة ولا عقليّة وانما هى بالتواضع والاصطلاح الذى يسمّونه حساب الجمل نعم انه قديم مشهور وقدم الاصطلاح لا يصيّره حجّة وليس ابو ياسر واخوه حيى ممّن يوخذ رايه فى ذلك دليلا ولا بين علماء اليهود لانهم كانوا بادية بالحجاز غفلا من الصنائع والعلوم حتى من علم شريعتهم وفقه كتابهم وملّتهم وانّما يتلقّفون امثال هذا الحساب كما يتلقفه العوامّ فى كل ملّة فلا ينهض للسهيلى دليل على ما ادّعاه من ذلك (ووقع) فى الملّة فى حدثان دولها على الخصوص مستند فى الاثر اجمالىّ فى حديث خرّجه ابو داوود عن حذيفة بن اليمان من طريق شيخه محمد بن يحيى الذهلى عن سعيد بن ابى مريم عن عبد الله بن فروخ عن اسامة بن زيد الليثى عن ابن قبيصة بن ذويب عن ابيه قال قال حذيفة بن اليمان والله ما ادرى انسى اصحابى ام تناسوا والله ما ترك رسول الله صلعم من قائد فتنة الى ان تنقضى الدنيا يبلغ من معه ثلثماية فصاعدا الا قد سماه لنا باسمه واسم ابيه واسم قبيلته وسكت عليه ابو داوود وقد تقدّم انه قال فى رسالته ما سكتُ عليه فى كتابى فهو صالح وهذا الحديث اذا كان صحيحا فهو مجمل

ويفتقر فى بيان اجماله وتعيين مبهماته الى آثار اخرى تجوّد اسانيدها وقد وقع هذا الحديث فى غير كتاب السنن على غير هذا الوجه فوقع فى الصحيحين من حديث حذيفة ايضا قال قام فينا رسول الله صلعم خطيبا فما ترك شيئا يكون فى مقامه ذلك الى قيام الساعة الا حدّثه حفظه من حفظه ونسيه من نسيه قد علمه اصحابه هولاء ولفظ البخارى ما ترك شئا الى قيام الساعة الا ذكره وفى كتاب الترمذى من حديث ابى سعيد الخذرى قال صلّى بنا رسول الله صلعم يوما صلاة العصر بنهار ثم قام خطيبا فلم يدع شئا يكون الى قيام الساعة الا اخبرنا به حفظه من حفظه ونسيه من نسيه انتهى وهذه الاحاديث كلها محمولة على ما ثبت فى الصحيح من احاديث الفتن والاشراط لا غير لانه المعهود من الشارع صلعم فى امثال هذه العمومات وهذه الزيادة التى انفرد بها ابو داوود فى هذا الطريق شاذّة منكرة مع ان الايمّة اختلفوا فى رجاله فقال ابن ابى مريم فى ابن فروخ احاديثه مناكير وقال البخارى تعرف منه وتنكر وقال ابن عدى احاديثه غير محفوظة واسامة بن زيد وان خرج له فى الصحيحين ووثقه ابن معين فانّما خرج له البخارى استشهادا وضعّفه يحيى بن سعيد واحمد بن حنبل وقال ابو حاتم يكتب حديثه ولا يحتجّ به وابن

قبيصة بنّ ذويب مجهول فتضعف هذه الزيادة التى وقعت لابى داوود فى هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مرّ (وقد) يستندون فى حدثان الدول على الخصوص الى كتاب الجفر ويزعمون ان فيه علم ذلك كله من طريق الآثار او النجوم لا يزيدون على ذلك ولا يعرفون اصل ذلك ولا مستنده واعلم ان كتاب الجفر كان اصله ان هرون بن سعيد العجلى وهو راس الزيديّة كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيقع لاهل البيت على العموم ولبعض الاشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظرائه من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذى يقع لمثلهم من الاولياء وكان مكتوبا عند جعفر فى جلد ثور صغير فرواه عنه هرون العجلى وكتبه وسمّاه الجفر باسم الجلد الذى كتب منه لان الجفر فى اللغة هو الصغير وصار هذا الاسم علما على هذا الكتاب عندهم وكان فيه فى تفسير القران وما فى باطنه من المعانى غرائب سروية عن جعفر الصادق وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عينه وانّما تطير عنه شواذّ (1) من الكلمات لا يصحبها دليل ولو صحّ السند الى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه او من رجال قومه فهم اهل الكرامات وقد

(1) Man. D. شوارد.

صحّ عنه انه كان يحذّر بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصحّ كما يقول وقد حذّر يحيى بن عمّه زيد من مصرعه وعصاه فخرج وقتل بالجوزجان كما هو معروف واذا كانت الكرامات تقع لغيرهم فما ظنّك بهم علما ودينا واثارة من النبوة وعناية من الله تعالى بالاصل الكريم تشهد لفروعه الطيّبة وقد ينقل بين اهل البيت كثير من هذا الكلام غير منسوب الى الجفر وفى اخبار دولة العبيديّين كثير منه وانظر ما حكاه ابن الرقيق فى لقاء ابى عبد الله الشيعىّ لعبيد الله المهدى مع ابيه محمد الحبيب وما حدّثاه به وكيف بعثاه الى ابن حوشب داعيتهم باليمن فامره بالخروج الى المغرب وبثّ الدعوة فيه عن علم لقنه ان دولتهم تتمّ هنالك وان عبيد الله لما بنى المهدية بعد استفحال دولتهم بافريقية قال بنيتها ليعصتم بها الفواطم ساعة من نهار واراهم موقف صاحب الحمار بساحتها وبلغ هذا الخبر حافده اسمعيل المنصور فلما حاصره صاحب الحمار ابو يزيد بالمهدية كان يسائل عن منتهى موقفه حتى جاءه الخبر ببلوغه الى المكان الذى عيّن جدّه عبيد الله فايقن بالظفر وبرز من البلد فهزمه واتبعه الى ناحيه الزاب فظفر به وقتله ومثل هذه الاخبار عنهم كثيرة (واما المنجمون) فيستندون فى حدثان الدول الى الاحكام النجوميّة امّا فى

الامور العامّة مثل الملك والدول فهن القرانات وخصوصا بين العلويّين وذلك ان العلويّين زحل والمشترى يقترنان فى كل عشرين سنة مرّة ثم يعود القران الى برج اخر فى تلك المثلثة من التثليث الايمن ثم بعده الى اخر كذلك الى ان يتكرّر فى المثلثة الواحدة ثنتى عشرة مرّة يستوفى بروجها الثلاثة فى ستّين سنة ثم يعود فيستوفيها فى ستين اخرى ثم يعود ثالثة ثم رابعة فيستوفى المثلثة بثنتى عشرة مرّة واربع عودات فى مايتين واربعين سنة ويكون انتقاله من كل برج على التثليث الايمن وينتقل من المثلثة الى المثلثة التى تليها اعنى الى البرج الذى يلى البرج الاخير من القران الذى قبله فى المثلثة وهذا القران الذى هو قران العلويّين ينقسم الى كبير وصغير ووسط فالكبير هو اجتماع العلويّين فى درجة واحدة من الفلك الى ان يعود اليها بعد تسعماية وستّين سنة مرّة واحدة والوسط هو اقتران العلويّين فى كل مثلثة ثنتى عشرة مرّة وبعد مايتين واربعين سنة ينتقل الى مثلثة اخرى والصغير هو اقتران العلويّين فى برج واحد وبعد عشرين سنة يقترنان فى برج اخر على تثليثه الايمن وفى مثل درجه او دقائقه (مثال ذلك وقع القران اول دقيقة من الحمل وبعد عشرين سنة يكون اول دقيقة من القوس وبعد عشرين فى

الاسد وهذه كلّها ناريّة وهذا كلّه قران صغير ثم يعود الى اول
الحمل بعد ستيّن سنة ويسمى دور القران وبعد وعود القران مايتين
واربعين ينتقل من الناريّة الى الترابيّة لانها بعدها وهذا
قران وسط ثم ينتقل الى الهوائيّة ثم المايية ثم يرجع الى
اول الحمل فى تسعماية وستّين سنة وهو الكبير والقران
الكبير يدلّ على عظام الامور مثل تغيير الملل والدول وانتقال
الملّة من قوم الى قوم والوسط على ظهور المتغلّبين والطالبين
للملك والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن
او عمرانها ويقع اثناء هذه القرانات قران النحسين فى
برج السرطان فى كل ثلاثين سنة مرّة ويسمى الرابع وبرج
السرطان هو طالع العالم وفيه وبال زحل وهبوط المريخ
فتعظم دلالة هذا القران فى الفتن والحروب وسفك الدماء
وظهور الخوارج وحركة العساكر وعصيان الجند والوباء والقحط
ويدوم ذلك او ينتهى على قدر السعادة والنحوسة فى
وقت قرانهما وعلى قدر تسيير الدليل فيه قال جراش بن
احمد الحاسب فى الكتاب الذى الفه لنظام الملك
ورجوع المريخ فى العقرب له اثر عظيم فى الملّة الاسلاميّة
لانه كان دليلها فان المولد النبوىّ كان عند قران العلويّين
فى برج العقرب فكلما رجع هنالك حدث تشويش على
الخلفاء وكثر المرض فى اهل العلم والدين ونقصت احوالهم

وربّما انهدم بعض بيوت العبادة ولقد يقال انه كان عند قتل علىّ رضى الله عنه ومروان من بنى امية والمتوكّل من بنى العباس فاذا روعيت هذه الاحكام مع احكام القرانات كانت فى غاية الاحكام (وذكر) شاذان البلخى ان الملّة تنتهى الى ثلاثماية وعشر سنين وقد ظهر كذب هذا القول (وقال) ابو معشر يظهر بعد الماية والخمسين منها اختلاف كثير ولم يصحّ ذلك (وقال) جراش رايت فى كتب القدماء ان المنجمين اخبروا كسرى عن ملك العرب وظهور النبوة فيهم وان دليلهم الزهرة وكانت فى شرفها فيبقى الملك فيهم اربعين سنة (وقال) ابو معشر فى كتاب القرانات ان القسمة اذا انتهت الى السابعة والعشرين من الحوت وفيها شرف الزهرة ووقع القران مع ذلك ببرج العقرب وهو دليل العرب ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبى وتكون قوة ملكه ودولته ومدّته على قدر ما بقى من درجات شرف الزهرة وهى احد عشر درجا بتقريب من برج الحوت ومدّة ذلك ستّماية وعشر سنين وكان ظهور ابى مسلم عند انتقال الزهرة ووقوع القسمة اول الحمل وصاحب الحدّ المشترى (وقال) يعقوب بن اسحق الكندى ان مدّة الملّة تنتهى الى ستّماية وثلاث وتسعين سنة قال لان الزهرة كانت عند قران الملّة فى ثمان وعشرين درجة

PROLÉGOMÈNES
d Ebn-Khaldoun.

وثنتين واربعين دقيقة من الحوت فالباقى احدى عشر درجة وثمان عشر دقيقة ودقائقها ستّون فتكون ستّماية وثلاثا وتسعين سنه قال وهذا مدّة الملّة باتّفاق الحكماء وتعضده الحروف الواقعة فى اوائل السور بحذف المكرّر واعتباره بحساب الجمل (قلت) وهذا هو الذى ذكره السهيلى والغالب ان الاول هو مستند السهيلى فيما نقلناه عنه قال جراش (وسئل) هرمزدافريد الحكيم عن مدّة اردشير وولده ملوك الساسانيّة فقال دليل ملكه المشترى وكان فى شرفه فيعطى اطول السنين واجودها اربعماية وسبعا وعشرين سنة ثمّ تدبّر الزهرة وتكون فى شرفها وهى دليل ان العرب يملكون لان طالع القران الميزان وصاحبه الزهرة وكانت عند القران فى شرفها فدلّ انهم يملكون الف سنة وستّين سنة (وسأل) كسرى انوشيروان وزيره بزرجمهر الحكيم عن خروج الملك من فارس الى العرب فاخبره ان القائم منهم يولد لخمس واربعين من دولته ويهلك المشرق والمغرب والمشترى يفوّض التدبير الى الزهرة وينتقل القران من الهوائيّة الى العقرب وهو مائىّ وهو دليل العرب فهذه الادلّة تقضى للملّة بمدّة دور الزهرة وهى الف وستّون سنة (وسأل) كسرى ابرويز اليوس الحكيم عن ذلك فقال مثل قول بزرجمهر (وقال) توفيل الرومى المنجم ايام بنى امية

ان دولة الاسلام تبقى مدّة القران الكبير تسعماية وستّين سنة فاذا عاد القران الى برج العقرب كما كان فى ابتداء الملّة وتغيّر وضع الكواكب عن هئتها فى قران الملّة فحينئذ امّا يفتر العمل به وامّا يتجدّد من الاحكام ما يوجب خلاف الظنّ (قال) جراش واتّفقوا ان خراب العالم يكون باستيلاء الماء والنار حتى تهلك سائر المكونات وذلك عند ما يقطع قلب الاسد اربعا وعشرين درجة الذى هو حدّ المريخ وذلك بعد مضى تسعماية وستّين سنة (وذكر) جراش ان ملك زابلستان وهى غزنة بعث الى المامون بحكيمه ذوبان اتحفه به فى هدية وانه تصرّف للمأمون فى الاختيارات لحروب اخيه ولعقد اللواء لطاهر وان المأمون اعظم حكمته فسأله عن مدّة ملكهم فاخبره بانقطاع الملك من عقبه واتّصاله فى ولد اخيه وبأن العجم يتغلّبون على الخلافة الديلم اولا فى دولة حسنة خمسين سنة ثم تسوء حالهم حتى يظهر الترك من شمال الشرق فيملكون الى الشام والفرات ويفتحون بلاد الروم ثم يكون ما يريده الله تعالى فقال له المأمون من اين لك ذلك قال من كتب الحكماء ومن احكام صصّة بن داهر الهندى الذى وضع الشطرنج (قلت) والترك الذين اشار الى ظهورهم بعد الديلم هم السلجوقيّة وقد انقضت دولتهم اول القرن

السابع (قال) جراش وانتقال القران الى المثلثة الهائيّة فى برج الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمانماية ليزدجرد وبعدها الى برج العقرب حيث كان قران الملّة سنة ثلاث وخمسين قال والذى فى الحوت هو اول الانتقال والذى فى العقرب يستخرج منه دلائل الملّة قال وتحويل السنة الاولى من القران الاول فى المثلثات المائيّة فى ثانى رجب سنة ثمان وستّين وثمانماية ولم يستوف الكلام على ذلك (واما) مستند المنجّمين فى دولة دولة على الخصوص فمن القران الاوسط وهيئة الفلك عند وقوعه لان له دلالة عندهم على حدوث الدول وجهاتها من العمران والقائمين بها من الامم وعدد ملوكهم واسمائهم واعمارهم ونحلهم واديانهم وعوائدهم وحروبهم كما ذكر ابو معشر فى كتابه القرانات وقد توخذ هذه الادلّة من القران الاصغر اذا كان الاوسط دالّا عليه فمن هذا يوخذ الكلام فى الدول وقد كان يعقوب بن اسحق الكندى منجّم الرشيد والمامون وضع فى القرانات الكائنة فى الملّة كتابا سمّاه الشيعة بالجفر باسم كتابهم المنسوب الى جعفر الصادق وذكر فيه فيما يقال حدثان دولة بنى العباس وانها نهايته واشار الى انقراضها والحادثة الى بغداد انه يقع فى منتصف المائة السابعة وان انقراضها يكون بانقراض الملّة ولم نقف على شئ من خبر هذا الكتاب

ولا راينا من وقف عليه ولعلّه غرق فى كتبهم التى طرحها هولاكو ملك الططر فى دجلة عند استيلائهم على بغداذ وقتل المعتصم آخر الخلفاء (وقد) وقع بالمغرب جزء منسوب الى هذا الكتاب يسمّونه الجفر الصغير والظاهر انه وضع لبنى عبد المؤمن لذكر الاولين من ملوك الموحّدين فيه على التفصيل ومطابقة ما تقدّم من ذلك من حدثانه وكذب ما بعده وكان فى دولة بنى العباس من بعد الكندى منجمون وكتب فى الحدثان وانظر ما نقله الطبرى فى اخبار المهدى عن ابى بديل من صنائع الدولة قال بعث الىّ الربيع والحسن فى غزاتهما مع الرشيد ايام ابيه فجئتهما جوف الليل فاذا عندهما كتاب من كتب الدولة يعنى الحدثان واذا مدّة المهدى فيه عشر سنين فقلت هذا الكتاب لا يخفى عن المهدى وقد مضى من دولته ما مضى فاذا وقف عليه كنتم قد نعيتم اليه نفسه قالا فما الحيلة فاستدعيت عنبسة الورّاق مولى آل بديل وقلت له انسخ هذه الورقة واكتب مكان عشرة اربعين ففعل فوالله لولا انّى رايت العشرة فى تلك الورقة والاربعين فى هذه ما شككت انّها هى ثم كتب الناس من بعد ذلك فى حدثان الدول منظوما ومنثورا ورجزا ما شاء الله ان يكتبوه وبايدى الناس مفترق كثير منها وتسمى الملاحم وبعضها فى

حدثان الملّة على العموم وبعضها فى دولة على الخصوص وكلها منسوب الى مشاهير من اهل الخليقة وليس منها اصل يعتمد على روايته عن واضعه المنسوب اليه فمن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مرانة من بحر الطويل على روى الراء وهى متداولة بين الناس ويحسب العامة انها من الحدثان العامّ فيطبقون كثيرا منها على الحاضر والمستقبل والذى سمعناه من شيوخنا انها مخصوصة بدولة لمتونة لان الرجل كان قبيل دولتهم وذكر فيها استيلاءهم على سبتة من ايدى موالى بنى حمود وملكهم لعدوة الاندلس ومن الملاحم بايدى اهل المغرب ايضا قصيدة تسمّى التبّعيّة اولها

طربت وما ذاك منّى طرب   وقد يطرب الطاير المغتصب
وما ذاك منّى للهو اراه   ولكن لتذكار بعض السبب

قريبا من خمسماية بيت او الف بيت فيها يقال ذكر فيها كثيرا من دولة الموحدين واشار الى الفاطمىّ وغيره والظاهر انها مصنوعة ومن الملاحم بالمغرب ايضا ملعبة من الشعر الزجلىّ منسوبة لبعض اليهود ذكر فيها احكام القرانات لعصره العلويّين والنحسين وغيرها وذكر ميتته قتيلا بفاس وكان كذلك فيما زعموه واوله

فى صبغ ذا الازرق لشرفه خيارا   فافهموا يا قوم هذه الاشارا
نجم زحل اخبر بها ذى العلاما   وبدل الشكلا وهى سلاما

شاشية زرقاء بدل العماما   وطاشرا ازرق بدل الغفارا

وفى آخره يقول

قد تمّ ذا التجنيس (1) لانسان يهودى   يصلب على واد فاس فى يوم عيد
حتى يجيه الناس من البوادى   وقتل يا قوم على الغزارا

وابياته نحو الخمسماية وهى فى احكام القرانات التى دلّت على دولة الموحدين ومن ملاحم المغرب ايضا قصيدة من عروض المتقارب على روىّ الباء فى حدثان دولة بنى ابى حفص بتونس من الموحدين منسوبة لابن الابار وقال لى قاضى قسطنطينة الخطيب الكبير ابو على بن باديس وكان بصيرا بما يقول وله قدم فى علم النجوم فقال لى ان هذا ابن الابار ليس هو الحافظ الكاتب مقتول المستنصر وانّما هذا رجل خيّاط من اهل تونس تواطأت شهرته مع شهرة الحافظ وكان والدى رحمه الله ينشدنى الابيات من هذه الملحمة وبقى بعضها فى حفظى مطلعها

عذيرى (2) من زمن قلّب   يغر ببارقه الاشنب

ومنها فى ذكر اللحيانى تاسع ملوك الدولة

فيبعث من جيشه قائدا   ويبقى هناك على مرقب
وتاتى الى الشيخ اخباره   فيقبل كالجمل الاجرب
ويظهر من عدله سيرة   وتلك سياسة مستجلب

ومنها فى ذكر احوال تونس على العموم

(1) Man. C. تجسيس. D. تنجيس.

(2) Man. A. et B. عندى. D. غديرى.

فاما رايت الرسوم انمحت ولم يُرع حق لذى منصب
فجد بالترحل عن تونس وودّع معالمها واذهب
فسوف تكون بها فتنة تضيف البرئ الى المذنب

ووقفت بالمغرب على ملحمة اخرى فى دولة بنى ابى حفص هولاء بتونس فيها بعد السلطان ابى يحيى الشهير عاشر ملوكهم ذكر اخيه محمد يقول فيه

وبعد ابو عبد الاله شقيقه ويعرف بالوثّاب فى نسخة الاصل

الا ان هذا الرجل لم يملك بعد اخيه وكان يمنّى بذلك نفسه الى ان هلك ومن ملاحم المغرب ايضا الملعبة المنسوبة الى الهوشنى على لغة العامّة فى عروض البلد اولها

دعنى يا دمعى (1) الهتان فترت الامطار ولم تفتر
واشتفت كلها الويدان وانتى تهلا وتتغدر
البلدان كلّها تروى فاوقاتا مثل ما تدرى
وانتى الصيف والشتوى والفاكا (2) والربيع تجرى
قال حين صحّت الدعوى دعنى نبكى ومن (3) عذرى
ايا دبر فى ذى الازمان ذا القرن اشتدّ وتمرمر

وهى طويلة ومحفوظة بين عامّة المغرب الاقصا والغالب عليها الوضع لانه لم يصحّ منها قول الا على تأويل تحرفه العامّة او يجازف فيه من ينتحلها من الخاصّة ووقفت بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العربى الحاتمى فى

(1) Man. D. دمعى يا عينى.
(2) Man. D. الفاكى.
(3) *Ibid.* زمن.

كلام طويل شبه الالغاز لا يعلم تأويله الا الله يتخلّله اوفاق عديدة (1) ورموز ملغوزة واشكال حيوانات تامّة ورؤس مقتطعة وتماثيل من حيوانين غريبة وفى آخرها قصيدة على روىّ اللام والغالب انّها كلّها غير صحيحة لانها لم تبن على اصل علمىّ من نجامة ولا غيرها ومن غريب ما سمعت بعض الخواصّ يتناقلونه بمصر عن ملحمة ابن العربى ولعلّها غير هذه انه تكلّم على طالع بناء القاهرة وانه جعل مدّة عمرانها اربعماية وستّين سنة من دلالات الطوالع النجوميّة وينتهى ذلك الى حدود الثلاثين بعد الثمانماية لانّا اذا حملنا على الاربعماية والستّين حساب القمرىّ لانّها شمسيّة فتزيد عليها بحساب ثلاثة لكل ماية اربع عشرة سنة فيكون اربعماية وسبعين سنة نحملها على ثلاثماية وثمان وخمسين من الهجرة تاريخ بنائها يكون ثمانماية سنة واثنين وثلاثين سنة هذا ان صحّ كلام ابن العربى وصدقت الدلائل النجوميّة وسمعت ايضا ان هناك ملاحم اخرى منسوبة لابن سينا ولابن عقب وليس فى شئ منها دليل على الصحّة لان ذلك انّما يوخذ من القرانات على ان ملاحم ابن ابى العقب مدخولة وقد نقل ابن خلكان فى ترجمة ابن القربة عن كتاب الاغانى ان ابن ابى العقب

(1) Man. C. D. عددية. B. عدوية.

وهو يحيى بن عبد الله ابن ابى العقب من الامور التى استوهت ولا وجود لها فى الخارج مثل مجنون ليلى وابن القربة والله اعلم ووقفت بالمشرق ايضا على ملحمة فى حدثان دولة الترك منسوبة الى رجل من الصوفيّة يسمى الباجريقيّ وكلها الغاز بالحروف اولها

ان شيت تكشف سرّ الجفريا سكنى ... من علم خيروصيّ والد الحسن
فافهم وكُن واعيا حرفا وجملة ... والوصف فافعل كفعل الحاذق الفطن
اما الذى قبل عصرى لست اذكره ... لكتنى اذكر الآتى من الزمن
بيبرس يسقى بحاء بعد خمستها ... وحاء ميم بطيش نام فى الكفن (1)

ومنها

شين له اثر من تحت سرّته ... له القضا قضا اى ذى المنن
فمصر والشام مع ارض العراق له ... واذربيجان من ملك الى اليمن

ومنها

وآل نوّار لما نال ظاهرهم ... الفاتك الباتك المعنى بالشجن (2)

ومنها

اخلع سعيدا ضعيف السن سّين اتى ... لالا وقاف ونون لز فى قرن
قرم شجاع له عقل ومشورة ... يسقى بحاء وابن بعد ذو شجن

ومنها

من بعد باء (3) من الاعوام قتلته ... يلى المشوّه ميم الملك ذو اللسن
هذا هو الاعرج الكلبيّ فاعن به ... فى عصره فتن ناهيك من فتن
ياتى من الشرق جيش الترك يقدمهم ... غاز عن القاف قاف جُرّ بالفتن
فقبل ذاك فويل الشام اجمعها ... فاندب بشجو على الاهلين والوطن
اذا اذا زلزلت ياويح مصر من ... الزلزال ما زال عاما غير مقتطن
طاء وطاء وغين كلهم حبسوا ... هلكى وينفق اموالا بلا ثمن

(1) Man. C. et D. الكنن. (2) Man. B. et C. السجن. (3) Man. D. ياء.

يسير القافى قافا نحو احمدهم   هوّن (1) به ان ذاك الحصن فى مكن

ومنها

وينصبون اخاهم وهو صالحهم   لام الف شين لذاك ثنى

ومنها

تمّت ولايتهم بالحاء لا احد   من البنين (2) يدانى الملك فى الزمن

ويقال انه اشارة الى الملك الظاهر وقدوم ابيه عليه بمصر

ياتى اليه ابوه بعد هجرته   وطول غيبته والشظف والدرن

وابياتها كثيرة والغالب انّها مصنوعة ومثل صنعتها كان فى القديم كثيرا ومعروف الانتحال حكى المورّخون لاخبار بغداذ انّه كان بها ايام المقتدر ورّاق ذكيّ يعرف بالدانيالى يبلى الاوراق ويكتب فيها بخطّ عتيق يرمز فيه بحروف من اسماء اهل الدولة ويشير بها الى ما يعرف ميلهم اليه من احوال الرفعة والجاه كانّها ملاحم ويحصل بذلك على ما يريده منهم من الدنيا وانه وضع فى بعض دفاتره ميم مكرّرة ثلاث مرّات وجاء به الى مفلح مولى المقتدر وكان عظيما فى الدولة فقال له هذا كناية عنك وهو مفلح مولى مقتدر ميم من كل واحدة وذكر عندها ما يعلم فيه رضاه ممّا يناله من الملك والسلطان ونصب له علامات لذلك من احواله المتعارفة موّه بها عليه فبذل له ما اغناه به ثم وضعه الوزير الحسن بن القاسم بن وهب على مفلح هذا وكان

(1) Man. D. هول.   (2) Man. A. et B. النبيين. D. الشين.

معزولا فجاءه باوراق مثلها وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف وبعلامات ذكرها وانه يلى الوزارة للثامن عشر من الخلفاء وتستقيم الامور على يديه ويقهر الاعداء وتعمر الدنيا فى ايامه ووقف مفلحا على الاوراق وذكر فيها كوائن اخرى وملاحم من هذا النوع بما وقع وما لم يقع ونسب جميعه الى دانيال فاعجب به مفلح ووقف المقتدر عليه واهتدى من تلك الرموز والعلامات الى ابن وهب لظهورها وكان ذلك سببا لوزارته بمثل هذه الحيل العريقة فى الكذب والجهل بمثل هذه الالغاز والظاهر ان هذه الملحمة التى ينسبونها الى الباجريقى من هذا النوع ولقد سألت الشيخ كمال الدين شيخ الحنفيّة من العجم بالديار المصريّة عن هذه الملحمة وعن هذا الرجل الذى تنسب له من الصوفيّة وهو الباجريقى وكان عارفا بطرائقهم فقال كان من المعروفين بالقرندليّة المبتدعين فى حلق اللحية وكان يتحدّث عمّن يكون من الملوك لعصره بطريق الكشف ويومى الى رجال معيّنين عنده ويلغز عنهم بحروف يعيّنها فى ضميره لمن يراه منهم وربّما نظم ذلك فى ابيات قليلة كان يتعاهدها فتنوقلت عنه وولع الناس بها وجعلوها ملحمة مرموزة وزاد فيها الخرّاصون من ذلك الجنس فى كل عصر وشغل العامّة بفكّ رموزها وهو امر ممتنع اذ الرمز انّما يهدى الى

كشفه قانون يعرف قبله او يوضع له وامّا مثل هذه الحروف فدلالتها على المراد منها مخصوصة بهذا الناظم فرايت من كلام هذا الرجل الفاضل شفاءً لما كان فى النفس من امر هذه الملحمة وما كنّا لنهتدى لولا هدانا الله (ثمّ) وقفت بعد ذلك وانا بدمشق عند حلولى مع الركاب السلطانى بها سنة اثنين وثمانماية وانا على قضاء المالكيّة بمصر فوقفت على تاريخ ابن كثير فى سنة اربع وعشرين وسبعماية فى ترجمة التعريف بهذا الرجل فقال شمس الدين محمد الباجريقى ينسب اليه الفرقة الضالّة الباجريقيّة والمشهور عنهم انكار الصانع وكان والده جمال الدين عبد الرحيم بن عمر الموصلىّ رجلا صالحا من علماء الشافعيّة ودرس فى مدارس بدمشق ونشأ ابنه هذا بين الفقهاء فاشتغل قليلا ثم اقبل على السلوك ولازمه جماعة يعتقدون فيه ممّن هو على طريقته ثم حكم القاضى باراقة دمه وهرب الى المشرق ثم اقام البيّنة بالعداوة بينه وبين من شهد عليه وحكم الحنبلى بحقن دمه واقام بالقابون مدّة سنين وتوفّى ليلة الاربعا سادس عشر ربيع الآخر سنة اربع وعشرين وقال ابن كثير ومن شعر الباجريقىّ فى نظمه الجفر

فاسمع وكُنْ واعيا حرفا وجمله ... والوصف فافهم بفهم الحاذق الفطن
فى قصد مصروما بالشام يحدثه ... ربّ السموات من خيرومن محن

بيبرس يسقى بكأس بعد خمستها — وحآميم بطيش نام فى اللبن
يا ويح جلق ماذا حلّ ساحتها — واخربوا جامعا لله كيف بنى
يا ويلها كم عدوا فى الدين كم قتلوا — وكم دم سفكوا من عالم ودنى
وكم سماع وكم سبى وكم نهبوا — وحرقوا ثم من شاب ومن يفن
والكون معهم والارجاء مظلمة — حتى حمائمها ناحت على الفنن
يا للبرايا اما للدين منتصر — قوموا الى الشام من سهل ومن حزن
عرب العراق ومصر والصعيد اتوا — وموت الكفر فيها عزم مرتكن

تمّ الفصل الثالث من الكتاب والحمد لله وحده

الفصل الرابع من الكتاب الاول فى البلدان والامصار والمدن وسائر العمران الحضرىّ وما يعرض فى ذلك من الاحوال وفيه سوابق ولواحق

فصل فى ان الدول اقدم من المدن والامصار وانّها انّما توجد ثانية عن الملك

وبيانه ان البناء واختطاط المدن انّما هو من منازع الحضارة التى يدعو اليها الترف والدعة كما قدّمناه وذلك متأخّر عن البداوة ومنازعها وايضا فالمدن والامصار ذات هياكل واجرام عظيمة وبناء كبير اذ هى موضوعة للعموم لا للخصوص فتحتاج الى اجتماع الايدى وكثرة التعاون وليست من الامور

الضروريّة للناس التى تعمّ بها البلوى حتى يكون نزوعهم اليها شوقيّا واضطراريّا بل لا بدّ من اكراههم على ذلك وسوقهم اليه مضطهدين بعصا الملك او مرغبين فى الثواب والاجر الذى لا يفى به لكثرته الا الملك والدولة فلا بدّ فى تمصير الامصار واختطاط المدن من الدولة والملك ثم اذا بنيت المدينة وكمل تشييدها بحسب نظر من شيّدها وبما اقتضته الاحوال السماويّة والارضيّة فيها فعمر الدولة حينئذ عمر لها فان كان امد الدولة قصيرا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت وان كان امد الدولة طويلا ومدّتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدّد ونطاق الاسوار يتباعد وينفسح الى ان تتّسع الخطّة وتبعد المسافة ويعيى ذرع المساحة كما وقع ببغداذ وامثالها (ذكر) الخطيب فى تاريخه ان الحمامات بلغ عددها ببغداذ لعهد المامون خمسة وستّين الف حمّام وكانت مشتملة على مدن وامصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الاربعين ولم تكن مدينة واحدة يجمعها سور واحد لافراط العمران وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية فى الملّة الاسلاميّة وحال مصر والقاهرة بعدها فيما يبلغنا لهذا العهد (واما) بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة فامّا ان يكون لضواحى تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط بادية يمدّها

العمران دائما فيكون ذلك حافظا لوجودها ويستمرّ عمرها بعد الدولة كما تراه بفاس وبجاية من المغرب وبعراق العجم من المشرق الموجود لها عمران الجبال لان اهل البدو اذا انتهت احوالهم الى غايتها من الرفه والكسب نزعوا الى الدعة والسكون الذى فى طبيعة البشر فينزلون المدن والامصار ويتاهّلون فيها وامّا ان تكون لتلك المدينة المؤسّسة مادّة تفيدها العمران بترادف الساكن من بدوها فيكون انقراض الدولة خرقا لسياجها فيزول حفظها ويتناقص عمرانها شيئا فشيئا الى ان يتذعر ساكنها وتخرب كما وقع فى مصر وبغداذ والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة ابن حماد بالمغرب وامثالها فتفهمه فربّما ينزل المدينة بعد انقراض مختطّيها الاولين ملك اخر ودولة ثانية تتّخذها قرارا وكرسيا وتستغنى بها عن اختطاط المدينة لنزلها فتحفظ تلك الدولة سياجها وتزيد مبانيها ومصانعها بتزايد احوال الدولة الثانية وترفها وتستجدّ بعمرها عمرا اخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد فاعتبر ذلك وافهم سرّ الله فى خليقته

فصل فى ان الملك يدعو الى نزول الامصار

وذلك ان القبائل والعصائب اذا حصل لهم الملك اضطرّوا

للاستيلاء على الامصار لامرين احدهما ما يدعو اليه الملك من الدعة والراحة وحطّ الاثقال واستكمال ما كان ناقصا من امور العمران فى البدو والثانى دفع ما يتوقّع على الملك من امر المنازعين والمشاغبين لان المصر الذى يكون فى نواحيهم ربّما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم وانتزاع ذلك الملك الذى سموا اليه من ايديهم فيعتصم بذلك المصر ويغالبهم ومغالبة المصر على نهاية من الصعوبة والمشقّة والمصر يقوم مقام العساكر المتعدّدة بما فيه من الامتناع ومكانة (1) الحرب من وراء الجدران من غير حاجة الى كبير عدد ولا عظيم شوكة والعصابة انّما احتيج اليها فى الحرب للثبات بما يقع من نعرة القوم بعضهم على بعض عند الجولة وثبات هاولاء بالجدران فلا يضطرّون الى كبير عصابة ولا عدد فيكون حال هذا المصر ومن يعتصم به من المنازعين ممّا يفتّ فى عضد الامّة التى تروم الاستيلاء ويخضد شوكة استيلائها فاذا كانت بين احيائهم امصار انتظموها فى استيلائهم للامن من مثل هذا الانخرام وان لم يكون هنالك مصر استحدثوه ضرورة لتكميل عمرانهم اولا وحطّ اثقالهم وليكون ثانيا شجا فى حلق من يروم العزّة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائبهم

(1) Man. A. B. نكايه.

فقد تبيّن لك ان الملك يدعو الى نزول الامصار والاستيلاء عليها والله غالب على امره

فصل فى المدن العظيمة والهياكل المرتفعة انّما يشيّدها الملك الكبير

انّما قدّمنا ذلك فى آثار الدول من المبانى وغيرها وانها تكون على نسبتها وذلك ان تشييد المدن انّما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم فاذا كانت الدولة عظيمة متّسعة الممالك حشر الفعلة من اقطارها وجمعت ايديهم على عملها وربّما استعين فى ذلك اكثر الامر بالهندام الذى يضاعف القوى والقدر فى حمل اثقال البناء لعجز القدر البشريّة عن ذلك كالمنجال وغيره وربّما يتوهّم كثير من الناس اذا نظر الى آثار الاقدمين ومصانعهم العظيمة مثل ايوان كسرى واهرام مصر وحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب انها كانت بقدرهم متفرّقين او مجتمعين فيتخيّل لهم اجساما تناسب ذلك اعظم من هذه بكثير فى اطوالها وعروضها واقطارها ليناسب بينها وبين القدر الذى صدرت تلك المبانى عنها ويغفل عن شأن الهندام والمنجال (1) وما اقتضته فى ذلك الصناعة الهندسيّة وكثير من المتقلّبين

(1) Man. A. الميخال. D. المنخال.

فى البلاد يعاين من شأن البناء واستعمال الحيل فى نقل الاجرام عند اهل الدول والمعتنيين بذلك من العجم بما يشهد له بها قلناه عيانا واكثر آثار الاقدمين لهذا العهد تسمّيها العامّة عاديّة نسبة الى قوم عاد لتوهّمهم ان مبانى عاد ومصانعهم انّما عظمت لعظم اجسامهم وتضاعف قدرهم وليس كذلك فقد نجد آثارا كثيرة من آثار الذين نعرف مقادير اجسامهم من الامم وهى مثل ذلك العظم واعظم كايوان كسرى ومبانى العبيديّين من الشيعة بافريقية والصنهاجيّين واثرهم بادٍ الى اليوم فى صومعة قلعة ابن حماد وكذلك بناء الاغالبة فى جامع القيروان وبناء الموحّدين فى رباط الفتح وبناء السلطان ابى الحسن لعهد اربعين سنة فى المنصورة بازاء تلمسان وكذلك الحنايا التى جلب اهل قرطاجنة اليها الماء فى القناة الراكبة عليها ماثلة ايضا لهذا العهد وغير ذلك من المبانى والهياكل التى نقلت الينا اخبار اهلها قريبا وبعيدا وتيقّنّا انهم لم يكونوا بافراط فى مقادير اجسامهم وانّها هذا راى اولع به القصّاص عن قوم عاد وثمود والعمالقة ونحن نجد بيوت ثمود فى الحجر منحوتة الى هذا العهد وقد ثبت فى الحديث الصحيح انها بيوتهم يمرّ بها الركب الحجازىّ اكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد فى جوها وساحتها وسمكها

على المتعاهد وانّهم ليبالغون فيما يعتقدون من ذلك حتى انّهم ليزعمون ان عوج بن عناق من جيل العمالقة (1) كان يتناول السمك من البحر طريّا فيشويه فى الشمس يزعمون بذلك ان الشمس حارّة فيما قرب منها ولا يعلمون ان الحرّ فيما لدينا هو الضوء لانعكاس الشعاع بمقابلة سطح الارض والهواء واما الشمس فى نفسها فغير حارّة ولا باردة وانما هى كوكب مضئ لا مزاج له وقد تقدّم شئ من هذا فى الفصل الثانى حيث ذكرنا ان الدول على نسبة قوتها فى اصلها والله يخلق ما يشاء

فصل فى ان الهياكل العظيمة جدّا لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة

والسبب فى ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء الى التعاون ومضاعفة القدر البشريّة وقد تكون المبانى فى عظمها اكبر(2) من القدر مفردة او مضاعفة بالهندام كما قلناه فتحتاج الى معاونة قدر اخرى مثلها فى ازمنة متعاقبة الى ان تتمّ فيبتدى الاول منهم بالبناء ويعقبه الثانى والثالث وكل واحد منهم قد استكمل شأنه فى حشر الفعلة وجمع الايدى حتى يتمّ القصد من ذلك ويقوم ماثلا للعيان يظنّه من يراه من

(1) Man. A. et B. كنعان.

(2) Man. C. et D. اكثر.

الاخرين انه بناء دولة واحدة وانظر فى ذلك ما نقله المورّخون فى بناء سدّ مارب وان الذى بناه سبا بن يشحب وساق اليه سبعين واديا وعاقه الموت عن اتمامه فاتمّته ملوك حمير من بعده ومثل هذا نُقل فى بناء قرطاجنة وقناتها الراكبة على الحنايا العاديّة واكثر المبانى العظيمة فى الغالب شأنها هذا ويشهد لذلك ان المبانى العظيمة لعهدنا نجد الملك الواحد يشرع فى تأسيسها واختطاطها فاذا لم يتبع اثره من بعده من الملوك فى اتمامها بقيت بحالها ولم يكمل القصد فيها ويشهد لذلك ايضا انّا نجد آثارا كثيرة من المبانى العظيمة تعجز الدولة عن هدمها وتخريبها مع ان الهدم اسهل من البناء بكثير لان الهدم رجوع الى الاصل الذى هو العدم والبناء على خلاف الاصل فاذا وجدنا بناء تضعف قدرتنا البشريّة عن هدمها مع سهولة الهدم علمنا ان القدر التى اسّسته مفرطة القوة وانها ليست اثرا لدولة واحدة وهذا مثل ما وقع للعرب فى ايوان كسرى لما اعتزم الرشيد على هدمه وبعث الى يحيى بن خالد وهو فى محبسه يستشيره فى ذلك فقال يا امير المومنين لا تفعل واتركه ماثلا يستدلّ به على عظم ملك ابائك الذين سلبوا الملك لاهل ذلك الهيكل فاتهمه فى النصيحة وقال اخذته النعرة للعجم والله لاصرعنه

وشرع فى هدمه وجمع الايدى عليه واتّخذ له الفوس وحماه بالنار وصبّ عليه الخلّ حتى اذا ادركه العجز بعد ذلك كلّه وخاف الفضيحة بعث الى يحيى يستشيره ثانيا فى التجافى عن الهدم فقال يا امير المؤمنين لا تفعل استمرّ على شأنك ليئلا يقال عجز امير المومنين وملك العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم فعرفها الرشيد واقصر عن هدمه وكذلك اتّفق للمامون فى هدم الاهرام التى بمصر وجمع الفعلة لهدمها فلم يحصل بطايل وشرعوا فى نقبه فانتهوا الى جو بين الحائط الظاهر وما بعده من الحيطان وهناك كان منتهى هدمهم وهو الى اليوم فيما يقال منفذ ظاهر ويزعم زاعمون انه وجد هناك ركازا بين تلك الحيطان والله اعلم وكذلك حنايا المعلقة بقرطاجنة الى هذا العهد يحتاج اهل مدينة تونس الى انتخاب الحجارة لبنائهم ويستجيد الصنّاع حجارة تلك الحنايا فيحاولون على هدمها الايام العديدة ولا يسقط الصغير من جدرانها الا بعد عصب الريق وتجتمع له المحافل المشهورة شهدت منها فى ايام صبائى كثيرا والله على كل شئ قدير

فصل فيما تجب مراعاته فى اوضاع المدن وما يحدث اذا اغفل عن المراعاة

المدن قرار تتّخذه الامم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر الدعة والسكون وتتوجّه الى اتّخاذ المنازل للقرار ولما كان ذلك للقرار والمأوى وجب ان يراعى فيه دفع المضارّ بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها فامّا الحماية من المضارّ فيراعى لها ان يدار على منازلها معا سياج الاسوار وان يكون وضع ذلك فى ممتنع من الامكنة امّا على هضبة متوعّرة من الجبل وامّا باستدارة بحر او نهر بها حتّى لا يوصل اليها الّا بعد العبور على جسر او قنطرة فيصعب منالها على العدوّ ويتضاعف امتناعها وحصنها (ومما) يراعى فى ذلك للحماية من الآفات السماويّة طيب الهواء للسلامة من الامراض فان الهواء اذا كان راكدا خبيثا او مجاورا لمياه فاسدة ومناقع متعفّنة او مروج خبيثة اسرع اليه العفن من مجاورتها فاسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة وهذا مشاهد والمدن التى لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الامراض فى الغاية وقد اشتهر بذلك فى قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بافريقية فلا يكاد ساكنها او طارقها يخلص من

حمّى العفن بوجه ولقد يقال ان ذلك حادث فيها ولم يكن كذلك من قبل ونقل البكرى فى سبب حدوثه انه وقع فيها حفر ظهر فيه على اناء من نحاس مختوم بالرصاص فلما فضّ ختامه صعد منه دخان الى الجو وانقطع وكان ذلك بدؤ امراض الحمّيات فيه واراد بذلك انّ الاناء كان مشتملا على بعض اعمال الطلسمات لوبائه وانه ذهب سرّه بذهابه فرجع الى العفن والوباء وهذه الحكاية من مذاهب العامّة ومناحيهم الركيكة والبكرى لم يكن من متانة العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا او يتبيّن خرفه فنقله كما سمعه والذى يكشف الحقّ فى ذلك ان هذه الاهوية العفنة اكثر ما يهيّئها لتعفين الاجسام وامراض الحمّيات ركودها فاذا تخلّلها الريح ونفشت وذهب بها يمينا وشمالا خفّ شأن العفن والمرض المتادّى منها للحيوانات والبلد اذا كان كثير الساكن وكثرت حركات اهله فيتموّج الهواء ضرورة ويحدث الريح المتخلّل للهواء الراكد ويكون ذلك معينا له على الحركة والتموّج واذا خفّ الساكن لم يجد الهواء معينا على حركته وتموّجه فيبقى راكدا وعظم عفنه وكثر ضرره وبلد قابس هذه كانت عند ما كانت افريقية مستبحرة (1) العمران كثيرة الساكن تموج باهلها موجا فكان ذلك

(1) Man. A. et B. مستجدة. C. مستحرة.

معينا على تموّج الهواء واضطرابه وتخفيف الاذى منه فلم يكن فيها كبير عفن ولا مرض وعند ما خفّ ساكنها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها فكثر العفن والمرض هذا وجهه لا غير ذلك وقد راينا عكس ذلك فى بلاد وضعت ولم يراع فيها طيب الهواء وكانت اولا قليلة الساكن فكانت امراضها كثيرة فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك وهذا مثل دار الملك بفاس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد وكثير من ذلك فى العالم فتفهّمه تجد ما قلته لك وقد ذهب لهذا العهد القريب فساد الهواء من قابس وزال عفنها لما حاصرها سلطان تونس وقطع الغابة من النخيل التى كانت محيطة بها فانفرج جانب منها وتموّج الهواء المحيط بها وتخلّلته الرياح فذهب منه العفن والله مصرّف الامور (واما) جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيها امور (منها) الماء وان يكون البلد على نهر او بازائها عيون عذبة ثرة فانّ وجود الماء قريبا من البلد مسهّل على الساكن حاجة الماء وهى ضروريّة فيكون لهم فى وجوده مرفقة عامّة (ومنها) يراعى من المرافق فى المدن طيب المراعى لسائمتهم اذ صاحب كل قرار لا بدّ له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ولا بدّ لها من المرعى فاذا كان قريبا طيّبا كان ذلك ارفق لهم ممّا يعانون من المشقّة فى بعده (ومنها)

يراعى ايضا المزارع فان الزرع هو القوت فاذا كانت مزارع البلد
بالقرب منها كان ذلك اسهل فى اتّخاذه واقرب فى
تحصيله (ومن) ذلك الشعراء للحطب والبناء فان الحطب
ممّا تعمّ البلوى فى اتّخاذه لوقود النيران للاصطلاء والخشب
ايضا ضرورىّ لسقفهم وكثير ممّا يستعمل فيه الخشب من
ضروراتهم (وقد) يراعى ايضا قربها من البحر لتسهيل الحاجات
القصية من البلاد النائية الّا ان ذلك ليس بمثابة الاول وهذه كلّها
متفاوتة بتفاوت الحاجة وما تدعو اليه ضرورة الساكن
(وقد) يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعىّ
وانّما يراعى ما هو اهمّ على نفسه او قومه ولا يذكر حاجة
غيرهم كما فعله العرب لاول الاسلام فى المدن التى اختطّوها
بالعراق والحجاز وافريقية فانّهم لم يراعوا فيها الا المهمّ عندهم
من مراعى الابل وما يصلح لها من الشجر والماء الملح ولم
يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعى السائمة من
ذوات الظلف ولا غير ذلك كالقيروان والكوفة والبصرة
وسجلماسة وامثالها ولهذا كانت اقرب الى الخراب لما
لم يراع فيها الامور الطبيعيّة (فصل) وممّا يراعى فى البلاد
الساحليّة التى على البحر ان تكون فى جبل او تكون
بين امّة من الامم موفورة العدد يكون صريخا للمدينة متى
طرقها طارق من العدوّ والسبب فى ذلك ان المدينة اذا

كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل اهل العصبيات ولا موضعها فى متوعّر من الجبال كانت فى غرّة للبيات وسهل طروقها فى الاساطيل البحريّة على عدوّها وتحيفه (1) لها لما يأمن وجود الصريخ لها وانّ الحضر المعوّدين للدعة قد صاروا عيالا وخرجوا عن حكم المقاتلة وهذا كالاسكندرية من المشرق وطرابلس من المغرب وبونة وسلا ومتى كانت القبائل والعصبيات موطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنفير وكانت متوعّرة المسالك على من يرومها باختطاطها فى هضاب الجبال وعلى اسنمتها كان لها بذلك منعة من العدوّ ويئسون من طروقها لما يكودهم من وعرها وما يتوقّعونه من اجابة صريخها كما فى سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها فافهم ذلك واعتبره فى اختصاص الاسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسيّة مع ان الدعوة كانت من ورائها ببرقة وافريقية وانما اعتبر فى ذلك المخافة المتوقّعة من البحر لسهولة وضعها ولذلك والله اعلم كان طروق العدوّ للاسكندرية وطرابلس فى الملة مرّات متعدّدة

(1) Man. D. يخيفه.

فصل فى المساجد والبيوت المعظّمة فى العالم

اعلم ان الله سبحانه وتعالى فضّل من الارض بقاعا اختصّها بتشريفه وجعلها مواطن لعبادته يضاعف فيها الثواب وتنمو بها الاجور واخبرنا بذلك على السنة رسله وانبيائه لطفا بعباده وتسهيلا لطرق السعادة بهم وكانت المساجد الثلاثة هى افضل بقاع الارض فيما علمناه حسبما ثبت فى الصحيحين وهى مكّة والمدينة وبيت المقدس فمكّة بيت ابراهيم صلوات الله عليه امره الله ببنائه وان يؤذن فى الناس بالحجّ اليه فبناه هو وابنه اسماعيل كما قصّه القران العظيم وقام بما امره الله فيه وسكن اسماعيل به مع هاجر ومن نزل معهم من جرهم الى ان قبضهما الله ودفنا بالحجر منها وبيت المقدس هو بيت داود وسليمان عليهما السلام امرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ودفن كثير من الانبياء من ولد اسحق عليه السلام حواليه والمدينة مهاجر نبينا صلعم امره الله بالهجرة اليها واقامة دين الاسلام بها ومنها فبنى مسجده الحرام بها وكان ملحده الشريف فى تربتها فهذه المساجد الشريفة الثلاثة قرّة عين المسلمين ومهوى افئدتهم وعصمة دينهم وفى الآثار من فضلها ومضاعفة الثواب فى مجاورتها والصلاة فيها كثير معروف فلنشر الى شئ من الخبر عن اوليّة هذه المساجد

الثلاثة وكيف تدرّجت احوالها الى ان كمل ظهورها فى العالم (فامّا مكّة) فاوليّتها فيها يقال ان ادم صلعم بناها قبالة البيت المعمور ثم هدمها الطوفان بعد ذلك وليس فيه خبر صحيح يعوّل عليه وانّما اقتبسوه من محتمل الآية فى قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت ثم بعث الله ابراهيم وكان من شانه وشأن زوجته سارة وغيرتها من هاجر ما هو معروف واوحى الله اليه ان يفارق هاجر ويغربها مع ابنها اسماعيل الى فاران وهى جبال مكّة (1) ممّا وراء الشام وبلد ايلة فاخرجها الى هناك ولحقت بمكان البيت وادركها العطش وكيف الله لهما من اللطف فى نبع ماء من زمزم ومرور الرفقة من جرهم بهما حتى احتملوهما وسكنوا اليهما ونزلوا معهما حوالى زمزم كما عرف فى موضعه فاتّخذ اسماعيل بموضع الكعبة بيتا يأوى اليه وادار عليه سياجا من الدوم وجعله زربا لغنمه وجاء ابراهيم صلعم مرارا لزيارته من الشام امر فى آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب فبناه واستعان فيه بابنه اسماعيل ودعا الناس الى حجّه وبقى اسماعيل ساكنا به ولما قبضت امّه هاجر دفنها فيه ولم يزل قائما بخدمته الى ان قبضه الله تعالى ودفن مع امّه هاجر واقام بنوه بامر البيت مع اخوالهم من جرهم ثم العمالقة من بعدهم واستمرّ

(1) Les manuscrits C. et D. portent : ابنه اسماعيل وامّه ان ينزل (يترك) هاجر بالفلاة فوضعها فى مكان البيت وسار عنهما وكيف الله لهما من اللطف فى نبع ماء بئر زمزم

الحال على ذلك والناس يهوون اليها من كل افق من جميع اهل الارض من الخليقة لا من بنى اسماعيل ولا من غيرهم ممّن دنا او نأى فقد نقل ان التبابعة كانت تحجّ البيت وتعظّمه وان تبع الذى يسمّى تُبار اسعد ابا كوب كساها الملاء والوصائل وامر بتطهيرها وجعل لها مفتاحا ونقل ايضا ان الفرس كانت تحجّه وتقرب اليه وان غزالى الذهب الذين وجدهما عبد المطلب حين احتفر زمزم كانا من قرابينهم ولم تزل لجرهم الولاية عليه بعد بنى اسماعيل ومن قبل خولتهم حتى اخرجتهم خزاعة واقاموا بها بعدهم ما شاء الله ثم كثر ولد اسماعيل وانتشروا وتشعّبوا الى كنانة ثم كنانة الى قريش وغيرهم وساءت ولاية خزاعة فغلبتهم قريش على امره واخرجوهم من البيت وملكوها وعليهم يومئذ قصى بن كلاب فبنى البيت وسقفها بخشب الدوم وجريد النخل قال الاعشى

حلفت بثوبى راهب والتى   بناها قصى وحده وابن جرهم

(ثم) اصاب البيت سيل فى ولايتهم ويقال حريق وتهدّم فاعادوا بناءه وجمعوا النفقة لذلك من اموالهم وانكسرت سفينة بساحل جدّة فاشتروا خشبها للسقف وكانت جدرانه فوق القامة فجعلوها ثمانية عشر ذراعا وكان الباب لاصقا بالارض فجعلوه فوق القامة لئلا تدخله السيول وقصرت بهم النفقة عن اتمامه فقصروا عن قواعده وتركوا منه ستّة

اذرع وشبرا اداروها بجدار قصير يطاف من ورائه وهو الحجر وبقى البيت على هذا البناء الى ان تحصّن ابن الزبير بمكّة حين دعا لنفسه وزحفت اليه جيوش يزيد بن معاوية مع الحصين بن نمير السكونى سنة اربع وستّين فاصابه حريق يقال من النفط الذى رموا به على ابن الزبير فتصدّعت حيطانه فهدمه ابن الزبير واعاد بناءه احسن ما كان بعد ان اختلف عليه الصحابة فى بنائه واحتجّ عليهم بقول رسول الله صلعم لعائشة لولا قومك حديثو عهد بكفر لرددت البيت على قواعد ابراهيم ولجعلت له بابين شرقيّا وغربيّا فهدمه وكشف عن اساس ابراهيم عليه السلام وجمع الوجوه والاكابر حتى عاينوه واشار عليه ابن عباس بالتحرّى فى حفظ القبلة على الناس فادار على الاساس الخشب ونصب من فوقها الستور حفظا للقبلة وبعث الى صنعاء فى القصّة والكلس فجلبها وسأل عن مقطع الحجارة الاول فجمع منها ما احتاج اليه ثم شرع فى البناء على اساس ابراهيم ورفع جدرانها سبعا وعشرين ذراعا وجعل لها بابين لاصقين بالارض كما روى فى حديثه وجعل فرشها وازرها بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصفائح الابواب من الذهب ثم جاء الحجاج لحصاره ايام عبد الملك ورمى على المسجد بالمنجنيقات الى ان تصدّعت حيطانه ثم لما ظفر بابن

الزبير شاور عبد الملك فيما بناه وزاده فى البيت فامر
بهدمه وردّ البيت على قواعد قريش كما هى اليوم ويقال
انه ندم على ذلك حين علم صحّة رواية ابن الزبير
لحديث عائشة وقال وددت انّى كنتُ حملت ابا حبيب
من امر البيت وبنائه ما تحمل فهدم الحجاج منها ستّة
اذرع وشبرا مكان الحجر وبناها على اساس قريش وسدّ
الباب الغربى وما تحت عتبة بابها اليوم من الباب
الشرقىّ وترك سائرها لم يغيّر منه شئًا فكل بناء فيها اليوم
بناء ابن الزبير وبين بنائه وبناء الحجاج فى الحائط صلة
ظاهرة للعيان لحمة بين البنائين والبناء متبر عن البناء بمقدار
اصبع شبه الصدع وقد لحم ويعرض هناك اشكال قوى
لمنافاته لما يقوله الفقهاء فى امر الطواف وتحرّز الطائف ان
يميل على الشاذروان الدائر باساس الجدر من اسفلها فيقع طوافه
داخل البيت بناءً على ان الجدار انّما قام على
بعض الاساس وترك بعضه وهو مكان الشاذروان
وكذا قالوا فى تقبيل الحجر الاسود لا بدّ
من رجوع الطائف من التقبيل الى ان يستوى قائما
لئلا يقع بعض طوافه داخل البيت واذا كان الجدران كلها
من بناء ابن الزبير وهو انّما بنى على اساس ابراهيم فكيف
يقع هذا الذى قالوه ولا مخلص من ذلك الا باحد امرين

اما ان يكون الحجاج هدمه جميعه واعاده وقد نقل ذلك جماعة الا ان العيان فى شواهد البناء بالتحام ما بين البنائين وتمييز احد الشقين من اعلاه عن الاخر فى الصناعة يردّ ذلك وامّا ان يكون ابن الزبير لم يردّ البيت على اساس ابراهيم من جميع جهاته وانّما فعل ذلك فى الحجر فقط ليدخله فهى الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد ابراهيم وهذا بعيد ولا محيص عن هذين والله اعلم ثم ان ساحة البيت وهو المسجد كان فضاء للطائفين ولم يكن عليه جدار ايام النبى صلعم وابى بكر من بعده ثم كثر الناس فاشترى عمر دورا هدمها وزادها فى المسجد وادار عليه جدارا دون القامة وفعل مثل ذلك عثمان ثم ابن الزبير ثم الوليد بن عبد الملك وبناه بعمد الرخام ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدى من بعده ووقفت الزيادة واستقرّ على ذلك لعهدنا وتشريف الله لهذا البيت وعنايته اعظم من ان يحاط به وكفى من ذلك ان جعله مهبطا للوحى والملائكة ومكانا للعبادة وفرض فيه شعائر الحجّ ومناسكه واوجب لحرمه من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحقّ ما لم يوجبه لغيره فمنع من خالف دين الاسلام من دخول ذلك الحرم واوجب على داخله ان يتجرّد من المخيط الا ازارا يستره وحمى العائذ به والراتع فى مساربه من مواقع

الآفات فلا يراع فيه خائف ولا يصاد له وحش ولا يحتطب
له شجر وحدّ الحرم الذى يختصّ بهذه الحرمة من طريق
المدينة ثلاثة اميال الى التنعيم (1) ومن طريق العراق سبعة اميال
الى ثنية جبل المنقطع (2) ومن طريق الجعرانة تسعة اميال الى
الشعب ومن طريق الطايف سبعة اميال الى بطن نمرة ومن
طريق جدّة عشرة اميال الى منقطع العشائر هذا شأن مكّة
وخبرها وتسمّى امّ القرى وتسمّى الكعبة لعلوها من اسم
الكعب ويقال لها ايضا بكّة قال الاصمعى لانّ الناس يبك
بعضهم بعضا اليها اى يدفع وقال مجاهد انّما هى باء بكّة
ابدلوها ميما كما قالوا لازم ولازب لقرب المخرجين وقال
النخعى بل بالباء للبيت وبالميم للبلد وقال الزهرى بالباء
للمسجد كله وبالميم للحرم وقد كانت الامم منذ عهد
الجاهليّة تعظمه والملوك تبعث اليه بالاموال والذخائر كسرى
وغيره وقصّة الاسياف وغزالى الذهب التى وجدها عبد
المطلب حين احتفر زمزم معروفة وقد وجد رسول الله
صلعم حين افتتح مكّة فى الجبّ الذى كان فيها سبعين
الف اوقية من الذهب ممّا كان الملوك تهدى الى
البيت قيمتها الفا الف دينار اثنان مكرّرة مرّتين بمائتى قنطار
وزنا وقال له على بن ابى طالب يا رسول الله لو استعنت

(1) Man. C. السعيم. (2) Man. A. المنقطع. D. منقطع.

بهذا المال على حربك فلم يفعل ثم ذكر لابى بكر فلم يحركه هكذا قال الازرقى وفى البخارى بسنده الى ابى وايل جلست الى شيبة بن عثمان وقال جلس الى عمر بن الخطاب فقال هممت ان لا ادع فيها صفراء ولا بيضاء الا قسمتها بين المسلمين قلت ما انت بفاعل قال فلم قلت لم يفعل صاحباك قال هما المرءان يقتدى بهما وخرّجه ابو داود وابن ماجة واقام ذلك المال الى ان كانت فتنة الافطس وهو الحسين بن الحسين بن على بن على زين العابدين سنة تسع وتسعين ومائة حين غلب على مكّة عمد الى الكعبة فاخذ ما فى خزائنها وقال ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعا فيها لا ينتفع به نحن احقّ به نستعين به على حربنا واخرجه وتصرّف فيه وبطلت الذخيرة من الكعبة من يومئذ (واما بيت المقدس) وهو المسجد الاقصى فكان اول امره ايام الصابية موضعا لهيكل الزهرة وكانوا يقربون اليه الزيت فيما يقربونه ويصبّونه على الصخرة التى هناك ثم دثر ذلك الهيكل واتّخذوها بنو اسرائيل حين ملكوها قبلة لصلوتهم وذلك ان موسى صلوات الله عليه لما خرج ببنى اسرائيل من مصر ليملكهم بيت المقدس كما وعد الله اباهم اسرائيل واباه اسحق ويعقوب من قبله واقاموا بارض التيه امره الله

باتّخاذ قبّة من خشب السنط عيّن بالوحى مقدارها وصفتها وهياكلها وتماثيلها وان يكون فيها تابوت ومائدة بصحافها ومنارة بقناديلها وان يصنع مذبحا للقربان ووصف ذلك كلّه فى التوراة اكمل وصف فصنع القبّة ووضع فيها تابوت العهد وهو التابوت الذى فيه الالواح المصنوعة عوضا من الالواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسّرت ووضع المذبح عندها وعهد الله الى موسى بان يكون هرون صاحب القربان ونصبوا تلك القبّة بين خيامهم فى التيه يصلّون اليها ويقربون فى المذبح امامها ويتوجّهون للوحى عندها ولما ملكوا ارض الشام انزلوها بكلكال من بلاد الارض المقدّسة ما بين قسم بنى يامين وبنى افرايم وبقيت هنالك اربع عشرة سنة سبعا مدّة الحرب وسبعا بعد الفتح ايام قسمة البلاد ولما توفّى يوشع عليه السلام نقلوها الى بلد شيلو قريبا من كلكال وادارو عليها الحيطان واقامت على ذلك ثلثماية سنة حتى ملكها بنو فلشطين من ايديهم كما مرّ وتغلّبوا عليهم ثم ردّوا عليهم القبّة ونقلوها بعد وفاة عالى الكوهن الى نوف ثم نقلت ايام طالوت الى كنعون فى بلاد بنى يامين ولما ملك داود عليه السلام نقل القبّة والتابوت الى بيت المقدس وجعل عليها خباء خاصّا ووضعها على الصخرة وبقيت تلك القبّة قبلتهم واراد داود

عليه السلام بناء مسجد على الصخرة مكانها فلم يتمّ له ذلك وعهد به الى ابنه سليمان فبناه لاربع سنين من ملكه ولخمسماية سنة من وفاة موسى عليه السلام واتّخذ عمدة من الصفر وجعل فيه صرح الزجاج وغشى ابوابه وحيطانه بالذهب وصاغ هياكله وتماثيله واوعيته ومناوره ومفاتيحه من الذهب وجعل ظهره مقبو ليودع فيه تابوت العهد وجاء به من صهيون بلد ابيه داود نقله اليها ايام عمارة المسجد فجئ به تحمله الاسباط والكهنونيّة حتى وضع فى القبو ووضعت القبّة والاوعية والمذبح كل حيث اعدّ له من المسجد واقام كذلك ما شاء الله ثم خربه بخت نصر بعد ثمانماية سنة من بنائه واحرق التوراة والعصا وسبك الهياكل ونثر الاحجار ثم لما اعادهم ملوك الفرس بناه عزير من بنى اسرائيل لعهده باعانة بهمن ملك الفرس الذى كانت الولادة (1) لبنى اسرائيل عليه من سبى (2) بخت نصر وحدّ لهم فى بنائه حدودا دون بناء سليمان عليه السلام فلم يتجاوزها (وامّا) الاواوين التى تحت المسجد يركب بعضها بعضا عمود الاعلى منها على قوس الاسفل فى طبقتين ويتوهّم كثير من الناس انها اصطبلات سليمان عليه السلام وليس كذلك وانّما بناها تنزيها للبيت المقدس عما يتوهّم

(1) Man. B. الولاية.

(2) Man. A. et D. سنى.

من النجاسة لان النجاسات فى شريعتهم وان كانت فى باطن الارض وكان ما بينها وبين ظاهر الارض محشوا بالتراب بحيث يصل ما بينها وبين الظاهر خطّ مستقيم ينجس ذلك الظاهر بالتوهّم والمتوهّم عندهم كالمحقّق فبنوا هذه الاواوين على هذه الصورة بعمود الاواوين السفليّة تنتهى الى اقواسها وينقطع خطّه فلا تتّصل النجاسة بالاعلى على خطّ مستقيم وتنزه البيت عن هذه النجاسة المتوهّمة ليكون ذلك ابلغ فى الطهارة والتقديس ثم تداولتهم ملوك يونان والفرس والروم واستفحل الملك لبنى اسرائيل فى هذه المدد لبنى حشمنّاى من كهونيتهم ثم لصهرهم هيرودس ولبنيه من بعدهم وبنى هيرودس بيت المقدس على حدود سليمان عليه السلام وتأنّق فيه حتى اكمله فى ستّ سنين فلما جاء طيطش من ملوك الروم وغلبهم وملك امرهم خرب بيت المقدس ومسجدها وامر ان يزرع مكانه ثم اخذ الروم بدين المسيح عليه السلام ودانوا بتعظيمه ثم اختلف حال ملوك الروم فى الاخذ بدين النصرانيّة تارة وتركه اخرى الى ان جاء قسطنطين وتنصّرت امّه هلاية وارتحلت الى القدس فى طلب الخشبة التى صلب عليها المسيح بزعمهم فاخبروها القهامسة بانه رمى بخشبته على الارض والقى عليه القمامات والقاذورات فاستخرجت الخشبة وبنت مكان تلك

القمامات كنيسة القمامة كانّها على قبره بزعمهم وخربت ما
وجدت من عمارة البيت وامرت بطرح الزبل والقمامات على
الصخرة حتى غطاها وخفى مكانها جزاء بزعمها عمّا فعلوه
من قبر المسيح ثم بنوا ازاء القمامة بيت لحم وهو البيت
الذى ولد فيه عيسى عليه السلام وبقى الامر كذلك الى
ان جاء الاسلام والفتح وحضر عمر لفتح بيت المقدس
وسأل عن الصخرة فارى مكانها وقد علاها الزبل والتراب
فكشف عنها وبنى عليها مسجدا على طريق البداوة
وعظم من شأنه ما اذن الله فى تعظيمه وما سبق فى امّ
الكتاب من فضله حسبما ثبت (ثم) احتفل الوليد بن عبد
الملك فى تشييد مسجده على سنن مساجد الاسلام بما
شاء الله من الاحتفال كما فعل فى المسجد الحرام وفى مسجد
النبى صلعم بالمدينة وفى مسجد دمشق وكانت العرب
تسمّيه بلاط الوليد والزم ملك الروم ان يبعث الفعلة والمال
لبناء هذه المساجد وان ينمقوها بالفسيفساء فاطاع لذلك
وتمّ بناؤها على ما اقترحه (ثم) لما ضعف امر الخلافة اعوام
الخمسماية من الهجرة وفى آخرها وكانت فى ملكة
العبيديّين خلفاء القاهرة من الشيعة واختلّ امرهم زحف
الفرنجة الى بيت المقدس فملكوه وملكوا معه عامّة ثغور
الشام وبنوا على الصخرة المقدّسة منه كنيسة كانوا يعظّمونها

ويفتخرون ببنائها حتى اذا استقلّ صلاح الدين بن ايوب الكردى بملك مصر والشام ومحى اثر العبيديّين وبدعهم زحف الى الشام وجاهد من كان به من الفرنجة حتى غلبهم على البيت المقدّس وعلى ما كانوا ملكوه من ثغور الشام وذلك لنحو ثمانين وخمسماية من الهجرة وهدم تلك الكنيسة واظهر الصخرة وبنى المسجد على النحو الذى هو عليه لهذا العهد (ولا) يعرض لك الاشكال المعروف فى الحديث الصحيح ان النبى صلعم سئل عن اول بيت وضع فقال مكّة فقيل ثم اىّ قال بيت المقدس قيل فكم بينهما قال اربعون سنة فانّ المدّة بين بناء مكّة وبناء بيت المقدس بمقدار ما بين ابراهيم وسليمان لان سليمان بانيها وهو ينيف على الالف بكثير واعلم ان المراد بالوضع فى الحديث ليس البناء والمراد انما اول بيت عيّن للعبادة ولا يبعد ان يكون بيت المقدس عيّن للعبادة قبل سليمان بمثل هذه المدّة وقد نقل ان الصابية بنوا على الصخرة هيكل الزهرة فلعلّ ذلك لانّها كانت مكانا للعبادة كما كانت الجاهليّة تضع الاصنام والتماثيل حول (1) الكعبة وفى جوفها والصابية الذين بنوا هيكل الزهرة كانوا على عهد ابراهيم عليه السلام فلا تبعد مدّة الاربعين سنة بين وضع مكّة للعبادة ووضع

(1) Man. C. حوالى.

بيّت المقدس وان لم يكن هناك بناء كما هو المعروف وان اول من بنى بيت المقدس سليمان عليه السلام فتفهّمه وفيه حلّ هذا الاشكال (واما المدينة المنوّرة) وهى المسمّاة يثرب فهى من بناء يثرب بن المهلايل من العمالقة وبه سمّيت وملكها بنو اسرائيل من ايديهم فيما ملكوه من ارض الحجاز ثم جاورهم ابناء قيلة من غسان وغلبوهم عليها وعلى حصونها ثم امر النبى صلعم بالهجرة اليها لما سبق من عناية الله لها فهاجر اليها ومعه ابو بكر وتبعه اصحابه ونزل بها وبنى مسجده وبيوته فى الموضع الذى قد كان الله اعدّه لذلك وشرّفه فى سابق ازله واواه ابناء قيلة ونصروه وبذلك سمّوا الانصار وتمّت كلمة الاسلام من المدينة حتى علت على الكلمات وغلب على قومه وفتح مكّة وملكها وظنّ الانصار انّه يتحوّل عنهم الى بلده فاهمّهم ذلك فخطبهم صلعم واخبرهم انه غير متحوّل حتى اذا قبض صلعم كان ملحده الشريف بها وجاء فى فضلها من الاحاديث الصحيحة ما لا خفاء به ووقع الخلاف بين العلماء فى تفضيلها على مكّة وقال به مالك رحمه الله لما ثبت عنده فى ذلك من النصّ الصريح عن رافع بن خديج ان النبى صلعم قال المدينة خير من مكّة نقل ذلك عبد الوهّاب فى المعونة الى احاديث اخرى تدلّ بظاهرها على

ذلك وخالف ابو حنيفة والشافعى واصبحت على كل حال ثانية المسجد الحرام وجنح اليها الامم بافئدتهم من كل اوب فانظر كيف تدرّجت الفضيلة فى هذه المساجد المعظّمة لما سبق من عناية الله لها وتفهّم سرّ الله فى الكون وتدريجه على ترتيب محكم فى امور الدين والدنيا (واما) غير هذه المساجد الثلاثة فلا نعلمه فى الارض الا ما يقال من شأن مسجد ادم عليه السلام بسرنديب من جزائر الهند لكنّه لم يثبت فيه شئ يعول عليه وقد كانت للامم فى القديم مساجد يعظّمونها على جهة الديانة بزعمهم منها بيوت النار للفرس وهياكل يونان وبيوت العرب بالحجاز التى امر النبى صلعم بهدمها فى غزوانه وقد ذكر المسعودى منها بيوتا لسنا من ذكرها فى شئ اذ هى غير مشروعة ولا هى على طريق دينى فلا يلتفت اليها ولا الى الخبر عنها ويكفى فى ذلك ما وقع فى التواريخ فمن اراد معرفة الاخبار فعليه بها والله يهدى من يشاء

فصل فى ان الامصار والمدن بافريقية والمغرب قليلة

والسبب فى ذلك ان هذه الاقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الاسلام وان كان عمرانها كله بدويّا ولم تستمرّ فيهم الحضارة حتى يستكمل احوالها والدول التى

ملكتهم من الافرنجة والعرب لم يطل امد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها فلم تزل عوائد البداوة وشؤنها فكانوا لها اقرب فلم تكثر مبانيهم وايضا فالصنائع بعيدة عن البربر لانهم اعرق (1) فى البدو والصنائع من توابع الحضارة وانّما تتمّ المبانى بها فلا بدّ من الحذق فى تعلّمها ولما لم يكن للبربر انتحال لها لم يكن لهم تشوّف الى المبانى فضلا عن المدن وايضا فهم اهل عصبيّات وانساب (2) لا يخلو عن ذلك جمع منهم والانساب والعصبيّة اجنح الى البدو وانّما يدعو الى المدن الدعة والسكون ويصير ساكنها عيالا على حاميتها فتجد اهل البدو كذلك يستنكفون من سكنى المدينة او المقامة (3) بها ولا يدعوهم الى ذلك الا الترف والغنى وقليل ما هو فى الناس فلذلك كان عمران افريقية والمغرب كله او اكثره بدويّا اهل خيام وظواعن وقياطن وكنن فى الجبال وكان عمران بلاد العجم كله او اكثره قرى وامصار ورساتيق فى بلاد الاندلس والشام ومصر وعراق العجم وامثالها لان العجم فى الغالب ليسوا باهل انساب يحافظون عليها ويتناغون فى صراحتها والتحامها الا فى الاقلّ واكثر ما يكون سكنى البدو لاهل الانساب لان لحمة النسب اقرب واشدّ فتكون عصبيّته كذلك وتنزع بصاحبها

(1) Man. D. اغرق. (2) Man: D. الانتساب. (3) Ibid. المعاملة.

الى سكنى البدو والتجافى عن المصر الذى يذهب بالبسالة ويصيره عيالا على غيره فافهمه وقس عليه

فصل فى ان المبانى والمصانع فى الملّة الاسلاميّة قليلة بالنسبة الى قدرتها (1) ومن كان قبلها من الدول

والسبب فى ذلك ما ذكرنا مثله (2) فى البربر بعينه اذ العرب ايضا اعرق (3) فى البدو وابعد عن الصنائع وايضا فكانوا اجانب من الممالك التى استولوا عليها قبل الاسلام ولمّا تملكوها لم ينفسح الامر حتى تستوفى رسوم الحضارة مع انّهم استغنوا بما وجدوا من مبانى غيرهم وايضا فكان الدين اول الامر مانعا من المغالاة فى البنيان والاسراف فيه من غير القصد كما عهد لهم عمر حين استأذنوه فى بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق فى القصب الذى كانوا بنوا به من قبل فقال افعلوا ولا يزيدن احد على ثلاثة ابيات ولا تطاولوا فى البنيان والزموا السنّة تلزمكم الدولة وعهد الى الوفد وتقدّم الى الناس ان لا يرفعوا بنيانا فوق القدر قالوا وما القدر قال ما لا يقرّبكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد فلما بعد العهد بالدين والتحرّج فى امثال هذه المقاصد وغلبت طبيعة الملك والترف واستخدم العرب امّة الفرس

(1) Man. C. قدرها. (2) Man. D. شأنه. (3) Ibid. اغرق.

واخذوا عنهم الصنائع والمباني ودعتهم اليها احوال الدعة والترف وحينئذ شيّدوا المباني والمصانع وكان عهد ذلك قريبا بانقراض الدولة ولم ينفسح الامر لكثرة البناء واختطاط المدن والامصار الا قليلا وليس كذلك غيرهم من الامم فالفرس طالت مدّتهم آلافا من السنين وكذلك القبط والنبط والروم وكذلك العرب الاول من عاد وثمود والعمالقة والتتابعة طالت آمادهم ورسخت الصنائع فيهم فكانت مبانيهم وهياكلهم اكثر عددا وابقى على الايام اثرا واستبصر فى هذا تجده كما قلت لك والله وارث الارض ومن عليها

فصل فى ان المباني التى تختطّها العرب يسرع اليها الخراب الّا فى الاقلّ

والسبب فى ذلك شأن البداوة والبعد عن الصنائع كما قدّمناه فلا تكون المباني وثيقة فى تشييدها وله والله اعلم وجه اخر وهو امسّ به وذلك قلّة مراعاتهم لحسن الاختيار فى اختطاط المدن كما قلناه من المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعى فان بالتفاوت فى هذه تتفاوت جودة المصر او رداءته من حيث العمران الطبيعىّ والعرب بمعزل عن هذا وانّما يراعون مراعى ابلهم خاصّة لا يبالون

بالماء طاب ام خبث ولا قل ام كثر ولا يسألون عن زكى المزارع والمنابت والاهوية لانتقالهم فى الارض ونقلهم الحبوب من البلد البعيد واما الرياح فالقفر مختلف للمهابّ كلها والظعن كفيل لهم بطيبها لان الرياح انّما تخبث مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات وانظر لما اختطّوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا فى اختطاطها الا مراعى ابلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعىّ للمدن ولم تكن لها مادّة تمدّ عمرانها من بعدهم كما قدّمنا بانه يحتاج اليه فى حفظ العمران فقد كانت مواطنهم غير طبيعيّة للقرار ولم تكن فى وسط الامم فيعمرها الناس فلاول وهلة من انحلال امرهم وذهاب عصبيّتهم التى كانت سياجا لها اتى عليها الخراب والانحلال كان لم تكن والله يحكم لا معقب لحكمه

فصل فى مبادى الخراب فى الامصار

اعلم ان الامصار اذا اختطّت اولا تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والكلس وغيرهما مما يعالى على الحيطان عند التأنّق كالزليج والرخام والفسيفساء والسبج والصدف والزجاج فيكون بناؤها يومئذ بدويّا وآلاتها فاسدة

فاذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت آلاتها بكثرة الاعمال حينئذ وكثرة الصنّائع الى ان تبلغ غايتها من ذلك كما سبق فى شأنها فاذا تراجع عمرانها وقلّ ساكنها قلّت الصنائع لاجل ذلك ففقدت الاجادة فى البناء والاحكام والمعالاة عليه بالتنميق ثم تقلّ الاعمال لعدم الساكن فيقلّ جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما فتفقد ويصير بناؤهم وتشييدهم من الآلات التى فى مبانيهم ينقلونها من مصنع الى مصنع لاجل خلاء اكثر المصانع والقصور والمنازل لقلّة العمران وقصوره عمّا كان اولا ثم لا تزال تنقل من قصر الى قصر ومن دار الى دار الى ان يفقد الكثير منها جملة فيعودون الى البداوة فى البناء واتّخاذ الطوب عوضا عن الحجارة والقصور عن التنميق بالكلّيّة فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمداشر ويظهر عليها ميسم (1) البداوة ثم تمرّ فى التناقص الى غايتها فى الخراب ان قدر لها به سنّة الله تعالى فى خلقه

فصل فى ان تفاضل الامصار والمدن فى كثرة الرفه ونفاق الاسواق وانّما هو بتفاضل عمرانها فى الكثرة والقلّة

والسبب فى ذلك انه قد عرف وثبت ان الواحد من

(1) Man. C. et D. سيماء.

البشر غير مستقلّ بتحصيل حاجاته فى معاشه وانهم متعاونون جميعا فى عمرانهم على ذلك والحاجة التى تحصل بتعاون طائفة منهم تسدّ ضرورة الاكثر من عددهم اضعافا فالقوت من الحنطة مثلا لا يستقل الواحد بتحصيل حصّته منه واذا انتدب لتحصيله الستّة او العشرة من حدّاد ونجّار للآلات وقائم على البقر واثارة الارض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح وتوزّعوا على تلك الاعمال او اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت فانه حينئذ قوت لاضعافهم مرّات فالاعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم واهل مدينة او مصر اذا وزعت اعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالاقلّ من تلك الاعمال وبقيت الاعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف فى حالات الترف وعوائده وما يحتاج اليه غيرهم من اهل الامصار ويستجلبونه منهم باعواضه وقيمته فيكون لهم بذلك حظّ من الغنى وقد يتبيّن لك فى الفصل الخامس فى باب الكسب والرزق ان المكاسب انّما هى قيَم الاعمال فاذا كثرت الاعمال كثرت قيمتها بينهم فكثرت مكاسبهم ضرورة ودعتهم احوال الرّفه والغنى الى الترف وحاجاته من التأنّق فى المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتّخاذ الخدم والمراكب وهذه

كلها اعمال تستدعى بقيمتها ويختار المهرة فى صناعتها والقيام عليها فتنفق اسواق الاعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه ويحصل اليسار لمنتحلى ذلك من قبل اعمالهم ومتى زاد العمران زادت الاعمال ثانية ثم زاد الترف تابعا للكسب وزادت عوائده وحاجاته واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمتها وتضاعف الكسب فى المدينة لذلك ثانية ونفق سوق الاعمال بها اكثر من الاول وكذا فى الزيادة الثانية والثالثة لان الاعمال الزائدة كلها تختصّ بالترف والغنى بخلاف الاعمال الاصليّة التى تختصّ بالمعاش فالمصر اذا فضل المصر بعمران واحد فضله بزيادة كسب ورفه وبعوائد من الترف لا توجد فى الاخر فما كان عمرانه من الامصار اكثر واوفر كان حال اهله فى الترف ابلغ من حال المصر الذى دونه على وتيرة واحدة فى الاصناف القاضى مع القاضى والتاجر مع التاجر والصانع مع الصانع والسوقىّ مع السوقىّ والامير مع الامير والشرطىّ مع الشرطىّ واعتبر ذلك فى المغرب مثلا بحال فاس مع غيرها من امصاره الاخرى مثل بجاية وتلمسان وسبتة تجد بينهما بونا كثيرا على الجملة ثم على الخصوصيّات فحال القاضى بفاس اوسع من حال القاضى بتلمسان وكذا كل صنف مع اهل صنفه وكذا ايضا حال تلمسان مع وهران والجزائر وحال

وهران والجزائر مع ما دونها الى ان ينتهى الى الهداشر الذين اعتمالهم فى ضرورات معاشهم فقط او يقصرون عنها وما ذاك الا لتفاوت الاعمال فيها فكانّها كلّها اسواق للاعمال والخرج فى كل سوق على نسبته فالقاضى بفاس دخله كفاء خرجه وكذا القاضى بتلمسان وحيث الدخل والخرج اكثر تكون الاموال اعظم واوسع وهما بفاس اكثر لنفاق سوق (1) الاعمال بما يدعو اليه الترف فالاحوال اضخم ثم هكذا حال وهران وقسطنطينة والجزائر وبسكرة حتى تنتهى كما قلنا الى الامصار التى لا تفى اعمالها بضروراتها ولا تعدّ فى الامصار اذ هى من قبيل القرى والمداشر فلذلك ما نجد اهل هذه الامصار الصغيرة ضعفاء الحال متقاربين فى الفقر والخصاصة لما ان اعمالهم لا تفى بضروراتهم ولا يفضل لهم ما يتأثّلونه كسبا فلا تنمو مكاسبهم فهم لذلك محاويج مساكين الا فى الاقلّ النادر واعتبر ذلك حتى فى احوال الفقراء والسُوّال فان السائل بفاس احسن حالا من السائل بتلمسان او وهران ولقد شاهدت بفاس السُوّال يسألون ايام الاضاحى اثمان ضحاياهم ورايتهم يسألون كثيرا من احوال الترف واقتراح الماكل مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون

(1) Man. A. et B. سائر.

كالغربال والآنية ولو سأل السائل مثل هذا بتلمسان او وهران لاستنكر وعنف وزجر ويبلغنا لهذا العهد عن احوال اهل القاهرة ومصر من الترف والغنى فى عوائدهم ما نقضى منه العجب حتى ان كثيرا من الفقراء بالمغرب ينزعون الى النقلة الى مصر لذلك ولما يبلغهم ان شأن الرفه بمصر اعظم من غيرها وتعتقد العامّة من الناس ان ذلك لطمو الاموال فى تلك الآفاق وان الاموال مختزنة لديهم وانهم اكثر صدقة وايثارا من جميع اهل الامصار وليس كذلك وانّما هو لما تعرفه من ان عمران مصر والقاهرة اكثر من عمران هذه الامصار التى لديك فعظمت لذلك احوالهم واما حال الدخل والخرج فمتكافئ فى جميع الامصار ومتى عظم الدخل عظم الخرج وبالعكس ومتى عظم الدخل والخرج اتّسعت احوال الساكن ووسع المصر وكل شئ يبلغك من هذا فلا تنكره واعتبره بكثرة العمران وما يكون عنه من كثرة المكاسب التى يسهل بسببها البذل والايثار على مبتغيه ومثله بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف تختلف احوالها فى هجرانها او غشيانها فان بيوت اهل النعم والثروة والموائد الخصيبة منها تكثر بساحاتها وافنيتها نثير الحبوب وسواقط الفتات فيزدحم عليها غواشى النمل والخشاش ويكثر فى سربها الجردان وتاوى

اليه السنانير وتحلق فوقها عصائب الطيور حتى تروح بطانا وتمتلئ شبعا وريا وبيوت اهل الخصاصة والفقر الكاسدة ارزاقهم لا يسرى بساحتها دبيب ولا يحلق نحوها طائر ولا يأوى الى اسراب بيوتها فارة ولا هرّ كما قال

يسقط الطير حيث يلتقط الحبّ ويغشى منازل الكرماء

فتامّل سرّ الله واعتبر غاشية الاناسى بغاشية العجم من الحيوانات وفتات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يبذلها لاستغنائهم عنها فى الاكثر بوجود امثالها لديهم واعلم ان اتّساع الاحوال وكثرة النعم فى العمران تابع لكثرته والله غنىّ عن العالمين

فصل فى اسعار المدن

اعلم ان الاسواق كلها تشتمل على حاجات الناس فمنها الضرورىّ وهو الاقوات من الحنطة والشعير وما فى معناهما كالباقلّا والحمص والجلبان وسائر حبوب الاقوات ومصلحاتها كالبصل والثوم واشباهه ومنها الحاجىّ والكمالىّ من الادم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر الصنائع والمبانى فاذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت اسعار الضرورىّ من القوت وما فى معناه وغلت اسعار الكمالىّ من الادم والفواكه وما يتبعها واذا قلّ ساكن المصر

وضعف عمرانه كان الامر بالعكس من ذلك والسبب فى ذلك ان الحبوب من ضرورات القوت فتوفّر الدواعى على اتّخاذها اذ كل احد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره او سنته فيعمّ اتّخاذها اهل المصر اجمع او الاكثر منهم فى ذلك المصر او فيما قرب منه لا بدّ من ذلك وكل متّخذ لقوته فيفضل عنه وعن اهل بيته فضلة كثيرة تسدّ خلّة كثيرين من اهل ذلك المصر فتفضل الاقوات عن اهل المصر من غير شكّ فترخص اسعارها فى الغالب الا ما يصيبها فى بعض السنين من الآفات السماويّة ولولا احتكار الناس لها لما يتوقّع من تلك الآفات لبذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكثرة العمران (واما) سائر المرافق من الادم والفواكه وما اليها فانها لا تعمّ فيها البلوى ولا يستغرق اتّخاذها اعمال اهل المصر اجمعين ولا الكثير منهم ثم ان المصر اذا كان مستبحرا موفور العمران كثير حاجات الترف توفّرت حينئذ الدواعى على طلب تلك المرافق والاستكثار منها كل بحسب حاله فيقصر الموجود منها عن الحاجات قصورا بالغا ويكثر المستامون لها وهى قليلة فى نفسها فتزدحم الاغراض ويبذل اهل الترف والرفه اثمانها باسراف فى الغلاء لحاجتهم اليها اكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء كما تراه (واما) الصنائع والاعمال ايضا فى الامصار الموفورة

العمران فسبب الغلاء فيها امور ثلاثة الاول كثرة الحاجة لمكان
الترف فى المصر بكثرة عمرانه والثانى اعتزاز اهل الاعمال
بخدمتهم وامتهان انفسهم لسهولة المعاش فى المدينة بكثرة
اقواتها والثالث كثرة المترفين وكثرة حاجاتهم الى امتهان
غيرهم والى استعمال الصنّاع فى مهنهم فيبذلون فى ذلك
لاهل الاعمال اكثر من قيمة اعمالهم مزاحمة ومنافسة فى
الاستئثار بها فيعتزّ الفعلة والصنّاع واهل الحرف وتغلا اعمالهم
وتكثر نفقات اهل المصر فى ذلك واما الامصار الصغيرة
القليلة الساكن فاقواتهم قليلة لقلّة العمل فيها وما يتوقّعونه
لصغر مصرهم من عدم القوت فيتمسّكون بها يحصل منه فى
ايديهم ويحتكرونه فيعزّ وجوده لديهم ويغلا ثمنه على مستامه
(واما) مرافقهم فلا تدعو اليها ايضا حاجة لقلّة الساكن
وضعف الاحوال فلا ينفق لديهم سوقه فيختصّ بالرخص
فى سعره وقد يدخل فى قيمة الاقوات ما يفرض عليها
من المكوس والمغارم للسلطان فى الاسواق وابواب المصر
وللجباة فى منافع يفرضونها على البياعات لانفسهم
ولذلك كانت الاسعار فى الامصار اغلا من اسعار البادية
اذ المكوس والمغارم والفرائض قليلة لديهم او معدومة
والامصار بالعكس سيما فى اواخر الدول وقد يدخل ايضا فى
قيمة الاقوات قيمة علاجها فى الفلح ويحافظ على ذلك

فى اسعارها كما وقع بالاندلس لهذا العهد وذلك انهم لما الجأهم النصارى الى سيف البحر وبلاده المتوعّرة الخبيثة الزراعة النكرة النبات وملكوا عليهم الارض الزاكية والبلد الطيب فاحتاجوا الى علاج المزارع والفدن لاصلاح نباتها وفلحها وكان ذلك العلاج باعمال ذات قيم وموادّ من الزبل وغيره لها مؤنة وصارت فى فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها فى سعرهم واختصّ قطر الاندلس بالغلاء منذ اضطرّهم النصارى الى هذا المعمور بالاسلام مع سواحلها لاجل ذلك ويحسب الناس اذا سمعوا بغلاء الاسعار فى قطرهم انّها لقلّة الاقوات والحبوب بارضهم وليس كذلك فهم اكثر اهل المعمور فلحا فيما علمناه واقومهم عليه وقلّ ان يخلو منهم سلطان او سوقة عن فدان او مزرعة او فلح الا قليل من اهل الصناعات والمهن او الطراء على الوطن من الغزاة والمجاهدين ولهذا يختصّهم السلطان فى عطائهم بالعولة وهى اقواتهم وعلوفتهم من المزارع (1) وانّما السبب فى غلاء السعر عندهم فى الحبوب ما ذكرناه ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك فى زكاء منابتهم وطيب ارضهم ارتفعت عنهم المؤن جملة فى الفلح مع كثرته وعمومه فصار ذلك سببا لرخص الاقوات ببلدهم والله سبحانه وتعالى مقدّر الليل والنهار.

(1) Man. C. et D. الزرع.

فصل فى قصور اهل البادية عن سكنى المصار الكثير العمران

والسبب فى ذلك ان المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدّمناه وتكثر حاجات ساكنه من اجل الترف وتعداد (1) تلك الحاجات لما تدعو اليها فتنقلب ضرورات وتصير الاعمال فيه كلها مع ذلك عزيزة والمرافق غالية بازدحام الاغراض عليها من اجل الترف وبالمغارم السلطانيّة التى توضع على الاسواق والبياعات وتعتبر فى قيم المبيعات ويعظم فيها الغلاء فى المرافق والاقوات والاعمال فتكثر لذلك نفقات ساكنيه كثرة بالغة على نسبة عمرانه ويعظم خرجه فيحتاج حينئذ الى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله فى ضرورات عيشهم وسائر مؤنهم والبدوىّ لم يكن دخله كثيرا اذ كان ساكنا بمكان كاسد الاسواق فى الاعمال التى هى سبب الكسب فلم يتأثّل كسبا ولا مالا فيعتذر عليه من اجل ذلك سكنى المصر الكبير لاجل مرافقه وعزّة حاجاته وهو فى بدوه يسدّ خلّته باقلّ الاعمال لانه قليل عوائد الترف فى معاشه وسائر مؤنه فلا يضطرّ الى المال وكل من يتشوّف الى المصر وسكناه من اهل البادية فسريعا ما يظهر عجزه ويفتضح الا من تقدّم

(1) Man. C. et D. يعتاد.

منهم تأثيل المال ويحصل له منه فوق الحاجة ويجرى الى الغاية الطبيعيّة لاهل العمران من الدعة والترف فحينئذ ينتقل الى المصر وينتظم حاله مع احوال اهله فى عوائدهم وترفهم وهكذا شأن بداية عمران الامصار والله بكل شئ محيط

فصل فى ان الاقطار فى اختلاف احوالها بالرفه والفقر مثل الامصار

اعلم ان ما توفّر عمرانه فى الاقطار وتعدّدت الامم فى جهاته وكثر ساكنه اتّسعت احوال اهله وكثرت اموالهم وامصارهم وعظمت دولهم وممالكهم والسبب فى ذلك كله ما ذكرناه من كثرة الاعمال وما سيأتى ذكره من انّها سبب للثروة بها يفضل عنها بعد الوفاء بالضروريّات فى حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران وكثرته فيعود على الناس كسبا يتأثّلونه حسبما نذكر ذلك فى فصل المعاش وبيان الرزق والكسب فيزيد الرفه لذلك وتتّسع الاحوال ويجئ الترف والغنى وتكثر الجباية للدولة بنفاق الاسواق فيكثر مالها ويشمخ سلطانها ويتفنّن فى اتّخاذ المعاقل والحصون واختطاط المدن وتشييد الامصار واعتبر ذلك باقطار المشرق مثل مصر والشام وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها واقطارها وراء البحر الروميّ لما كثر

PROLÉGOMÈNES
d'Ebn-Khaldoun.

عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولهم وتعدّدت مدنهم وحواضرهم وعظمت متاجرهم واحوالهم فالذى نشاهده لهذا العهد من احوال تجّار الامم النصرانيّة الواردين على المسلمين بالمغرب فى رفههم واتّساع احوالهم اكثر من ان يحيط به الوصف وكذا تجّار اهل المشرق وما يبلغنا من احوالهم اكثر من ان يحيط وابلغ منها احوال اهل المشرق الاقصى من عراق العجم والهند والصين (1) فانه يبلغنا عنهم فى باب الغنى والرفه احوال غرائب يسير الركاب بحديثها وربّما تتلقّى بالانكار فى غالب الامر ويحسب من يسمعها من العامّة ان ذلك لزيادة فى اموالهم او لانّ المعادن الذهبيّة والفضّيّة اكثر بارضهم او لانّ ذهب الاقدمين من الامم استأثروا بها دون غيرهم وليس كذلك فمعدن الذهب الذى نعرفه فى هذه الاقطار انّما هو ببلاد السودان وهى الى المغرب اقرب وجميع ما فى ارضهم من البضاعة فانّما يجلبونه الى غير بلادهم للتجارة فلو كان المال عتيدا موفورا لديهم لما جلبوا بضائعهم الى سواهم يبتغون بها الاموال ولا يستغنوا (2) عن اموال الناس بالجملة ولقد ذهب المنجّمون لما رأوا مثل ذلك واستغربوا ما فى المشرق من كثرة الاحوال واتّساعها ووفور اموالها فقالوا ان عطايا الكواكب والسهام فى مواليد

(1) Man. A. et B. اليمن.

(2) Man. C. استغنوا.

اهل المشرق اكثر منها حِصَصا فى مواليد اهل المغرب وذلك صحيح من جهة المطابقة بين الاحكام النجوميّة والاحوال الارضيّة كما قلناه وهم انّما اعطوا فى ذلك السبب النجوميّ وبقى عليهم ان يعطوا السبب الارضيّ وهو ما ذكرناه من كثرة العمران واختصاصه بارض المشرق واقطاره وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الاعمال التى هى سببه فلذلك اختصّ المشرق بالرفه من بين الآفاق لا ان ذلك بمجرّد الاثر النجوميّ فقد فهمت ممّا اشرنا لك اوّل انه لا يستقلّ بذلك فان المطابقة بين حكمه وعمران الارض وطبيعتها امر لا بدّ منه واعتبر حال هذا الرفه من العمران فى قطر افريقية وبرقة لما خفّ ساكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت احوال اهلها وانتهوا الى الفقر والخصاصة وضعفت جباياتها فقلّت اموال دولها بعد ان كانت دول الشيعة وصنهاجة بها على ما بلغك من الرفه وكثرة الجبايات واتّساع الاحوال فى نفقاتهم واعطياتهم حتى لقد كانت الاموال ترفع من القيروان الى صاحب مصر لحاجاته ومهمّاته فى غالب الاوقات وكانت اموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب فى سفره الى فتح مصر الف حمل من المال يستعدّها لارزاق الجنود واعطياتهم ونفقات الغزاة وقطر المغرب وان كان فى القديم دون

افريقية فلم يكن بالقليل فى ذلك وكانت احواله فى دولة الموحّدين متّسعة وجباياته موفورة وهو لهذا العهد قد اقصر عن ذلك لقصور العمران فيه وتناقصه فقد ذهب من عمران البربر فيه اكثره ونقص من معهوده نقصا ظاهرا محسوسا وكاد ان يلحق فى احواله بمثل احوال افريقية بعد ان كان عمرانه متّصلا من البحر الرومىّ الى بلاد السودان فى طول ما بين السوس الاقصى وبرقة وهى اليوم كلها او اكثرها قفار وخلاء وصحارى الا ما هو منها بسيف البحر او ما يقاربه من التلول والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

فصل فى تأثّل العقار والضياع فى الامصار وحال فوائدها ومستغلّاتها

اعلم ان تأثّل العقار والضياع الكثيرة لاهل المدن والامصار لا يكون دفعة ولا فى عصر واحد اذ ليس يكون لاحد منهم من الثروة ما يملك به الاملاك التى يخرج فيها عن الحدّ ولو بلغت احوالهم فى الرفه ما عسى ان تبلغ وانّما يكون ملكهم لها وتأثّلهم تدريجا امّا بالوراثة من ابائه وذوى رحمه حتى تتادّى املاك الكثيرين منهم الى الواحد واكثر كذلك او يكون (1) بحوالة الاسواق فان العقار فى اواخر الدولة واول

(1) Man. D. واكثر ذلك ان يكون.

الاخرى عند فناء الحامية وخرق السياج وتداعى المصر الى الخراب تقلّ الغبطة به لقلّة المنفعة فيها بتلاشى الاحوال فترخص قيمها وتتملّك بالاثمان اليسيرة وتتخطّى بالميراث الى ملك الاخر وقد استجدّ المصر شبابة باستفحال الدولة الثانية وانتظمت معه احوال حسنة تحصل معها الغبطة فى العقار والضياع لكثرة منافعها حينئذ فتعظم قيمها ويكون لها خطر لم يكن فى الاوّل وهذا معنى الحوالة فيها ويصبح مالكها من اغنى اهل المصر وليس ذلك بسعيه واكتسابه اذ قدرته تعجز عن مثل ذلك (واما) فوائد (1) العقار والضياع فهى غير كافية لمالكها فى حاجات معاشه اذ هى لا تفى بعوائد الترف واسبابه وانّما هى فى الغالب لسدّ الخلّة وضرورة المعاش والذى سمعناه من مشيخة البلدان ان القصد باقتناء الملك من العقار والضياع انّما هو الخشية على من يترك خلفه من الذرّيّة الضعاف ليكون مرباهم ورزقهم فيه ونشوؤهم بفائدته ما داموا عاجزين عن الاكتساب فاذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بانفسهم وربّما يكون من الولد من يعجز عن التكسّب لضعف فى بدنه او آفة فى عقله المعاشىّ فيكون ذلك العقار قواما لحاله هذا قصد المترفين فى اقتنائه (واما) التموّل

(1) Man. A. et D. تزايد.

منه واجراء احوال المترفين فلا وقد يحصل ذلك منه للقليل او النادر بحوالة الاسواق وحصول الكثرة البالغة منه والتغالى (1) فى جنسه وقيمته فى المصر الا ان ذلك اذا حصل فربّما امتدّت اليه اعين الامراء والولاة واغتصبوه فى الغالب او ارادوه على بيعه منهم ونالت اصحابه منه مضارّ ومعاطب والله غالب على امره

فصل فى حاجة المتموّلين من اهل الامصار الى الجاه (2) والمدافعة

وذلك ان الحضرىّ اذا عظم تموّله وكثر للعقار والضياع تأثّله واصبح اغنى اهل المصر ورمقته العيون وانفسحت احواله فى الترف والعوائد زاحم عليها الامراء والملوك وغصّوا به ولما فى طباع البشر من العدوان تمتدّ اعينهم الى تملّك ما بيده وينافسونه فيه ويتحيّلون على ذلك بكل ممكن حتّى يحصوله (3) فى ربقة حكم سلطانىّ وسبب من المواخذة ظاهر ينتزع به ماله واكثر الاحكام السلطانيّة جائرة فى الغالب اذ العدل المحض انّما هو فى الخلافة الشرعيّة وهى قليلة اللبث قال صلعم الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تعود ملكا عضوضا فلا بدّ حينئذ لصاحب المال والثروة الشهيرة

(1) Man. A. المغالى. B. et C. العالى. (2) Man. D. الحماة.

(3) Man. A. محصوله D. يحصلونه.

فى العمران من حامية تذود عنه وجاه ينسحب عليه من ذى قرابة للملك او خالصة له او عصبيّة يتحاماها السلطان فيستظلّ هو بظلّها ويرتع (1) فى امنها من طوارق التعدّى وان لم يكن له ذلك اصبح نهبا بوجوه التحيّلات واسباب الحكم والله يحكم لا معقب لحكمه

فصل فى ان الحضارة فى الامصار من قبل الدول وانّها ترسخ باتّصال الدولة ورسوخها

والسبب فى ذلك ان الحضارة هى احوال عاديّة زائدة على الضرورىّ من احوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الامم (2) فى القلّة والكثرة تفاوتا غير منحصر ويقع فيها عند كثرة التفنّن فى انواعها واصنافها فيكون بمنزلة الصنائع ويحتاج كل صنف منها الى القومة عليه المهرة فيه ويقدر ما يتميّز من اصنافها بتزيّد اهل صناعتها ويتلوّن ذلك الجيل بها ومتى اتّصلت الايّام وتعاقبت تلك الصبغات حذق اولئك الصنّاع فى صناعاتهم ومهروا فى معرفتها والاعصار بطولها وانفساح امدها وتكرّر امثالها تزيدها استحكاما ورسوخا واكثر ما يكون ذلك فى الامصار لاستبحار العمران وكثرة الرفه فى اهلها وذلك كله

(1) Man. A. et B. يرتقع.

(2) Man. C. et D. الامر.

انّما يجئ من قبل الدولة لان الدولة تجمع اموال الرعيّة وتنفقها فى بطانتها ورجالها وتتّسع احوالهم بالجاه اكثر من اتّساعها بالمال فيكون دخل تلك الاموال من الرعايا وخرجها فى اهل الدولة ثم فيمن تعلّق بهم من اهل المصر وهم الاكثر فتعظم لذلك ثروتهم ويكثر غناهم وتزيد عوائد الترف ومذاهبه وتستحكم لديهم الصنائع فى سائر فنونه وهذه هى الحضارة ولهذا نجد الامصار التى فى القاصية ولو كانت موفورة العمران فتغلب عليها احوال البداوة وتبعد عن الحضارة فى جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسّطة فى الاقطار التى هى مركز الدولة ومقرّها وما ذلك الا لمجاورة السلطان لهم وفيض امواله فيهم كالماء يخضر ما قرب منه مما (1) قرب من الارض الى ان ينتهى الى الجفوف على البعد (2) وقد قدّمنا ان السلطان والدولة سوق للعالم فالبضائع كلها موجودة فى السوق وما قرب منه واذا بعدت عن السوق افتقدت البضائع جملة ثم انه اذا اتّصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها فى ذلك المصر واحدا بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخا واعتبر ذلك فى اليهود لما طال ملكهم فى الشام نحوا من الف واربعماية سنة رسخت حضارتهم وحذقوا فى احوال المعاش وعوائده

(1) Man. A. بما. C. فما.

(2) Man. A. et B. البعيد.

والتفنّن فى صناعاته من المطاعم والملابس وسائر احوال المنزل حتى انها لتوخذ عنهم فى الغالب الى اليوم ورسخت الحضارة ايضا وعوائدها فى الشام منهم ومن دول الروم بعدهم ستّماية سنة فكانوا فى غاية الحضارةً وكذلك ايضا القبط دام ملكهم فى الخليقة ثلاثة آلاف من السنين فرسخت عوائد الحضارة فى بلدهم مصر واعقبهم بها ملك اليونانيّين والروم ثم ملك الاسلام الناسخ للكل فلم تزل عوائد الحضارة بها متّصلة وكذلك ايضا رسخت عوائد الحضارة باليمن لاتّصال دولة العرب بها منذ عهد العمالقة والتتابعة آلافا من السنين واعقبهم ملك مضر وكذلك الحضارة بالعراق لاتّصال دولة النبط والفرس بها من لدن الكلدانيّين والكينيّة والكسرويّة والعرب بعدهم آلافا من السنين فلم يكن على وجه الارض لهذا العهد احضر من اهل الشام والعراق ومصر وكذلك ايضا رسخت عوائد الحضارة بالاندلس لاتّصال الدولة العظيمة فيها للقوط ثم ما اعقبها من ملك بنى امية آلافا من السنين وكلا الدولتين عظيم فاتّصلت فيها عوائد الحضارة واستحكمت واما افريقية والمغرب فلم يكن فيها قبل الاسلام ملك ضخم انما قطع الروم والافرنجة الى افريقية البحر وملكوا الساحل وكانت طاعة البربر اهل الضاحية لهم طاعة غير مستحكمة فكانوا على

قلعة واوفاز(1) واهل المغرب لم تجاورهم دولة وانّما كانوا يبعثون بطاعتهم الى القوط من وراء البحر ولمّا جاء الله بالاسلام وملك العرب افريقية والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب الا قليلا اول الاسلام وكانوا لذلك العهد فى طور البداوة ومن استقرّ منهم بافريقية والمغرب لم يجد بهما من الحضارة ما يقلّد فيه من سلفه اذ كانوا برابر منغمسين فى البداوة ثم انتقض برابرة المغرب الاقصى لاقرب العهود على يد ميسرة المظفرى ايام هشام بن عبد الملك ولم يراجعوا امر العرب بعد واستقلّوا بامر انفسهم وان بايعوا لادريس فلا تعدّ دولتهم فيهم عربيّة لان البرابرة هم الذين تولّوها ولم يكن من العرب فيها كبير عدد وبقيت افريقية للاغالبة ومن اليهم من العرب فكان لهم من الحضارة بعض الشئ بما حصل لهم من ترف الملك ونعيمه وكثرة عمران القيروان وورث ذلك عنهم كتامة ثم صنهاجة من بعدهم وذلك كلّه قليل لم يبلغ اربعماية سنة وانصرمت دولتهم واستحالت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة وتغلّب بدو العرب الهلاليّين عليها وخربوها وبقى اثر خفىّ من حضارة العمران فيها والى هذا العهد يونس فيمن سلف له بالقلعة او القيروان او المهدية سلف فتجد له من احوال

(1) Man. C. قلعه واوفار. D. قلعة وافان.

الحضارة فى شؤن منزله وعوائد احواله آثارا ملتبسة بغيرها يميزها الحضرى البصير بها وكذا فى اكثر امصار افريقية وليس ذلك فى المغرب وامصاره لرسوخ الدولة فى افريقية اكثر امدًا منذ عهد الاغالبة والشيعة وصنهاجة واما المغرب فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الاندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الاندلس وانتقل الكثير من اهلها اليهم طوعا وكرها وكانت من اتساع النطاق ما علمت فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومعظمها من اهل الاندلس ثم انتقل اهل شرق الاندلس عند جالية النصارى الى افريقية فابقوا بها وبامصارها من الحضارة آثارا معظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها فكانت بذلك للمغرب وافريقية حظ من الحضارة صالح عفا عليه الخفا ورجع على اعقابه وعاد البربر بالمغرب الى اديانهم من البداوة والخشونة وعلى كل حال فاثر الحضارة بافريقية اكثر منها بالمغرب وامصاره لما تداول فيها من الدول السالفة اكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من عوايد اهل مصر بكثرة المترددين بينهم فتفطن لهذا السر فانه خفى عن الناس (واعلم) انها امور متناسبة وهى حال الدولة فى القوة والضعف وكثرة الامة او الجيل وعظم المدينة

او المصر وكثرة النعمة واليسار وذلك ان الدولة والملك صورة الخليقة والعمران وكلها مادّة له من الرعايا والامصار وسائر الاحوال واموال الجباية عائدة عليهم ويسارهم فى الغالب من اسواقهم ومتاجرهم واذا افاض السلطان عطاءه وامواله فى اهلها انبثت فيهم ورجعت اليه ثم اليهم منه فهى ذاهبة عنهم فى الجباية والخراج عائدة عليهم فى العطاء فعلى نسبة مال الدولة يكون يسار الرعايا وعلى نسبة يسار الرعايا ايضا وكثرتهم يكون مال الدولة واصله كله العمران وكثرته فاعتبره وتامّله تجده والله سبحانه وتعالى يحكم لا معقب لحكمه

فصل فى ان الحضارة غاية للعمران ونهاية لعمره وانّها موذنة بفساده

قد بيّنّا لك فيما سلف ان الملك والدول غاية للعصبية وان الحضارة غاية للبداوة وان العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس كما ان للشخص الواحد من اشخاص المكونات عمرا محسوسا وتبيّن فى المعقول والمنقول ان الاربعين للانسان غاية فى تزايد قواه ونموّها وانه اذا بلغ سنّ الاربعين وقفت الطبيعة عن اثر النشو والنمو برهة ثم تاخذ بعد ذلك

فى الانحطاط فلتعلم ان الحضارة فى العمران ايضا كذلك لانّه غاية لا مزيد وراءها وذلك ان الترف والنعمة اذا حصل لاهل العمران دعاهم بطبعه الى مذاهب الحضارة والتخلّق بعوائدها والحضارة كما علمت هى التفنّن فى الترف واستجادة احواله والكلف بالصنائع التى تونق (1) من اصنافه وسائر فنونه كالصنائع المهيّأة للمطابخ والملابس او المبانى او الفرش او الآنية ولسائر احوال المنزل وللتأنّق فى كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج اليها عند البداوة وعدم التأنّق فيها واذا بلغ التأنّق فى هذه الاحوال المنزليّة الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلوّن النفس من تلك العوائد بالوان كثيرة لا يستقيم حالها معها فى دينها ولا دنياها اما دينها فلاستحكام صبغة العوائد التى يعسر نزعها واما دنياها فلكثرة الحاجات والمؤنات التى تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها وبيانه ان المصر بالتفنّن فى الحضارة يعظم نفقات اهله والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران فمتى كان العمران اكثر كانت الحضارة اكمل وقد كنّا قدّمنا ان المصر الكثير العمران يختصّ بالغلاء فى اسواقه واسعار حاجاته ثم تزيدها المكوس غلاء لان كمال الحضارة انما يكون عند نهاية الدولة فى استفحالها وهو زمن وضع

(1) Man. D. تونى.

المكوس فى الدول لكثرة خرجها حينئذ كما تقدّم والمكوس تعود على البياعات بالغلاء لانّ السوقة والتجّار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائعهم بجميع ما ينفقونه حتى مؤنة انفسهم فيكون المكس لذلك داخلا فى قيم المبيعات واثمانها فتعظم نفقات اهل الحاضرة (1) وتخرج عن القصد الى الاسراف ولا يجدون وليجة عن ذلك لما ملكهم من اسر العوائد وطاعتها وتذهب مكاسبهم كلها فى النفقات ويتتابعون (2) فى الاملاق والخصاصة ويغلب عليهم الفقر ويقلّ المستامون للبضائع فتكسد الاسواق وتفسد حال المدينة وداعية ذلك كله افراط الحضارة والترف وهذه مفسدتها فى المدينة على العموم فى الاسواق والعمران واما فساد اهلها فى (3) ذواتهم واحدا واحدا على الخصوص فمن الكدّ والتعب فى حاجات العوائد والتلوّن بالوان الشرّ فى تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون اخر من الوانها فلذلك يكثر منهم الفسق والشرّ والسفسفة والتحيّل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه وتنصرف النفس الى الفكر فى ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له فتجدهم اجرياء على الكذب والمقامرة والغشّ والخلابة والسرقة والفجور فى الايمان والربا فى

(1) Man. D. الحضارة. (2) *Ibid.* يتبالغون. (3) Man. A. et B. من.

البياعات ثم تجدهم لكثرة الشهوات والملاذّ الناشئة عن الترف ابصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه واطراح الحشمة فى الخوض فيه حتى بين الاقارب وذوى الارحام والمحارم الذين يقتضى البداوة الحياء منهم فى الاقذاع بذلك وتجدهم ايضا ابصر بالمكر والخديعة يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من القهر وما يتوقّعونه من العقاب على تلك القبائح حتى يصير ذلك عادة وخلقا لاكثرهم الا من عصمه الله ويموج بحر المدينة بالسفلة من اهل الخلق الذميمة ويجاريهم (1) فيها كثير من ناشئة (2) الدولة وولدانهم ممن اهمل عن التأديب واهملته الدولة من عدادها وغلب عليه خلق الجوار والصحابة (3) وان كانوا اصحابه اهل انساب وابوّات وذلك ان الناس بشر متماثلون وانّما تفاضلوا وتمايزوا بالخلق واكتساب الفضائل واجتناب الرذائل فمن استحكمت فيه صبغة الرذيلة باى وجه كان وفسدت خلق الخير فيه لم ينفعه زكاء نسبه ولا طيب منبته ولهذا تجد كثيرا من اعقاب البيوت وذوى الاحساب والاصالة واهل الدول مطرحين فى الغمار منتحلين للحرف الدنيّة فى معاشهم بها فسد من اخلاقهم وما تلوّنوا به من صبغة الشرّ والسفسفة واذا كثر ذلك فى

(1) Man. D. يجازهم. (2) Man. C. نسبة. (3) Man. D. الصحاب.

المدينة او الامّة تاذّن الله بخرابهـا وانقراضها وهو معنى قوله تعالى واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميرا ووجهه ان مكاسبهم حينئذ لا تفى بحاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم احوالهم واذا فسدت احوال الاشخاص واحدا واحدا اختلّ نظام المدينة وخربت وهذا معنى ما يقوله بعض الخواص (1) ان المدينة اذا كثر فيها غرس النارنج تاذّنت بالخراب حتى ان كثيرا من العامّة يتحامى (2) غرس النارنج بالدور تطيّرا به وليس المراد ذلك ولا انه طيرة (3) فى النارنج وانّما معناه ان البساتين واجراء المياه هو من توابع الحضارة ثم ان النارنج والليم والسرو وامثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة هو من غايات الحضارة اذ لا يقصد بها فى البساتين الا اشكالها فقط ولا تغرس الا بعد التفنّن فى مذاهب الترف وهذا هو الطور الذى يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه ولقد قيل مثل ذلك فى الدفلا وهو من هذا الباب اذ الدفلا لا يقصد بها الا تلوّن البساتين بنورها ما بين احمر وابيض وهو من مذاهب الترف ومن مفاسد الحضارة ايضا الانهماك فى

(1) Man. A. et B. اهل الخواص. D. اهل الحواضر. (2) Man. D. يتحاشى.
(3) Man. C. et D. خاصة.

الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف فيقع التفنّن فى شهوات البطن من الماكل وملاذّها والمشارب وطيبها ويتبع ذلك التفنّن فى شهوات الفرج بانواع المناكح من الزناء واللواط فيفضى ذلك الى فساد النوع امّا بواسطة اختلاط الانساب كما فى الزناء فيجهل كل احد ابنه اذ هو لغير رشده ولان المياه مختلطة فى الارحام فتفقد الشفقة الطبيعيّة على البنين والقيام عليهم فيهلكون ويودّى ذلك الى انقطاع النوع او يكون فساد النوع بغير واسطة كما فى اللواط المودى الى عدم النسل راسا وهو اشدّ فى فساد النوع اذ هو يودى الى ان لا يوجد النوع والزناء يودى الى عدم ما يوجد منه ولذلك كان مذهب مالك رحمه الله فى اللواط اظهر من مذهب غيره ودل على انه ابصر بمقاصد الشريعة واعتبارها للمصالح فافهم ذلك واعتبر به ان غاية العمران هى الحضارة والترف وانه اذا بلغ غايته انقلب الى الفساد واخذ فى الهرم كالاعمار الطبيعيّة للحيوانات بل نقول ان الخلق الحاصلة من الحضارة والترف هى عين الفساد لان الانسان انما هو انسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضارّه واستقامة خلقه للسعى فى ذلك والحضرىّ لا يقدر على مباشرة حاجاته امّا عجزا بها حصل له من الدعة او ترفّعا لما حصل له من المربا فى النعيم والترف

وكلا الامرين ذميم وكذلك لا يقدر على دفع المضارّ بما فقد من خلق البأس بالترف والمربا فى قهر التأديب والتعليم فهو لذلك عيال على الحامية التى تدافع عنه ثم هو فاسد ايضا فى دينه غالبا بما افسدت منه العوائد وطاعاتها وما تلوّنت (1) به النفس من ملكاتها كما قررناه الا فى الاقلّ النادر واذا فسد الانسان فى قدرته ثم فى اخلاقه ودينه فقد فسدت انسانيّته وصار مسخا على الحقيقة وبهذا الاعتبار كان الذين يتقربون من جند السلطان الى البداوة والخشونة انفع من الذين يربون على الحضارة وخلقها وهذا موجود فى كل دولة فقد تبيّن ان الحضارة سنّ الوقوف لعمر العالم من العمران والدول والله الواحد القهّار

فصل فى ان الامصار التى تكون كراسى للملوك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها

قد استقرّ بنا فى العمران ان الدولة اذا انتقضت واختلّت فان المصر الذى يكون كرسيا لسلطانها ينتقض عمرانه وربّما ينتهى فى انتقاضه الى الخراب ولا يكاد ذلك يتخلّف (2) والسبب فيه امور (الاول) الدولة لا بدّ فى اولها من البداوة المقتضية للتجافى عن اموال الناس والبعد عن

(1) Man. A. et B. تلوّثت.

(2) Man. A. يختلف.

التحذلق ويدعو ذلك الى تخفيف الجباية والمغارم التى منها مادّة الدولة فتقلّ النفقات ويقصر الترف فاذا صار المصر الذى كان كرسيا للملك فى ملكة هذه الدولة المتجدّدة ونقصت احوال الترف فيها نقص الترف فيمن تحت ايديها من اهل المصر لان الرعايا تبع للدولة فيرجعون الى خلق الدولة اما طوعا بما فى طباع البشر من تقليد متبوعهم او كرها بما تدعو اليه خلق الدولة من الانقباض عن الترف فى جميع الاحوال وقلّة الفوائد التى هى مادّة العوائد فتقصر لذلك حضارة المصر ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهى معنى ما نقوله من خراب المصر (الامر الثانى) ان الدولة انّها يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب وانّها يكون بعد العداوة والحروب والعداوة تقتضى منافاة بين اهل الدولتين وتكثر احديهما على الاخرى فى العوائد والاحوال وغلب احد المنافيين يذهب بالمنافى الاخر فتكون احوال الدولة السابقة منكرة عند اهل الدولة الجديدة ومستشنعة (1) وقبيحة وخصوصا احوال الترف فتفقد فى عرفهم بنكير الدولة لها حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد اخرى من الترف يكون عنها حضارة مستأنفة وفيما بين ذلك قصور الحضارة الاولى ونقصها وهو معنى اختلال العمران فى المصر (الامر

(1) Man. A. et B. مستبشعة.

الثالث) ان كل امّة لا بدّ لهم من وطن هو منشاؤهم ومنه اوليّة ملكهم واذا ملكوا وطنا اخر صار تبعا للاول وامصاره تابعة لامصار الاول واتّسع نطاق الملك عليهم ولا بدّ من توسّط الكرسى بين تخوم الممالك التى للدولة لانه شبه المركز للنطاق فيبعد مكانه عن مكان الكرسى الاول وتهوى افئدة الناس اليه من اجل الدولة والسلطان فينتقل اليه العمران ويخفّ من مصر الكرسى الاول والحضارة انّما هى بوفور العمران كما قدّمنا فتنتقص حضارته وتمدّنه وهو معنى اختلاله وهذا كما وقع للسلجوقيّة فى عدولهم بكرسيهم عن بغداد الى اصبهان وللعرب قبلهم فى العدول عن المدائن الى الكوفة والبصرة ولبنى العباس فى العدول عن دمشق الى بغداد ولبنى مرين بالمغرب فى العدول عن مراكش الى فاس وبالجملة فاتّخاذ الدولة الكرسى فى مصر يخلّ بعمران الكرسى الاول (الامر الرابع) ان الدولة المتجدّدة اذا غلبت على الدولة السابقة لا بدّ فيها من تتبّع اهل الدولة السابقة واشياعها بتحويلهم الى قطر اخر تؤمن فيه غايلتهم على الدولة واكثر اهل المصر الكرسى اشياع للدولة امّا من الحامية الذى نزلوا به اول الدولة او من اعيان المصر لانّ لهم فى الغالب مخالطة فى الدولة على طبقاتهم وتنوّع اصنافهم بل اكثرهم ناشئ فى الدولة فهم شيعة

لها وان لم يكونوا بالشوكة والعصبيّة فهم بالميل والمحبّة والعقيدة وطبيعة الدولة المتجدّدة محو آثار الدولة السابقة فتنقلهم من مصر الكرسى الى وطنهم المتمكّن فى ملكتها فبعضهم على نوع التغريب والحبس وبعض على نوع الكرامة والتلطّف بحيث لا يؤدى الى النفرة حتى لا يبقى فى مصر الكرسى الا الباعة والهمل من اهل الفلح والعيّارة وسواد العامّة وينزل مكانهم فى حاميتها واشياعها من تسدّ به المصر واذا ذهب من المصر اعيانه على طبقاتهم نقص ساكنه وهو معنى اختلال عمرانه ثم لا بدّ ان يستجدّ عمرانا اخر فى ظلّ الدولة الجديدة وتحصل فيه حضارة اخرى على قدر الدولة وانّما ذلك بمثابة من يملك بيتا داخله البلى والكثير من اوضاعه فى بيوته ومرافقه لا توافق مقترحه وله قدرة على تغيير تلك الاوضاع واعادة بنائها على ما يختاره ويقترحه فيخرب ذلك البيت ثم يعيد بناءه ثانيا وقد وقع من ذلك كثير فى الامصار التى هى كراسى للملك وشاهدناه وعلمناه والله مقدّر الليل والنهار والسبب الطبيعىّ الاول فى ذلك على الجملة ان الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادّة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها وقد تقرّر فى علوم الحكمة انه لا يمكن انفكاك احدهما عن الاخر فالدولة دون العمران لا تتصوّر والعمران

دون الدولة والملك متعذّر بها فى طباع البشر من التعاون الداعى الى الوازع فتتعيّن السياسة لذلك امّا الشريعة او الملكيّة وهى معنى الدولة واذا كانا لا ينفكّان فاختلال احدهما مؤثّر فى اختلال الاخر كما كان عدمه مؤثرا فى عدمه والخلل العظيم انّما يكون من خلل الدولة الكلّيّة مثل دولة الفرس او الروم او العرب على العموم او بنى امية او بنى العباس كذلك وامّا الدول الشخصيّة مثل دولة انوشروان او هرقل او عبد الملك بن مروان او الرشيد فاشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده وبقائه وقريبة الشبه بعضها من بعض فلا تؤثر كثير اختلال لان الدولة بالحقيقة الفاعلة فى مادّة العمران انّما هى للعصبيّة والشوكة وهى مستمرّة مع اشخاص الدول فاذا ذهبت تلك العصبيّة ودفعتها عصبيّة اخرى مؤثرة فى العمران فاذهبت اهل الشوكة باجمعهم عظم الخلل كما قرّرناه اولا والله قادر على ما يشاء ان يشاء يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز

فصل فى اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض

وذلك انه من البيّن ان اعمال اهل المصر تستدعى بعضها بعضا لما فى طبيعة العمران من التعاون وما يستدعى من

الاعمال يختصّ ببعض اهل المصر فيقومون عليه ويستبصرون فى صناعته ويختصّون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه لعموم البلوى فيه فى المصر والحاجة اليه وما لا يستدعى فى المصر يكون غفلا اذ لا فائدة لمنتحله فى الاحتراف به وما يستدعى من ذلك لضرورة المعاش فيوجد فى كل مصر كالخيّاط والحدّاد والنجّار وامثالها وما يستدعى لعوائد الترف واحواله فانّها يوجد فى المدن المستبحرة فى العمارة الآخذة فى عوائد الترف والحضارة مثل الزجّاج والصائغ والدهّان والطبّاخ والصفّار والسفّاج والهرّاس والدبّاج وامثال هذه وهى متفاوتة (1) وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعى احوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد لذلك المصر دون غيره ومن هذا الباب الحمامات لانها انّما توجد فى الامصار المستحضرة المستبحرة العمران لما يدعو اليه الترف والغنى من التنعّم ولذلك لا يكون فى المدن المتوسّطة وان نزع بعض الملوك والرؤساء اليه فيختطّها ويجرى احوالها الّا انها اذا لم تكن لها داعية من كافة الناس فسرعان ما تهجر وتخرب وتفرّ عنها القومة لقلّة فائدتهم ومعاشهم منها والله يقبض ويبسط

(1) Man. A. et B. متقاربة.

فصل فى وجود العصبيّة فى الامصار وتغلّب بعضهم على بعض

من البيّن ان الالتحام والاتّصال موجود فى طباع البشر وان لم يكونوا اهل نسب واحد الّا انّه كما قدّمناه اضعف مما يكون بالنسب وانه تحصل به العصبيّة بعضا مما يحصل بالنسب واهل الامصار كثير منهم ملتحمون بالصهر يجذب بعضهم بعضا الى ان يكونوا لُحَما لُحَما وقرابة قرابة وتجد بينهم من الصداقة والعداوة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله فيفترقون شعبا (1) وعصائب فاذا نزل الهرم بالدولة وتقلّص الملك عن القاصية احتاج اهل امصارها الى القيام على امرهم والنظر فى حماية بلدهم ورجعوا الى الشورى وتميز العلية عن السفلة والنفوس بطباعها متطاولة الى الغلب والرياسة فتطمح المشيخة لخلاء الجو من السلطان والدولة القاهرة الى الاستبداد وينازع كل صاحبه ويستوصلون بالاتباع من الموالى والشيع والاحلاف (2) ويبذلون ما فى ايديهم للاوغاد والاوشاب فيعصوصب كل بصاحبه ويتعيّن الغلب لبعضهم فيعطف على اكفائه ليغضّ من اعنّتهم ويتتبعهم بالقتل والتغريب حتى يخضد منهم الشوكات النافذة ويقلم الاظفار

(1) Man. C. et D. شيعا.

(2) Man. D. الاجلاف.

الخادشة ويستبدّ بمصره اجمع ويرى انه قد استحدث ملكا يورثه عقبه فيحدث فى ذلك الملك الاصغر ما يحدث فى الملك الاعظم من عوارض الجدّة والهرم وربّما يسمو بعض هولاء الى منازع الملوك الاعاظم اصحاب القبائل والعشائر والعصبيّات والزحوف والحروب والاقطار والممالك فينتحلون من الجلوس على السرير واتّخاذ الآلة واعداد المواكب للسير فى اقطار البلد والتختّم والتحيّة والخطاب والتمويل ما يسخر منه من يشاهد احوالهم لما انتحلوه من شارات الملك التى ليسوا لها باهل انّما دفعهم الى ذلك تقلّص الدولة والتحام بعض القرابات حتى صارت عصبيّة وقد يتنزّه بعضهم عن ذلك ويجرى على مذاهب السذاجة فرارا من التعريض بنفسه للسخرياء والعبث ووقع هذا بافريقية لهذا العهد فى آخر الدولة الحفصيّة لاهل بلاد الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونفطة وقفصة وبسكرة والزاب وما الى ذلك سموا الى مثلها عند تقلّص ظلّ الدولة عنهم منذ عقود من السنين فاستغلبوا على امصارهم واستبدّوا بامرها على الدولة فى الاحكام والجباية واعطوا طاعة معروفة وصفقة ممرضة واقطعوها جانبا من الملاينة والملاطفة والانقياد وهم بمعزل عنه واورثوا ذلك اعقابهم لهذا العهد وحدث فى خلقهم من الغلظة والتجبّر ما يحدث

لاعقاب الملوك وخلفهم ونظموا انفسهم فى عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوقة وقد كان مثل ذلك وقع فى آخر الدولة الصنهاجيّة واستقلّ بامصار الجريد اهلها واستبدّوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحّدين وملكهم عبد المؤمن ابن على ونقلهم كلهم من امارتهم بها الى المغرب ومحا من تلك البلاد آثارهم كما نذكر فى اخباره وكذلك وقع بسبتة لآخر دولة بنى عبد المؤمن وهذا التغلّب يكون غالبا فى اهل السروات والبيوتات المرشّحين للمشيخة والرياسة فى المصر وقد يحدث التغلّب لبعض السفلة من الدهماء والغوغاء اذا حصلت له العصبيّة والالتحام بالاوغاد لاسباب يجرّها له المقدار فيغلب على المشيخة والعلية اذا كانوا فاقدين للعصابة والله غالب على امره

فصل فى لغات اهل الامصار

اعلم ان لغات اهل الامصار انّما تكون بلسان الامّة والجيل الغالبين عليها والمختطّين لها وكذلك كانت لغات الامصار الاسلاميّة كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربيّة وان كان اللسان العربىّ المضرىّ قد فسدت ملكته وتغيّر اعرابه والسبب فى ذلك ما وقع للدولة الاسلاميّة من الغلب على الامم والدين والملّة صورة للوجود وللملك

وكلّها موادّ له والصورة مقدّمة على المادّة والدين انّما يستفاد
من الشريعة وهى بلسان العرب لما ان النبى صلعم عربىّ
فوجب هجر ما سوى اللسان العربىّ من الالسن فى جميع
ممالكها واعتبر ذلك فى نهى عمر رضى الله عنه عن رطانة
الاعاجم وقال انها خب يعنى مكر وخديعة فلما هجر
الدين اللغات الاعجميّة وكان لسان القائمين بالدولة الاسلاميّة
عربيّا هجرت كلها فى جميع ممالكها لان الناس تبع
للسلطان وعلى دينه فصار اللسان العربىّ استعماله من شعائر
الاسلام وطاعة العرب وهجر الامم لغاتهم والسنتهم فى جميع
الامصار والممالك وصار اللسان العربىّ لسانهم حتى رسخ
ذلك لغة فى جميع امصارهم ومدنهم وصارت الالسن
الاعجميّة دخيلة فيها وغريبة ثم فسد اللسان العربىّ
بمخالطتها فى بعض احكامه وتغيّر اواخره وان كان بقى فى
الدلالات على اصله وسمّى لسانا حضريّا فى جميع امصار
الاسلام وايضا فاكثر اهل الامصار فى الملّة لهذا العهد من
اعقاب العرب المالكين لها الهالكين فى ترفها بما كثروا
العجم الذين كانوا بها وورثوا ارضهم وديارهم واللغات
متوارثة فبقيت لغة الاعقاب على حيال لغة الآباء وان
فسدت احكامها بمخالطة الاعجام شئا فشئا وسمّيت لغتهم
حضريّة منسوبة الى اهل الحواضر والامصار بخلاف لغة البدو

من العرب فانها كانت اعرق (1) فى العروبيّة ولما تملّك العجم من الديلم والسلجوقيّة بعدهم بالمشرق وزناتة والبربر بالمغرب وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلاميّة فسد اللسان العربىّ لذلك وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنّة الذين بهما حفظ الدين وصار ذلك مرجحا لبقاء اللغة الحضريّة (2) بالامصار عربيّة فلما ملك الططر والمغل بالمشرق ولم يكونوا على دين الاسلام ذهب ذلك المرجح وفسدت اللغة العربيّة على الاطلاق ولم يبق لها رسم فى الممالك الاسلاميّة بالعراق وخراسان وبلاد فارس وارض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد الشمال وبلاد الروم وذهبت اساليب اللغة العربيّة من الشعر والكلام الا قليلا يقع تعليمه صناعيّا بالقوانين المتدارسة من علوم العرب وحفظ كلامهم لمن يسّره الله لذلك وربّما بقيت اللغة العربيّة الحضريّة بمصر والشام والاندلس والمغرب لبقاء الدين طالبا لها فانحفظت بعض الشئ وامّا فى ممالك العراق وما وراءه فلم يبق له اثر ولا عين حتى ان كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمى وكذا تدريسه فى المجالس والله مقدّر الليل والنهار صلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليما كثيرا

(1) Man. C. اغرق. (2) Man. A. et B. المضريّة.

دائما ابدا الى يوم الدين والحمد لله ربّ العالمين
تمّ الفصل الرابع من الكتاب الاول ويليه الفصل الخامس
فى المعاش ووجوه الكسب

الفصل الخامس من الكتاب الاول فى المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض فى ذلك كله من الاحوال وفيه مسائل

فصل فى حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وان الكسب هو قيمة الاعمال البشريّة

اعلم ان الانسان مفتقر بالطبع الى ما يقوته (1) ويمونه فى حالاته واطواره من لدن نشوءه الى اشدّه الى كبره والله الغنىّ وانتم الفقراء والله سبحانه وتعالى خلق جميع ما فى العالم للانسان وامتنّ به عليه فى غير ما اية من كتابه فقال تعالى خلق لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا وسخّر لكم الشمس والقمر وسخّر لكم البحر وسخّر لكم الفلك وسخّر لكم الانعام وكثير من شواهده ويد الانسان مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف

(1) Man. C. يقوّيه. D. يقوّمه.

وايدى البشر منتشرة فهى مشتركة فى ذلك وما حصل
عليه يد هذا امتنع عن الاخر الا بعوض فالانسان متى
اقتدر على نفسه وتجاوز طور الضعف سعى فى اقتناء
المكاسب لينفق ما اتاه الله منها فى تحصيل حاجاته
وضروراته بدفع الاعواض عنها قال تعالى فابتغوا عند الله
الرزق وقد يحصل له ذلك بغير سعى كالمطر المصلح
للزراعة وامثاله الا انها انّما تكون معينة ولا بدّ من سعيه معها
كما ياتى فتكون له تلك المكاسب معاشا ان كانت
بمقدار الضرورة والحاجة ورياشا ومتموّلا ان زادت على
ذلك ثم ان ذلك الحاصل او المقتنى ان عادت
منفعته على العبد وحصلت له ثمرته من انفاقه فى مصالحه
وحاجاته سمّى رزقا قال صلعم انّما لك من مالك ما
اكلت فافنيت او لبست فابليت او تصدّقت فامضيت
وان لم ينتفع به في شئ من مصالحه ولا حاجاته
فلا يسمّى رزقا والتملّك منه حينئذ بسعى العبد وقدرته
يسمى كسبا وهذا مثل التراث فانّه يسمى بالنسبة الى الهالك
كسبا ولا يسمى رزقا اذ لم يحصل له به منتفع وبالنسبة الى
الوارثين متى انتفعوا به يسمى رزقا هذا حقيقة مسمى الرزق
عند اهل السنّة وقد اشترط المعتزلة فى تسميته رزقا ان يكون
بحيث يصحّ تملّكه وما لا يتملّك عندهم فلا يسمى رزقا

واخرجوا المغصوبات (1) والحرام كله عن ان يسمى شئ منها رزقا والله تعالى يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر ويختصّ برحمته وهدايته من يشاء ولهم فى ذلك حجج ليس هذا موضع بسطها ثم اعلم ان الكسب انّما يكون بالسعى فى الاقتناء والقصد الى التحصيل فلا بدّ فى الرزق من سعى وعمل ولو فى تناوله وابتغائه من وجوهه قال تعالى فابتغوا عند الله الرزق والسعى اليه انّما يكون باقدار الله والهامه فالكل من عند الله فلا بدّ من الاعمال الانسانيّة فى كل مكسوب ومتموّل لانه ان كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر وان كان مقتنى من الحيوان او النّبات او المعدن فلا بدّ فيه من العمل الانسانىّ كما تراه والا لم يحصل ولم يقع به انتفاع ثم ان الله سبحانه خلق الحجرين المعدنين من الذهب والفضّة قيمة لكل متموّل وهى الذخيرة والقنية لاهل العالم فى الغالب وان اقتنى سواهما فى بعض الاحيان فانّما هو لقصد تحصيلهما بما يقع فى غيرهما من حوالة الاسواق التى هما عنها بمعزل فهما اصل المكاسب والقنية والذخيرة واذا تقرّر هذا كله (فاعلم) ان ما يفيده الانسان ويقتنيه من المتموّلات ان كان من الصنائع فالمفاد المقتنى منه هو قيمة عمله وهو القصد بالقنية

(1) Man. C. et D. الغصوبات.

اذ ليس هنالك الا العمل وليس بمقصود بنفسه للقنية وقد
يكون مع الصنائع فى بعضها غيرها مثل النجارة والحياكة
معها الخشب والغزل الا ان العمل فيهما اكثر فقيمته اكثر
وان كان من غير الصنائع فلا بدّ فى قيمة ذلك المفاد
والقنية من دخول قيمة العمل الذى حصلت به اذ لولا
العمل لم تحصل قنيتها وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة
فى الكثير منها فتجعل له حصّة من القيمة عظمت او صغرت
وقد تخفى ملاحظة العمل كما فى اسعار الاقوات بين الناس
فان اعتبار الاعمال والنفقات فيها ملاحظة فى اسعار الحبوب
كما قدّمناه لكنّه خفى فى الاقطار التى علاج الفلح فيها
ومؤنته يسيرة فلا يشعر به الّا القليل من اهل الفلح فقد تبيّن
ان المفادات والمكتسبات كلها او اكثرها انّما هى قِيَم
الاعمال الانسانيّة وتبيّن مسمّى الرزق وانه المنتفع به فقد بان
معنى الكسب والرزق وشرح مسمّاهما (واعلم) انه اذا
فقدت الاعمال او قلّت بانتقاص العمران تأذّن الله برفع
الكسب الا ترى الى الامصار القليلة الساكن كيف يقلّ
الرزق والكسب فيها او يفقد لقلّة الاعمال الانسانيّة
وكذلك الامصار التى تكون اعمالها اكثر يكون اهلها
اوسع احوالا واشدّ رفاهيّة كما قدّمناه قبل (ومن) هذا الباب
تقول العامّة فى البلدان اذا تناقص عمرانها قد ذهب رزقها

حتّى ان العيون والانهار ينقطع جريها فى القفر لما ان فور العيون انّما يكون بالانباط والامتراء الذى هو عمل انسانىّ كالحال فى ضروع الانعام فما لم يكن امتراء ولا انباط نضبت وغارت بالجملة كما يجفّ الضرع اذا ترك امتراوه وانظره فى البلاد التى يعهد فيها العيون لايام عمرانها ثم ياتى عليها الخراب كيف تغور مياهها جملة كان لم تكن والله مقدّر الليل والنهار

فصل فى وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه

اعلم ان المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعى فى تحصيله وهو مفعل من العيش كانه لما كان العيش الذى هو الحياة لا يحصل الا بهذا جعلت موضعا له على طريق المبالغة (ثم) ان تحصيل الرزق وكسبه امّا ان يكون باخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمّى مغرما وجباية وامّا ان يكون من الحيوان الوحشىّ بافتراسه واخذه برمّته من البرّ او البحر ويسمى اصطيادا وامّا ان يكون من الحيوان الداجن باستخراج فضوله المتصرّفة بين الناس فى منافعهم كاللبن من الانعام والحرير من دوده والعسل من نحله او يكون من النبات فى الزرع والشجر بالقيام عليه واعداده لاستخراج ثمرته ويسمّى هذا كله فلحا

واما ان يكون الكسب من الاعمال الانسانية اما فى موادّ بعينها وتسمى الصنائع من كتابة ونجارة وخياطة وحياكة وفروسيّة وامثال ذلك او فى موادّ غير معيّنة وهى جميع الامتهانات والتصرّفات واما ان يكون الكسب من البضائع واعدادها للاعواض اما بالتغلّب بها فى البلاد او احتكارها وارتقاب حوالة الاسواق فيها ويسمّى هذا تجارة فهذه وجوه المعاش واصنافه وهى معنى ما ذكره المحقّقون من اهل الادب والحكمة كالحريرىّ وغيره قالوا المعاش امارة وتجارة وفلاحة وصناعة (فاما الامارة) فليست بمذهب طبيعىّ للمعاش فلا حاجة بنا الى ذكرها وقد تقدّم شئ من احوال الجبايات السلطانيّة واهلها فى الفصل الثانى (واما) الفلاحة والصناعة والتجارة فهى وجوه طبيعيّة للمعاش (اما الفلاحة) فهى متقدّمة عليها كلّها بالذات اذ هى بسيطة وطبيعيّة وفطريّة لا تحتاج الى نظر ولا الى علم ولهذا تنسب فى الخليقة الى ادم ابى البشر وانه معلّمها والقائم عليها اشارة الى انها اقدم وجوه المعاش وانسبها الى الطبيعة (واما) الصنائع فهى ثانيتها ومتاخّرة عنها لانها مركّبة وعلميّة تصرف فيها الافكار والانظار ولهذا لا توجد غالبا الا فى اهل الحضر الذى هو متاخّر عن البدو وثانٍ عنه ومن هذا المعنى نسبت الى ادريس الاب الثانى للخليقة وانه مستنبطها

لمن بعده من البشر بالوحى من الله تعالى (واما) التجارة وان كانت طبيعيّة فى الكسب فالاكثر من طرقها ومذاهبها انّما هى تحيّلات فى الحصول على ما بين القيمتين فى الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب من تلك الفضيلة ولذلك اباح الشرع فيه المكائسة لما انه من باب المقامرة الا انه ليس اخذا للمال من الغير مجانا فلهذا اختصّ بالمشروعيّة والله اعلم

فصل فى ان الخدمة ليست من المعاش الطبيعىّ

اما السلطان فلا بدّ له من اتّخاذ الخدمة فى سائر ابواب الامارة والملك الذى هو بسبيله من الجندىّ والشرطىّ والكاتب ويستكفى فى كل باب بمن يعلم غناه فيه ويتكفّل بارزاقهم من بيت ماله وهذا كله مندرج فى الامارة ومعاشها اذ كلّهم ينسحب عليهم حكم الامارة والملك الاعظم هو ينبوع جداولهم وامّا ما دون ذلك من الخدمة فسببها ان اكثر المترفين يرتفع عن مباشرة حاجاته او يكون عاجزا عنها لما ربى عليه من خلق التنعّم والترف فيتّخذ من يتولّى ذلك له ويقطعه عليه اجرا من ماله وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولة الطبيعيّة للانسان اذ الثقة بكل احد عجز ولانها تزيد فى الوظائف والخرج وتدلّ على

العجز والخنث الذى ينبغى فى مذاهب الرجولة (1) التنزّه عنهما الا ان العوائد تغلب طبائع الانسان الى مألوفها فهو ابن عوائده لا ابن نسبه (ومع) ذلك فالخديم الذى يستكفى به ويوثق بغنائه كالمفقود اذ الخديم القائم بذلك لا يعدو اربع حالات (اما) مضطلع بامره وموثوق فيما يحصل بيده واما بالعكس فيهما وهو ان يكون غير مضطلع بامره ولا موثوق فيما يحصل بيده (واما) بالعكس فى احداهما فقط مثل ان يكون مضطلعا غير موثوق او موثوقا غير مضطلع فاما الاول فهو المضطلع الموثوق فلا يمكن احدا من استعماله بوجه اذ هو باضطلاعه وثقته غنىّ عن اهل الرتب الدنيّة ومحتقر لمنال الاجر من الخدمة لاقتداره على اكثر من ذلك فلا يستعمله الّا الامراء اهل الجاه العريض لعموم الحاجة الى الجاه واما الصنف الثانى وهو من ليس بمضطلع ولا موثوق فلا ينبغى لعاقل استعماله لانه مجحف بمخدومه فى الامرين معا فيضيع عليه بعدم الاضطلاع تارة ويذهب ماله بالخيانة اخرى فهو كل على مولاه فهذان الصنفان لا يطمع احد فى استعمالهما ولم يبق الا استعمال الصنفين الاخرين موثوق غير مضطلع ومضطلع غير موثوق وللناس فى الترجيح بينهما مذهبان ولكل من الترجيحين وجه الا ان المضطلع ولو كان غير

(1) Man. D. الرجوليّة.

موثوق ارجح لانه يؤمن من تضييعه ويحاول على التحرّز من خيانته جهد الاستطاعة واما المضيّع ولو كان مأمونا فضرره بالتضييع اكثر من نفعه فاعلم ذلك واتّخذه قانونا فى الاستكفاء بالخدمة والله قادر على ما يشاء

فصل فى ان ابتغاء الاموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعىّ

اعلم ان كثيرا من ضعفاء العقول فى الامصار يحرصون على استخراج الاموال من تحت الارض يبتغون الكسب من ذلك ويعتقدون ان اموال الامم السالفة مختزنة كلها تحت الارض مختوم عليها بطلاسم سحريّة لا يفضّ ختامها ذلك الا من عثر على علمه واستحضر ما يحلّه من البخور والدعاء والقربان فاهل الامصار بافريقية يرون ان الافرنجة الذين كانوا بها قبل الاسلام دفنوا اموالهم كذلك واودعوها فى الصحف بالكتاب الى ان يجدوا السبيل الى استخراجها واهل الامصار بالمشرق يرون مثل ذلك فى امم القبط والروم والفرس ويتناقلون ذلك فى احاديث تشبه حديث خرافة من انتهاء بعض الطالبين لذلك الى حفر موضع المال ممّن لم يعرف طلسمه وخبره فيجدونه خلوا او معمورا بالديدان او يستارف الاموال والجواهر موضوعة والحرس

دونها منتضين سيوفهم او يمتدّ به الارض حتى يظنّه خسفا
او مثل ذلك من الهذر وتجد كثيرا من طلبة البربر
بالمغرب العاجزين عن المعاش الطبيعيّ واسبابه يتقرّبون
الى اهل الدنيا بالاوراق المخترمة (1) الحواشى اما بخطوط
اعجميّة او بما ترجم (2) بزعمهم منها من خطوط اهل الدفائن
باعطاء الامارات عليها فى (3) اماكنها يبتغون بذلك الرزق منهم
بما يبعثونهم على الحفر والطلب ويموّهون عليهم بانه انّما
حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه فى مثل هذا من
منال (4) الحكّام والعقوبات وربّما تكون عند بعضهم نادرة
او غريبة من الاعمال السحريّة يموّه بها على تصديق ما
بقى (5) من دعواه وهو بمعزل عن السحر وطرقه فيولع الكثير من
ضعفاء العقول بجمع الايدى على الاحتفار والتستّر فيه بظلمات
الليل مخافة الرقباء وعيون اهل الدول فاذا لم يعثروا على
شئ ردّوا ذلك الى الجهل بالطلسم الذى ختم به على
ذلك المال يخادعون به انفسهم عن اخفاق مطامعهم
والذى يحمل على ذلك فى الغالب زيادة على ضعف
العقل انّما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعيّة
للكسب من التجارة والفلح والصناعة فيطلبونه بالوجوه

(1) Man. C. et D. المتخرّمة. (2) Man. D. ترجع. (3) Man. A. et B. من.
(4) Man. C. مثال. (5) Man. D. نفى.

المنحرفة وعلى غير الوجه الطبيعيّ من هذا وامثاله عجزا عن السعى فى المكاسب وركونا الى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب فى تحصيله واكتسابه ولا يعلمون انهم يوقعون انفسهم بابتغاء ذلك من غير وجهه فى نصب ومتاعب وجهد شديد اشدّ من الاول ويعرضون انفسهم مع ذلك لهنال العقوبات وربّما يحمل فى الاكثر على ذلك زيادة الترف وعوائده وخروجها عن حدّ النهاية حتى تقصر عنها وجوه الكسب ومذاهبه ولا تفى بمطالبها فاذا عجز له الكسب بالمجرى الطبيعيّ لم يجد وليجة فى نفسه الّا التمنّى لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة ليفى ذلك بالعوائد التى حصل فى اسرها فيحرص على ابتغاء ذلك ويسعى فيه جهده ولهذا اكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون من اهل الدول ومن سكّان الامصار الكثيرة الترف المتّسعه الاحوال مثل مصر وما فى معناها تجد الكثير منهم مغرمين بابتغاء ذلك وتحصيله ومسائلة الركبان عن شواذّه كما يحرصون على الكيميا هكذا يبلغنا عن اهل مصر فى مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة لعلّهم يعثرون منه على دفين او كنز ويزيدون على ذلك البحث عن تغوير المياه لما يرون ان غالب هذه الاموال الدفينة كلها فى مجارى النيل وانه اعظم ما يستر دفينا او مختزنا فى تلك الآفاق ويموّه

عليهم اصحاب تلك الدفاتر المستفعله فى الاعتذار عن الوصول اليها بجرية النيل تستّرا بذلك من الكسب حتى يحصل على معاشه فيحرص سامع ذلك منهم على نضوب الماء بالاعمال السحريّة ليحصل ما ابتغاهُ من بعده كلفا بشأن السحر متوارثا فى ذلك القطر عن اوليهم فعلومها السحريّة وآثارها باقية بارضهم فى البرابى وغيرها وقصّة سحرة فرعون شاهدة باختصاصهم بذلك (وقد) يتناقل اهل الغرب قصيدة ينسبونها الى حكماء المشرق يعطى فيها كيفيّة العمل فى التغوير بصناعة سحريّة حسبما تراه فيها وهى

يا طالبا للسرّ فى التغوير ... اسمع كلام الصدق من خبير
دع عنك ما قد صنّفوا فى كتبهم ... من قول بهتان ولفظ غرور
واسمع لصدق مقالتى ونصيحتى ... ان كنت ممّن لا يرى بالزور
فاذا اردت تغوير البئر التى ... حارت لها الافهام فى التدبير
صور كصورتك التى اوقفتها ... والراس راس الشبل فى التقدير
ويداه ماسكتان للحبل الذى ... فى الدلو ينشل من قرار البئر
وبصدره هاء كما عاينتها ... عدد الطلاق احذر من التكرير
ويطاء على الطاات غير ملامس ... مشى اللبيب الكيّس النحرير
ويكون حول الكلّ (1) خطّ دائر ... تربيعه اولى من التكوير
واذبح عليه الطير والطخه به ... واقصد عقيب الذبح بالتبخير
بالسندروس وباللبان وميعة ... والقسط والبسه بثوب حرير
من احمر او اصفر او ازرق (2) ... لا اخضر فيه ولا تكدير
وشدّه خيطان صوف ابيض ... او احمر من خالص التحمير

(1) Man. D. لشكل.

(2) Man. C. et D. لا ازرق.

والطالع الاسد الذى قد بينوا ويكون بدر الشهر غير منير
والبدر متصل بسعد عطارد فى يوم سبت ساعة التدبير

يعنى تكون الطآات بين قدميه كانه يمشى عليها وعندى ان هذه القصيدة من تمويهات المخرقين فلهم فى ذلك احوال غريبة واصطلاحات عجيبة وتنتهى المخرقة والكذب بهم الى ان يسكنوا المنازل المشهورة والدور المعروفة بمثل هذا ويحتفرون بها الحفر ويضعون فيها المطابق والشواهد التى يكتبونها فى صحائف كتبهم ثم يقصدون ضعفاء العقول بامثال هذه الصحائف ويبعثونه على اكتراء ذلك المنزل وسكناه ويوهمونه ان به دفينا من المال لا يعبر عن كثرته ويطالبونه بالمال لاشتراء العقاقير والبخورات لحلّ الطلاسم ويعدونه بظهور الشواهد التى قد اعدّوها هنالك بانفسهم ومن فعلهم فينبعث بما يراه من ذلك وهو قد خدع ولبس عليه من حيث لا يشعر وبينهم فى ذلك اصطلاح فى كلامهم يلبسون به عليهم لتخفى عنهم محاورتهم فيما يتناولونه من حفر وبخور وذبح حيوان وامثال ذلك (واما الكلام) فى ذلك على الحقيقة فلا اصل له فى علم ولا خبر (واعلم) ان الكنوز وان كانت توجد لكنّها فى حكم النادر وعلى وجه الاتّفاق لا على وجه القصد اليها وليس ذلك بامر تعمّ به البلوى حتى يذخر الناس غالبا اموالهم تحت الارض

ويختمون عليها بالطلاسم لا فى القديم ولا فى الحديث
(والركاز) الذى ورد فى الحديث وفرضه الفقهاء وهو دفن
الجاهليّة انما يوجد بالعثور والاتّفاق لا بالقصد والطلب
وايضا فمن اختزن ماله وختم عليه بالاعمال السحريّة فقد بالغ
فى اخفائه فكيف ينصب عليه الامارات والادلّة لمن يبتغيه
ويكتب ذلك فى الصحائف حتى يطلع على ذخيرته
اهل الاعصار والآفاق هذا يناقض قصد الاخفاء وايضا فافعال
العقلاء لا بدّ ان تكون لغرض مقصود فى الانتفاع ومن
اختزن المال فانّما يختزنه لولده او قريبه او من يؤثره به
واما ان يقصد اخفاءه بالكلّيّة عن كل احد وانما هو للبلى
والهلاك او لمن لا يعرفه بالكلّيّة ممّن سيأتى من الامم
فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجه (واما) قولهم اين اموال
الامم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور فاعلم ان
الاموال من الذهب والفضّة والجواهر والامتعة انما هى معادن
ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات
والمعادن والعمران يظهرها بالاعمال الانسانيّة ويزيد فيها
اوينقصها وما يوجد منها بايدى الناس فهو متناقل متوارث
وربّما انتقل من قطر الى قطر ومن دولة الى اخرى
بحسب اعواضه والعمران الذى يستدعيه فان نقص المال
فى المغرب وافريقية فلم ينقص فى بلاد الصقالبة والافرنجة

وان نقص فى مصر والشام فلم ينقص فى الهند والصين وانّما هى آلات ومكاسب والعمران يوفرها او ينقصها مع ان المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات ويسرع الى اللؤلؤ والجوهر اعظم مما يسرع الى غيره وكذا الذهب والفضّة والنحاس والحديد والرصاص والقصدير ينالها من البلاء والفناء ما يذهب باعيانها لاقرب وقت (واما) ما وقع فى مصر من امر المطالب والكنوز فسببه ان مصر كانت فى ملكة القبط منذ الفين اثنين (1) او تزيد من السنين وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضّة والجواهر واللالئ على مذهب من تقدّم من اهل الدول فلما انقرضت دولة القبط وملك الفرس بلادهم نفروا (2) عن ذلك (3) من قبورهم وكشفوا عنه فاخذوا من قبورهم ما لا يوصف كالاهرام من قبور الملوك وغيرها وكذا فعل اليونانيّون من بعدهم وصارت قبورهم مظنّة لذلك لهذا العهد ويعثر على الدفين فيها فى كثير من الاوقات اما ما يدفنونه من اموالهم او ما يكرمون به موتاهم فى الدفن من اوعية وتوابيت من الذهب والفضّة معدّة لذلك فصارت قبور القبط منذ آلاف من السنين مظنّة لوجود ذلك فيها فلذلك عنى (4) اهل مصر

(1) Man. C. et D. منذ الف.
(2) Man. D. نقروا.
(3) Man. C. et D. فى.
(4) Man. C. غنى.

بالبحث عن المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها حتى انّهم حين ضربت المكوس على الاصناف آخر الدول ضربت على اهل المطالب وصارت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحمقى والمهوسين فوجد بذلك المتعاطون له من اهل الاطماع الذريعة الى الكشف عنه والزعم باستخراجه وما حصلوا الا على الخيبة فى جميع مساعيهم نعوذ بالله من الخسران فيحتاج من دفع الى شئ من هذا الوسواس او ابتلى به ان يتعوّذ بالله من العجز والكسل فى طلب معاشه كما تعوّذ رسول الله صلعم عن ذلك وينصرف عن طرق الشيطان ووسواسه ولا يشغل نفسه بالمحالات والكاذب من الحكايات والله يرزق من يشاء بغير حساب

فصل فى ان الجاه مفيد للمال

وذلك انّا نجد صاحب الجاه والحظوة فى جميع اصناف المعاش اكثر يسارا وثروة من فاقد الجاه والسبب فى ذلك ان صاحب الجاه مخدوم بالاعمال يتقرّب بها اليه فى سبيل التزلّف والحاجة الى جاهه فالناس معينون له باعمالهم فى جميع حاجاته من ضرورىّ او حاجىّ او كمالىّ فتحصل قيمة تلك الاعمال كلّها من كسبه وجميع ما شأنه ان تبذل فيه الاعواض من العمل يستعمل فيها الناس من غير

عوض فتتوفّر قيمَ تلك الاعمال عليه فهو بين قيم للاعمال يكتسبها وقيم اخرى تدعوه الضرورة الى اخراجها فتتوفر عليه والاعمال لصاحب الجاه كثيرة فيفيد الغنى لاقرب وقت ويزداد مع الايام يسارا وثروة ولهذا المعنى كانت الامارة احد اسباب المعاش كما قدّمناه (وفاقد) الجاه بالكلّيّة ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره الا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه وهولاء هم اكثر التجّار ولهذا نجد اهل الجاه منهم يكونون ايسر بكثير (ومما) يشهد لذلك انّا نجد كثيرا من الفقهاء واهل الدين والعبادة اذا اشتهر حسن الظنّ بهم واعتقد الجمهور معاملة الله فى ارفادهم فاخلص الناس فى اعانتهم على احوال دنياهم والاعتمال فى مصالحهم اسرعت اليهم الثروة واصبحوا مياسير من غير مال مقتنى الا ما يحصل لهم من قيم الاعمال التى وقعت المعونة بها من الناس لهم راينا من ذلك اعدادا فى الامصار والمدن وفى البدو يسعى لهم الناس فى لفلح والتجر وهو قاعد فى منزله لا يبرح من مكانه فينمو ماله ويعظم كسبه ويتأثّل الغنى من غير سعى ويعجب من لا يفطن لهذا السرّ فى حال ثروته واسباب غناه ويساره والله يرزق من يشاء بغير حساب

فصل فى ان السعادة والكسب انما تحصل غالبا لاهل الخضوع والملق وان هذا الخلق من اسباب السعادة

وقد سبق لنا فيما سلف ان الكسب الذى يستفيده البشر انّما هو قيم اعمالهم ولو قدر احد عاطلا عن العمل جملة لكان فاقد الكسب بالكلّيّة وعلى قدر عمله وشرفه بين الاعمال وحاجة الناس اليه يكون قدر قيمته وعلى قدر ذلك نمو كسبه او نقصانه (وقد) بيّنّا آنفا ان الجاه يفيد المال بما يحصل لصاحبه من تقرّب الناس اليه باعمالهم وباموالهم فى دفع المضارّ وجلب المنافع وكان ما يتقرّبون به من عمل او مال عوض عمّا يحصلون عليه بسبب الجاه من كثير الاعراض فى صالح او طالح وتصير تلك الاعمال فى كسبه وقيمها اموال وثروة فيستفيد الغنى واليسار فى اقرب وقت (ثم) ان الجاه متوزّع فى الناس ومترتّب فيهم طبقة بعد طبقة ينتهى فى العلو الى الملوك الذين ليس فوقهم يد غالبة وفى السفل الى من لا يملك ضرّا ولا نفعا بين ابناء جنسه وبين ذلك طبقات متعدّدة حكمة من الله فى خليقته بها ينتظم معاشهم وتتيسّر مصالحهم ويتمّ بعلوهم (لان) النوع الانسانىّ لمّا كان لا يتمّ وجوده وبقاوه الا بتعاون ابنائه على مصالحهم لانه قد تقرّر

ان الواحد منهم لا يتمّ وجوده وانه وان ندر ذلك فى صورة مفروضة فلا يصحّ بقاوه ثم ان هذا تعاون لا يحصل الا بالاكراه عليه لجهلهم فى الاكثر بمصالح النوع ولما جعل الله لهم من الاختيار وان افعالهم انّما تصدر بالفكر والروية لا بالطبع فقد يمتنع من المعونة فيتعيّن حمله عليها فلا بدّ من حامل يكره ابناء النوع على مصالحهم لتتمّ الحكمة الالهيّة فى بقاء هذا النوع وهذا معنى قوله وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضكم بعضا سخريّا ورحمة ربّك خير ممّا يجمعون (فقد) تبيّن ان معنى الجاه هو القدرة الحاصلة للبشر على التصرّف فيمن تحت ايديهم من ابناء جنسهم بالاذن والمنع والتسلّط فيهم بالقهر والغلبة ليحملهم على دفع مضارّهم وجلب منافعهم فى العدل وباحكام الشرائع او السياسة وعلى اغراضه فيما سوى ذلك لكن الاول مقصود فى العناية الربّانيّة بالذات والثانى داخل فيها بالعرض كسائر الشرور الداخلة فى القضاء الالهىّ لانّه قد لا يتمّ وجود الخير الكثير الا بوجود شرّ يسير من اجل الموادّ فلا يفوت الخير بذلك بل يقع على ما ينطوى عليه من الشرّ اليسير وهذا معنى وقوع الظلم فى الخليقة فتفهم (ثم) ان كل طبقة من طباق اهل العمران من مدينة او اقليم لها قدرة على من دونها من الطباق وكل واحد من الطبقة السفلى يستمدّ هذا الجاه من

اهل الطبقة التى فوقه ويزداد كاسبه تصرّفا فيمن تحت يده على قدر ما يستفيد منه والجاه مع ذلك داخل على الناس فى جميع ابواب المعاش ويتّسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذى فيه صاحبه فان كان الجاه متسعا كان الكسب الناشئ عنه كذلك وان كان ضيّقا وقليلا فمثله وفاقد الجاه ولو كان له مال فلا يكون يساره الا بمقدار عمله او ماله وعلى نسبة سعيه ذاهبا وجائيا فى تنميته كاكثر التجّار واهل الفلاحة فى الغالب واهل الصنائع كذلك اذا فقدوا الجاه واقتصروا على فوائد صنائعهم فانّهم يصيرون الى الفقر والخصاصة فى الاكثر ولا تسرع اليهم ثروة انّما يرمقون العيش ترميقا ويدفعون ضرورة الفقر مدافعة (واذا تقرّر ذلك) وان الجاه متوزّع وان السعادة والخير مقترنان بحصوله علمت ان بذله وافادته من اعظم النعم واجلّها وان باذله من اجلّ المنعمين وانّما يبذله لمن تحت يده فيكون بذله بيد عالية وعن عزّة فيحتاج طالبه ومبتغيه الى خضوع وتملّق كما يسأل اهل العزّ والملوك والّا فيتعذّر حصوله فلذلك قلنا ان الخضوع والتملّق من اسباب حصول هذا الجاه المحصل للسعادة والكسب وان اكثر اهل الثروة والسعادة بهذا الخلق ولهذا نجد الكثير ممن يتخلّق بالترفّع والشمم لا يحصل لهم غرض من الجاه

فيقتصرون فى التكسّب على اعمالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة (واعلم) ان هذا الكبر والترفّع من الخلق المذمومة انّما يحصل من توهّم الكمال وان الناس يحتاجون الى بضاعته من علم او صناعة كالعالم المتبحر فى علمه والكاتب المجيد فى كتابته والشاعر البليغ فى شعره وكل محسن فى صناعته يتوهّم ان الناس محتاجون الى ما بيده فيحدث له الترفّع عليهم بذلك وكذا يتوهّم اهل الانساب ممّن كان فى آبائه ملك او عالم مشهور او كامل فى طور يغترّون (1) فيما رأوه او سمعوه من حال ابائهم فى المدينة ويتوهّمون انّهم استحقوا مثل ذلك بقرابتهم اليهم ووراثتهم عنهم فهم مستمسكون فى الحاضر بالامر المعدوم اذ الكمال لا يورث وكذلك اهل الحنكة والتجارب والبصر بالامور قد يتوهّم بعضهم كمالا فى نفسه بذلك واحتياجا اليه وتجد هولا الاصناف كلّهم مترفّعين لا يخضعون لصاحب جاه ولا يتملّقون لمن هو اعلى منهم ويستصغرون من سواهم لاعتقادهم الفضل على الناس فيستنكف احدهم عن الخضوع ولو كان للملك ويعدّه مذلّة وهوانا وسفها ويحاسب الناس فى معاملتهم ايّاه بمقدار ما يتوهّم فى نفسه ويحقد على من قصر له فى شئ ممّا يتوهّمه من ذلك

(1) Man. C. يعتزّون.

وربّما يدخل على نفسه الهموم والاحزان من تقصيرهم فيه ويستمرّ فى عناء عظيم من ايجاب الحقّ لنفسه واباية الناس له من ذلك ويحصل له المقت فى الناس لما فى طباع البشر من التألّه وقلّ ان يسلّم احد منهم لاحد فى الكمال والترفع عليه الا ان يكون ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة وهذا كلّه فى ضمن الجاه فاذا فقد صاحب هذا الخلق الجاه وهو مفقود له كما تبيّن لك مقته الناس بهذا الترفّع ولم يحصل له حظّ من احسانهم ففقد الجاه لذلك من اهل الطبقة التى هى اعلى منه لاجل المقت وما يحصل له بذلك من القعود عن تعاهدهم وغشيان منازلهم ففسد معاشه وبقى فى خصاصة وفقر او فوق ذلك بقليل واما الثروة فلا تحصل له اصلا ومن هذا اشتهر بين الناس ان الكامل فى المعرفة محروم من الحظّ وانه قد حوسب بما رزق من المعرفة واقتطع له ذلك من الحظّ وهذا معناه ومن خلق لشئ يسر له والله المقدّر لا ربّ سواه (ولقد) يقع فى الدول اضطراب فى المراتب من اجل هذا الخلق ويرتفع فيها كثير من السفلاء وينزل كثير من العلية بسبب ذلك وذلك ان الدول اذا بلغت غايتها من التغلّب والاستيلاء وانفرد منها منبت الملك بملكهم وسلطانهم ويئس سواهم من ذلك وانّما صاروا فى مراتب

دون مرتبة الملك وتحت يد السلطان وكأنّهم خول له فاذا استمرّت الدولة وشمخ الملك تساوى حينئذ فى المنزلة عند السلطان كل من انتمى الى خدمته وتقرّب اليه بنصيحته واصطنعه السلطان لغنائه فى كثير من مهمّاته فتجد كثيرا من السوقة يسعى فى التقرّب من السلطان بجدّه ونصحه ويتزلّف اليه بوجوه خدمته ويستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتملّق ولحاشيته واهل نسبه حتّى يرسخ قدمه معهم وينظمه السلطان فى جملته فيحصل له بذلك حظّ عظيم من السعادة وينتظم فى عداد اهل الدولة وناشئة الدولة حينئذ من ابناء قومها الذين ذلّلوا صعابها ومهّدوا اكنافها مغترّون بما كان لابائهم فى ذلك من الاباء وتشمخ به نفوسهم على السلطان ويعتدّون بآثاره ويجرون فى مضمار الدالة بسببه فيمقتهم السلطان لذلك ويباعدهم ويميل الى هولاء المصطنعين الذين لا يعتدّون بقديم ولا يذهبون الى دالة ولا ترفّع انّما دأبهم الخضوع له والتملّق والاعتمال فى غرضه متى ذهب اليه فيتّسع جاههم وتعلو منازلهم وتنصرف اليهم الوجوه والخواصّ بما يحصل لهم من ميل السلطان والمكانة عنده وتبقى ناشئة السلطان فيما هم فيه من الترفّع والاعتداد بالقديم لا يزيدهم ذلك الا بعدا من السلطان ومقتا وإيثارا الى هولاء المصطنعين عليهم الى ان

تنقرض الدولة وهذا امر طبيعيّ فى الدول ومنه جاء شأن المصطنعين فى الغالب والله فعّال لما يريد

فصل فى ان القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة والخطابة والاذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم فى الغالب

والسبب فى ذلك ان الكسب كما قدّمناه قيمة الاعمال وانّها متفاوتة بحسب الحاجة اليها فان كانت الاعمال ضروريّة فى العمران عامّة البلوى فيه كانت قيمتها اعظم وكانت الحاجة اليها اشدّ واهل هذه البضائع الدينيّة لا تضطرّ اليها عامّة الخلق وانّما يحتاج الى ما عندهم الخواصّ ممّن اقبل على دينه وان احتيج الى القضاء والفتيا فى الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعموم فيقع الاستغناء عن هؤلاء فى الاكثر وانّما يهتمّ بهم وباقامة مراسمهم صاحب الدولة لما له من النظر فى المصالح فيقسم لهم حظّا من الرزق على نسبة الحاجة اليهم على النحو الذى قرّرناه لا يساويهم باهل الشوكة ولا باهل الصنائع الضروريّة وان كانت بضاعتهم اشرف من حيث الدين والمراسم الشرعيّة لكنّه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة اهل العمران فلا يصحّ فى قسمتهم الّا القليل وهم ايضا لشرف

بضاعتهم اعزّة على الخلق وعند نفوسهم فلا يخضعون لاهل الجاه حتّى ينالوا منه حظّا يستدرون به الرزق بل ولا تفرغ اوقاتهم لذلك لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشتملة على الفكر والتدبّر بل ولا يسعهم ابتذال انفسهم لاهل الدنيا لشرف بضائعهم فهم بمعزل عن ذلك فلذلك لا تعظم ثروتهم فى الغالب (ولقد) باحثت بعض الفضلاء ونكر ذلك علىّ فوقع بيدى اوراق مخرمة من حسبانات الدواوين بدار المامون تشتمل على كثير من الدخل والخرج يومئذ وكان فيما طالعت فيه ارزاق القضاة والايمّة والموذّنين فوقفته عليه وعلم منه صحّة ما قلته ورجع اليه وقضينا العجب من اسرار الله فى خليقته وحكمته فى عوالمه والله الخالق المقدّر

فصل فى ان الفلاحة من معاش المستضعفين واهل العافية من البدو

وذلك لانه اصل فى الطبيعة وبسيط فى منحاه ولهذا لا تجده ينتحله احد من اهل الحضر فى الغالب ولا من المترفين ويختصّ منتحله بالمذلّة قال صلعم وقد راى السكّة ببعض دور الانصار ما دخلت هذه دار قوم الّا دخله الذل وحمله البخارىّ على الاستكثار منه وترجم عليه باب

ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع او تجاوز الحدّ الذى امر به والسبب فيه والله اعلم ما يتبعها من المغرم المفضى الى التحكّم واليد الغالبة فيكون الغارم ذليلا بائسا بها يتناوله ايدى القهر والاستطالة قال صلعم لا تقوم الساعة حتّى تعود الزكاة مغرما اشارة الى الملك العضوض القاهر للناس الذى معه التسلّط والجور ونسيان حقوق الله تعالى فى المتموّلات واعتبار الحقوق كلّها مغارم للملوك والدول والله قادر على ما يشاء

فصل فى معنى التجارة ومذاهبها وصنافها

اعلم ان معنى التجارة محاولة على الكسب بتنمية المال فى شراء السلعة بالرخص وبيعها بالغلاء ما كانت السلعة من رقيق او زرع او حيوان او سلاح او قماش وذلك القدر النامى يسمّى ربحا والمحاولة لذلك الربح امّا بان تختزن السلعة ويتحيّن بها حوالة السوق من الرخص الى الغلاء فيعظم ربحه وامّا بان ينقله الى بلد اخر تنفق فيه تلك السلعة اكثر من بلده الذى اشتراها فيه فيعظم ربحه ولذلك قال بعض الشيوخ من التجّار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة انا اعلمكها فى كلمتين اشتر الرخيص وبع الغالى وقد حصلت التجارة اشارة بذلك الى المعنى

الذى قرّرناه والله الرزّاق ذو القوة المتين

فصل فى نقل التاجر للسلع

التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من السلع الّا ما تعمّ الحاجة اليه من الغنىّ والفقير والسلطان والسوقة اذ فى ذلك نفاق سلعته واما اذا اختصّ نقله بما يحتاج اليه البعض فقط فقد يتعذر نفاذ سلعته حينئذ باعواز الشراء على ذلك البعض لعارض من العوارض فيكسد سوقه وتفسد ارباحه وكذلك اذا نقل السلعة المحتاج اليها فانّما ينقل الوسط من صنفها فان الغالى من كل صنف من السلع انّما يختصّ به اهل الثروة وحاشية الدولة وهم الاقلّ وانّما يكون الناس اسوة فى الحاجة الى الوسط من كل صنف فليتحرّ ذلك جهده ففيه نفاق سلعته او كسادها وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة او فى شدّة الخطر فى الطرقات يكون اكثر فائدة للتجّار واعظم ارباحا واكفل بحوالة الاسواق لان السلع المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعد مكانها او شدّة الغرر فى طريقها فيقلّ حاملوها ويعزّ وجودها واذا قلّت وعزّت غلت اثمانها واذا كان البلد قريب المسافة والطريق سابل بالامن فانه حينئذ يكثر ناقلوها فتكثر وترخص اثمانها (ولهذا) تجد التجار الذين

يولعون بالدخول الى بلاد السودان ارفه الناس واكثرهم اموالا لبعد طريقهم ومشقّته واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش لا يوجد فيها الماء الا فى اماكن معلومة يهتدى اليها ادلّاء الركاب فلا يرتكب هذا الطريق وبعده الا الاقلّ من الناس فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختصّ بالغلاء وكذا سلعنا لديهم فتعظم بضائع التجّار من تناقلها ويسرع اليهم الغنى والثروة من اجل ذلك وكذلك المسافرون من بلادنا الى المشرق لبعد المشقّة (1) ايضا وامّا المتردّدون فى الافق الواحد ما بين امصاره وبلدانه ففائدتهم قليلة وارباحهم تافهة لكثرة السلع وكثرة ناقلها والله الرزّاق ذو القوة المتين

فصل فى الاحتكار

وممّا اشتهر عند ذوى البصر والتجربة فى الامصار ان احتكار الزرع لتحيّن اوقات الغلاء به مشؤم وانه يعود على فائدته بالتلف والخسران وسببه والله اعلم ان الناس لحاجتهم الى الاقوات مضطرّون الى ما يبذلون فيها من المال اضطرارا فتبقى النفوس متعلّقة به فى تعلّق النفوس بما لها شرّ كبير فى وباله على من ياخذه مجانا (ولعلّه) الذى اعتبره

(1) Man. C. الشقّة.

الشارع فى اخذ اموال الناس بالباطل وهذا وان لم يكن مجانا (1) فالنفوس متعلّقة به لاعطائه ضرورة من غير سعة فى العذر فهو كالمكره وما عدا الاقوات والمأكولات من المبيعات لاضطرار الناس اليها وانّما يبعثهم عليها التفنّن فى الشهوات فلا يبذلون اموالهم فيها الّا باختيار وحرص فلا يبقى لهم تعلّق بما اعطوه فلهذا يكون من عرف الاحتكار تجتمع القوى النفسانيّة على متابعته بما ياخذه من اموالهم فيفسد ربحه والله اعلم (وسمعت) فيما يناسب ذلك حكاية ظريفة عن بعض مشيخة المغرب اخبرنى شيخنا ابو عبد الله الابلى (2) قال حضرت عند القاضى بفاس لعهد السلطان ابو سعيد وهو الفقيه ابو الحسن الهليلى وقد عرض عليه ان يختار بعض الالقاب المخزنيّة لجرايته فاطرق مليا ثم قال لهم من مكس الخمر فاستضحك الحاضرون من اصحابه وعجبوا وسائلوه عن حكمة ذلك فقال اذا كانت الجبايات كلها حراما فاختار منها ما لا تتابعه نفوس معطيه والخمر قل ان يبذل احد فيها ماله الا وهو طرب مسرور يوجد انه غير اسف عليه ولا متعلّق به وهذه ملاحظة غريبة والله تعالى اعلم

(1) Man. D. باطلا محضا. (2) Man. A. الايلى. C. الابلق.

فصل فى ان رخص الاسعار مضرّ بالمحترفين بالرخيص

وذلك ان الكسب والمعاش كما قدّمناه انّما هو بالصنائع او التجارة والتجارة هى شراء البضائع والسلع وادخارها تتحيّن بها حوالة الاسواق بالزيادة فى اثمانها ويسمى ربحا ويحصل منه الكسب والمعاش للمحترفين بالتجارة دائما فاذا استديم الرخص فى سلعة او عرض من مأكول او ملبوس او متموّل على الجملة ولم يحصل للتاجر حوالة الاسواق فيه فسد الربح والنماء بطول تلك الهدّة وكسدت سوق ذلك الصنف ولم يحصل التاجر الّا على العناء فيقعد التجّار عن السعى فيها وتفسد رؤس اموالهم (واعتبر) ذلك مثلا بالزرع اذا استديم رخصه كيف تفسد احوال المحترفين به فى سائر اطواره من الفلح والزراعة لقلّة الربح فيه ونزارته او فقده فيفقدون النماء فى اموالهم او يجدونه على قلّة ويعودون بالانفاق على رؤس اموالهم وتفسد احوالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة ويتبع ذلك فساد حال المحترفين ايضا بالطحن والخبز وسائر ما يتعلّق بالزرع من الحرف من لدن زراعته الى مصيره مأكولا وكذا يفسد حال الجند اذا كانت ارزاقهم من السلطان عند اهل الفلح زرعا بالاقطاع فانّهم تقل جباياتهم من ذلك ويعجزون عن اقامة الجنديّة

التى هم بسببها ويرتزقون من السلطان عليها فيقطع عنهم الرزق وتفسد احوالهم وكذا اذا استديم الرخص فى العسل والسكر فسد جميع ما يتعلق به وقعد المحترفون به عن التجارة فيه وكذا حال الملبوسات اذا استديم فيها الرخص ايضا فاذن الرخص المفرط مجحف بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص (وكذا الغلاء المفرط) ايضا وربّما يكون فى النادر سببا لنماء المال بسبب احتكاره وعظم فائدته وانّما معاش الناس وكسبهم فى التوسّط من ذلك وسرعة حوالة الاسواق ومعرفة ذلك ترجع الى العوائد المتقرّرة بين اهل العمران وانّما يحمد الرخص فى الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة اليه واضطرار الناس الى الاقوات من بين الغنى والفقير والعالة من الخلق هم الاكثر فى العمران فيعمّ الرفق بذلك ويرجح جانب القوت على جانب التجارة فى هذا الصنف الخاصّ والله الرزّاق ذو القوة المتين

فصل فى اىّ اصناف الناس ينتفع بالتجارة وايّهم ينبغى له تركها

قد تقدّم لنا ان معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها باغلا من ثمن الشراء امّا بانتظار حوالة الاسواق او نقلها الى بلد هى فيه انفق واغلا او بيعها

بالغلاء على الآجال وهذا الربح بالنسبة الى اصل المال نزر يسير لان المال ان كان كثيرا عظم الربح لان القليل فى الكثير كثير (ثم) لا بدّ فى محاولة هذه التنمية الذى هو الربح من حصول هذا المال بايدى الباعة فى شراء البضائع وبيعها وتقاضى اثمانها واهل النصفة منهم قليل فلا بدّ من الغشّ والتطفيف المجحف بالبضائع والمطل فى الاثمان المجحف بالربح لتعطيل المحاولة فى تلك المدّة وبها نماؤه ومن الجحود والانكار المسحت لرأس المال ان لم يقيّد بالكتاب والشهادة وغناء الحكّام فى ذلك قليل لان الحكم انّما هو على الظاهر فيعانى التاجر من ذلك احوالا صعبة ولا يكاد يحصل على ذلك التافه من الربح الّا بعظم العناء والمشقّة او لا يحصل ويتلاشا رأس ماله فان كان جريا على الخصومة بصيرا بالحسبان شديد المماحكة مقداما على الحكّام كان ذلك اقرب له الى النصفة منهم بجرأته ومماحكته والّا فلا بدّ له من جاه يدرع به فيوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكّام على انصافه من غرمائه فيحصل له بذلك النصفة واستخلاص ماله منهم طوعا فى الاول وكرها فى الثانى وامّا من كان فاقد الجرأة والاقدام من نفسه وفاقد الجاه من الحكّام فينبغى له ان يجتنب التجارة لانه يعرض بماله للذهاب والضيعة ويصيره مأكلة

للباعة ولا يكاد ينتصف منهم لان الناس فى الغالب متطلّعون الى ما فى ايدى الناس ولولا وازع احكام ما سلم لاحد شئ ممّا فى يده وخصوصا الباعة وسفلة الناس ورعاعهم (1) ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكنّ الله ذو فضل على العالمين

فصل فى ان خلق التجّار نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة عن المروءة

قد قدّمنا فى الفصل قبله ان التاجر مدفوع الى معاناة البيع والشراء وجلب الفوائد والارباح ولا بدّ فى ذلك من المكايسة والمماحكة والتحذلق وممارسة الخصومات واللجاج وهى عوارض هذه الحرفة وهذه الاوصاف تغضّ من الذكاء والمروءة وتجدح فيها لان الافعال لا بدّ من عود آثارها على النفس فافعال الخير تعود بآثار الخير والزكاء وافعال الشرّ والسفسفة تعود بضدّ ذلك فتتمكّن وترسخ ان سبقت وتكرّرت وتنقص من خلال الخير ان تأخّرت عنها بما ينطبع من آثارها المذمومة فى النفس شأن الملكات الناشئة عن الافعال وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت اصناف التجّار فى اطوارهم فمن كان منهم سافل الطور مخالطا لشرار الباعة اهل

(1) Man. A. رعاتهم. D. رعاثهم.

الغشّ والخلابة والخديعة والفجور فى الايمان على البياعات والاثمان اقرارا وانكارا كانت رذأة تلك الخلق عنده اشدّ وغلبت عليه السفسفة وبعد عن المروات واكتسابها بالجملة والّا فلا بدّ له من تأثير المكايسة والمماحكة فى مروّته وفقدان ذلك فيهم بالجملة قليل ووجود الصنف الثانى منهم الذى قدّمنا فى الفصل قبله انّهم يدرعون (1) بالجاه ويعوض لهم من مباشرة ذلك فهم نادر واقلّ من النادر وذلك ان يكون المال قد توفر عنده دفعة بنوع غريب او ورثه عن احد من اهل بيته فحصلت له ثروة تعينه على الاتّصال باهل الدولة وتكسبه ظهورا وشهرة بين اهل عصره فيترفّع عن مباشرة ذلك بنفسه ويدفعه الى من يقوم له به من وكلائه وحشمه ويسهل لهم الحكّام النصفة (2) فى حقوقهم بما يونسؤنه من برّه واتحافه فيبعدون عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الافعال المقتضية لها كما مرّ فتكون مروّتهم ارسخ وابعد عن المخدجات (3) الّا ما يسرى من آثار تلك الافعال من وراء الحجاب فانهم يضطرّون الى مشارفة احوال اولئك الوكلاء ووفاقهم او خلافهم فيما يأتون ويذرون من ذلك الّا انه قليل ولا يكاد يظهر اثره والله خلقكم وما تعلمون

(1) Man. C. et D. يزرعون. (2) Man. C. et D. النصف.

(3) Man. B. المخرجات. C. المحدجات. D. المحرجات.

فصل فى ان الصنائع لا بدّ لها من المعلّم (1)

اعلم ان الصناعة هى ملكة فى امر عملىّ فكرىّ وبكونه عمليّا هو جسمانىّ محسوس والاحوال الجسمانيّة المحسوسة نقلها بالمباشرة اوعب لها واكمل لان المباشرة فى الاحوال الجسمانيّة المحسوسة اتمّ فائدة والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرّره مرّة بعد اخرى حتى ترسخ صورته وعلى نسبة الاصل تكون الملكة ونقل المعاينة اوعب واتمّ من نقل الخبر والعلم فالملكة الحاصلة عنه اكمل وارسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلّم يكون حذق المتعلّم فى الصناعة وحصول ملكته ثمّ ان الصنائع منها البسيط ومنها المركّب والبسيط هو الذى يختصّ بالضروريّات والمركّب هو الذى يكون للكماليّات والمتقدّم منها فى التعليم هو البسيط لبساطته اولا ولانه يختصّ بالضرورىّ الذى تتوفّر الدواعى على نقله فيكون سابقا فى التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصا ولا يزال الفكر تخرج اصنافها ومركّباتها من القوة الى الفعل بالاستنباط شئا شئا على التدريج حتّى تكمل ولا يحصل ذلك دفعة وانّما يحصل

(1) Man. C. معلّم. D. العلم.

فى ازمان واجيال اذ خروج الاشياء من القوة الى الفعل لا يكون دفعة لاسيما فى الامور الصناعيّة ولا بدّ له اذا من زمان ولهذا نجد الصنائع فى الامصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها الّا البسيط فاذا تزيّدت حضارتها ودعت امور الترف فيها الى استعمال الصنائع خرجت من القوة الى الفعل والله اعلم

فصل فى ان الصنائع انّما تكمل بكمال العمران الحضرىّ وكثرته

والسبب فى ذلك ان الناس ما لم يستوف العمران الحضرىّ وتتمدّن المدينة انّما همهم فى الضرورىّ من المعاش وهو تحصيل الاقوات من الحنطة وغيرها فاذا تهدّنت المدينة وتزيدت فيها الاعمال ووفت بالضرورىّ وزادت عليه صرف الزائد حينئذ الى الكمالات من المعاش (ثمّ) ان الصنائع والعلوم انّما هى للانسان من حيث فكره الذى يتميّز به عن الحيوانات والقوت له من حيث الحيوانيّة والغذائية فهو متقدّم لضرورته على العلوم والصنائع وهى متأخّرة عن الضرورى وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنّق فيها حينئذ وجودة ما يطلب منها بحسب دواعى الترف والثروة (واما العمران البدوىّ) او القليل فلا يحتاج من

الصنائع الا البسيط خاصّة المستعمل فى الضرورات من نجّار او حدّاد او خيّاط او جزّار او حائك واذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه كاملة ولا مستجادة وانّما يوجد منها بمقدار الضرورة اذ هى كلها وسائل الى غيرها وليست مقصودة لذاتها واذا زخر بحر العمران وطلبت فيها الكمالات كان من جملتها التأنّق فى الصنائع واستجادتها فكملت بجميع متمّماتها وتزيّدت صنائع اخرى معها ممّا تدعو اليه عوائد الترف واحواله من خرّاز ودبّاغ وحرّار وصائغ وامثال ذلك (وقد) تنتهى هذه الاصناف اذا استبحر العمران ان يوجد فيها كثير من الكمالات ويتأنّق فيها فى الغاية وتكون من وجوه المعاش فى المصر لمنتحلها بل تكون فائدتها من اعظم فوائد الاعمال لما يدعو اليه الترف فى المدينة مثل الدهّان والصفّار والحمامىّ والطبّاخ والسفّاج والهرّاس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ومثل الورّاقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها فان هذه الصناعة انّما يدعو اليها الترف فى المدينة من الاشتغال بالامور الفكريّة وامثال ذلك وقد تخرج عن الحدّ اذا كان العمران خارجا عن الحدّ كما يبلغنا عن اهل مصر ان فيهم من يعلّم الطيور العجم والحمر الانسيّة ويخيل اشياء من العجائب بايهام قلب

الاعيان وتعليم الحدا والرقص والمشى على الخيوط فى الهواء ورفع الاثقال من الحيوانات والحجارة وغير ذلك من الصنائع التى لا توجد عندنا بالمغرب لانّ عمران امصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة والله الحكيم العليم

فصل فى ان رسوخ الصنائع فى الامصار برسوخ الحضارة وطول امدها

والسبب فى ذلك ظاهر وهو ان هذه كلها عوائد للعمران والوان والعوائد انّما ترسخ بكثرة التكرار وطول الامد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ فى الاجيال واذا استحكمت الصبغة عسر نزعها ولهذا فانّا نجد الامصار التى كانت استبحرت فى الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست فى غيرها من الامصار المستحدثة العمران ولو بلغت مبالغها فى الوفور والكثرة وما ذاك الّا لان احوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الاحقاب وتداول الاحوال وتكرّرها وهذه لم تبلغ الغاية بعد وهذا كالحال فى الاندلس لهذا العهد فانّا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة واحوالها مستحكمة راسخة فى جميع ما تدعو اليه عوائد امصارها كالمبانى والطبخ واصناف الغناء واللهو من الآلات والاوتار والرقص وتنضيد الفرش فى القصور

وحسن الترتيب والاوضاع فى البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين واقامة الولائم والاعراس وسائر الصنائع التى يدعو اليها الترف وعوائده فتجدهم اقوم الناس عليها وابصر بها وتجد صنائعها مستحكمة لديهم فهم على حصّة موفورة من ذلك وحظّ متميّز بين جميع الامصار وان كان عمرانها قد تناقص والكثير منه لا يساوى عمران غيرها من بلاد العدوة وما ذاك الا لما قدّمناه من رسوخ الحضارة بينهم برسوخ الدولة الامويّة وما قبلها من دولة القوط وما بعدها من دولة الطوائف الى هلم فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه فى قطر الّا ما ينقل عن العراق والشام ومصر ايضا لطول آماد الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع وكملت جميع اصنافها على الاستجادة والتنميق وبقيت صبغتها ثابتة فى ذلك العمران لا تفارقه الى ان ينتقص بالكلّيّة حال الصبغ اذا رسخ فى الثوب وكذا ايضا حال تونس فيما حصل فيها من الحضارة بالدول الصنهاجيّة والموحّدين من بعدهم وما استكمل لها ذلك من الصنائع فى سائر الاحوال وان كان ذلك دون الاندلس الّا انه متضاعف برسوم منها تنتقل اليها من مصر لقرب المسافة وتردّد المسافرين من قطرها الى قطر مصر فى كل سنة وربّما سكن اهلها هنالك عصورا فينقلون من عوائد ترفهم

ومحكم صنائعهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان فصارت احوالها فى ذلك متشابهة من احوال مصر لما ذكرناه ومن احوال الاندلس لما ان اكثر ساكنها من شرق الاندلس حين الجلاء لعهد الماية السابعة ورسخ فيها من ذلك احوال وان كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد الّا ان الصبغة اذا استحكمت فقليلا ما تحول الّا بزوال محلّها وكذلك نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد اثرا باقيا من ذلك وان كانت هذه كلها اليوم خرابا او فى حكم الخراب ولا يتفطّن لها الا البصير من الناس فيجد من هذه الصنائع اثارة تدلّه على ما كان بها كاثر الخطّ الممحو فى الكتاب والله الخلّاق

فصل فى ان الصنائع انّما تستجاد وتكثر اذا كثر طالبها

والسبب فى ذلك ان الانسان لا يسمح بعمله ان يقع مجانا لانه كسبه ومنه معاشه اذ لا فائدة له فى جميع عمره فى شئ ممّا سواه فلا يصرفه الّا فيما له قيمة فى مصره ليعود عليه بالنفع واذا كانت الصناعة مطلوبة ويوجّه اليها النفاق كانت حينئذ الصناعة بمثابة السلعة التى نفق سوقها وتجلب للبيع فيجتهد الناس فى المدينة لتعلم

تلك الصناعة ليكون منها معاشهم واذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم ينفق سوقها ولا يوجه قصد الى تعلمها فاختصّت بالترك وفقدت للاهمال (ولهذا) يقال عن على كرم الله وجهه قيمة كل امرء ما يحسنه بمعنى ان صناعته هى قيمته اى قيمة عمله الذى هو معاشه وايضا فهنا سرّ اخر وهو ان الصنائع واجادتها انّما تطلبها الدولة فهى التى تنفق من سوقها وتوجه الطلبات اليها وما لم تطلبه الدولة وانّما يطلبه غيرها من اهل المصر فليس على نسبتها لان الدولة هى السوق الاعظم وفيها نفاق كل شئ والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة فما نفق فيها كان اكثريّا ضرورة والسوقة وان طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعامّ ولا سوقهم بنافقة والله قادر على ما يشاء

فصل فى ان الامصار اذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع

وذلك لما بيّنّاه من ان الصنائع انّما تستجاد اذا احتيج اليها وكثر طالبها فاذا ضعفت احوال المصر واخذ فى الهرم بانتقاص عمرانه وقلّة ساكنه تناقص فيه الترف ورجعوا الى الاقتصار على الضرورىّ من احوالهم فتقل الصنائع التى كانت من توابع الترف لان صاحبها حينئذ لا يصحّ

له بها معاش فيفر (1) الى غيرها او يموت ولا يكون خلف منه فيذهب رسم تلك الصنائع جملة كما يذهب النقّاشون والصوّاغون والكتّاب والنسّاخ وامثالهم من الصنّاع لحاجات الترف ولا تزال الصناعات فى تناقص ما دام المصر فى تناقص الى ان يضمحل والله الخلّاق العليم

فصل فى ان العرب ابعد الناس عن الصنائع

والسبب فى ذلك انّهم اعرق (2) فى البدو وابعد عن العمران الحضرىّ وما يدعو اليه من الصنائع وغيرها والعجم من اهل المشرق وامم النصرانية عدوة البحر الرومى اقوم الناس عليها لانّهم اعرق فى العمران الحضرىّ وابعد عن البدو وعمرانه حتى ان الابل التى اعانت العرب على التوحّش فى القفر والاعراق فى البدو مفقودة لديهم بالجملة ومفقودة مراعيها والرمال المهيّئة لنتاجها ولهذ انجد اوطان العرب وما ملكوه فى الاسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب اليه من قطر اخر وانظر بلاد العجم من الصين والهند وارض الترك وامم النصرانية كيف استكثرت فيها الصنائع واستجلبها الامم من عندهم وعجم المغرب من البربر بمثابة العرب فى ذلك لرسوخهم فى البداوة منذ احقاب من

(1) Man. D. فيفتقر.

(2) Man. D. اغرق.

السنين ويشهد لك بذلك قلّة الامصار بقطرهم كما قدّمناه فالصنائع بالمغرب لذلك قليلة وغير مستحكمة الا ما كان من صناعة الصوف فى نسجه والجلد فى خرزه ودبغه فانهم لما استحضروا بلغوا فيها المبالغ لعموم البلوى بها وكون هذين اغلب السلع فى قطرهم لما هم عليه من حال البداوة وامّا المشرق فقد رسخت الصنائع فيه منذ ملك الامم الاقدمين من الفرس والنبط والقبط وبنى اسرائيل ويونان والروم احقابا متطاولة فرسخت فيهم احوال الحضارة ومن جملتها الصنائع كما قدّمناه فلم يمح رسمها واما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وان ملكها العرب الّا انّهم تداولوا ملكه آلافا من السنين فى امم كثيرين منهم واختطّوا ايضا امصاره ومدنه وبلغوا المبالغ من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة والاذواء فطال امد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفّرت الصنائع ورسخت فلم تبل ببلى الدولة كما قلناه فبقيت مستجدّة حتى الآن واختصّت بذلك الموطن كصناعة الوشى والعصب وما يستجاد من حوك الثياب والحرير فيها والله وارث الارض وما عليها

فصل فى ان من حصلت له ملكة فقلّ ان يجيد بعدها ملكة اخرى

ومثال ذلك الخيّاط اذا اجاد ملكة الخياطة واحكمها ورسخت فى نفسه فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة او البناء الّا ان تكون الاولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها والسبب فى ذلك ان الملكات صفات للنفس والوان فلا تزدحم دفعة ومن كان على الفطرة كان اسهل لقبول الملكات واحسن استعدادا لحصولها فاذا تلوّنت النفس بالملكة خرجت عن الفطرة وضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة فكان قبولها للملكة الاخرى اضعف وهذا بيّن يشهد له الوجود فقلّ ان تجد صاحب صناعة يحكمها فيحكم من بعدها اخرى ويكون فيها معا على رتبة واحدة من الاجادة حتى ان اهل العلم الذين ملكتهم فكريّة فهم بهذه المثابة ومن حصل منهم على ملكة علم من العلوم واجادها فى الغاية فقلّ ان يجيد ملكة علم اخر على نسبته بل يكون مقصّرا فيه ان طلبه الا فى الاقلّ النادر من الاحوال ومبنا سببه على ما ذكرناه من شأن الاستعداد وتلوينه بلون الملكة الحاصلة فى النفس والله اعلم

فصل فى الاشارة الى امّهات الصنائع

اعلم ان الصنائع فى النوع الانسانىّ كثيرة لكثرة الاعمال المتداولة فى العمران فهى بحيث تشذّ عن الحصر ولا ياخذها العدد الّا ان منها ما هو ضرورىّ فى العمران او شريف بالموضوع فنخصّها بالذكر ونترك ما سواهما فامّا الضرورىّ فكالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة وامّا الشريف بالموضوع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطبّ فامّا التوليد فانّها ضروريّة فى العمران وعامّة البلوى اذ بها تحصل حياة المولود وتتمّ غالبا وموضوعها مع ذلك المولودون وامّهاتهم (واما) الطبّ فهو حفظ الصحّة للانسان ودفع المرض عنه ويتفرّع عن علم الطبيعة وموضوعه مع ذلك بدن الانسان واما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهى حافظة على الانسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان ومبلغة ضمائر النفس الى البعيد الغائب ومخلدة نتائج الافكار والعلوم فى الصحف ورابعة رتب الوجود للمعانى (واما) الغناء فهو نسب الاصوات ومظهر جمالها للاسماع وكل هذه الصنائع الثلاثة داع الى مخالطة الملوك الاعاظم فى خلواتهم ومجالس انسهم فلها بذلك شرف ليس لغيرها وما سوى ذلك من الصنائع فتابعة وممتهنة فى

الغالب وقد يختلف ذلك باختلاف الاغراض والدواعى والله الخلّاق العليم

فصل فى صناعة الفلاحة

هذه الصناعة ثمرتها اتّخاذ الاقوات والحبوب بالقيام على اثارة الارض لها وازدراعها وعلاج نباتها وتعاهده بالسقى والتنمية الى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج حبّه من غلافه واحكام الاعمال لذلك وتحصيل اسبابه ودواعيه وهى اقدم الصنائع لما انّها محصلة للقوت المكمل لحياة الانسان غالبا اذ يمكن وجوده من دون جميع الاشياء الا من دون القوت ولهذا (1) اختصّت هذه الصناعة بالبدو اذ قدّمنا انه اقدم من الحضر وسابق عليه فكانت هذه الصناعة بذلك بدويّة لا يقوم عليها الحضر ولا يعرفونها لان احوالهم كلها ثانية عن البداوة فصنائعهم ثانية عن صنائعها وتابعة لها والله الخلّاق العليم

فصل فى صناعة البناء

هذه اول صنائع العمران الحضرىّ واقدمها وهى معرفة العمل فى اتّخاذ البيوت والمنازل للسكن (2) والماوى وذلك

(1) Man. C. et D. ما.

(2) Man. D. A. B. لكن. D. لاكن.

ان الانسان بما جبل عليه من الفكر فى عواقب احواله لا بدّ له ان يفكر فى موانع اذاية الحرّ والبرد عنه باتّخاذ البيوت ذوات الحيطان والسقف الحائلة دون من جهاته والبشر مختلفون فى هذه الجبلة الفكريّة التى هى معنى الانسانيّة فالمقيّدون فيها ولو على التفاوت يتّخذون ذلك باعتدال كاهل الاقليم الثانى وما بعده الى الاقليم السادس واما اهل الاول والسابع فيبعدون عن اتّخاذ ذلك لانحرافهم وقصور افكارهم عن كيفيّة العمل فى الصنائع الانسانية فياوون الى الغيران والكهوف كما يتناولون الاغذية من غير علاج ولا نضج (ثم) المعتدلون المتّخذون للبيوت للماوى قد يتكاثرون فتكثر بيوتهم فى البسيط الواحد بحيث يتناكرون ولا يتعارفون فيخشى من طروق بعضهم بعضا بياتا فيحتاجون الى حفظ مجتمعهم بادارة سياج الاسوار التى تحوطهم ويصير جميعها مدينة ومصرا واحدا يحوطهم فيه الحكّام بدفاع بعضهم عن بعض وقد يحتاجون الى الاعتصام من العدوّ ويتّخذون المعاقل والحصون لهم ولمن تحت ايديهم وهولاء مثل الملوك ومن فى معناهم من الامراء وكبراء القبائل (ثم) يختلف احوال البناء فى المدن كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم واختلاف احوالهم فى الغنا والفقر وكذا حال اهل المدينة الواحدة فمنهم من

يتّخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدّة الدور والبيوت والغرف لكثرة ولده وحشمه وعياله وتابعه ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكلس ويعالى عليها بالاصبغة والجصّ ويبالغ فى كل ذلك بالتنجيد والتنميق اظهارا للبسطة (١) فى العناية بشأن الماوى ويهئ مع ذلك الاسراب والمطامير لاختزان اقواته والاصطبلات لربط مقرباته ان كان من اهل الجنود وكثرة التابع والغاشئة كالامراء ومن فى معناهم ومنهم من يبنى الدويرة والبويت لنفسه وسكنه وولده لا يبتغى ما وراء ذلك لقصور حاله عنه واقتصاره على الكنّ الطبيعيّ للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة (وقد) يحتاج الى هذه الصناعة ايضا عند تأسيس الملوك واهل الدول المدن العظيمة والهياكل المرتفعة ويبالغون فى اتقان الاوضاع وعلو الاجرام مع الاحكام لتبلغ الصناعة مبالغها وهذه الصناعة هى التى تحصل الدواعى لذلك كله واكثر ما تكون هذه الصناعة فى الاقاليم المعتدلة من الرابع وما حوله اذ الاقاليم المنحرفة لا بناء فيها وانّما يتّخذون البيوت حظائر من القصب والطين او يأوون الى الكهوف والغيران واهل هذه الصناعة القائمون عليها متفاوتون فمنهم البصير الماهر ومنهم القاصر (ثم) هى تتنوّع انواعا كثيرة

(١) Man. D. النشطة.

فمنها البناء بالحجارة المنجدة (1) او بالاجرّ يقام بها الجدران ملصقا بعضها الى بعض بالطين والكلس الذى يعقد معها فتلتحم كانّها جسم واحد ومنها البناء بالتراب خاصّة تقام منه الحيطان بان يتّخذ له لوحان من الخشب مقدّران طولا وعرضا باختلاف العادات فى التقدير واوسطه اربعة اذرع فى ذراعين فينصبان على اساس وقد بوعد ما بينهما على ما يراه صاحب البناء فى عرض الاساس ويوصل بينهما باذرعات من الخشب يربط عليها بالحبال والجدل وتسدّ الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء (2) بينهما بلوحين اخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب مختلطا بالكلس ويبلط بالمراكز المعدّة لذلك حتى ينعم ركزه وتختلط اجزاؤه بالكلس ثم يزاد التراب ثانيا وثالثا الى ان يمتلئ ذلك الخلاء (3) بين اللوحين فقد تداخلت اجزاء الكلس والتراب وصارت جسما واحدا ثم يعاد نصب اللوحين على الصورة الاولى ويركز كذلك الى ان يتمّ وتنتظم الالواح كلها سطرا فوق سطر الى ان ينتظم الحائط كله ملتحما كانه قطعة واحدة ويسمى الطابية وصانعه الطوّاب (ومن) صنائع البناء ايضا ان تجلل الحيطان بالكلس بعد ان يحلّ بالماء ويخمر اسبوعا او اسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه عن افراط الناريّة

(1) Man. C. المتخذة. (2) Man. A. et B. الفضاء. (3) *Ibid.* الفضاء.

المفسدة للالحام فاذا تمّ له ما يرضاه من ذلك عالاه من
فوق الحائط ودلكه الى ان يلتحم (ومن) صنائع البناء عمل
السقف بان تمدّ الخشب المحكمة النجارة او الساذجة على
حائطى البيت ومن فوقها الالواح كذلك موصولة بالدساتر
ويصبّ عليها التراب والكلس ويبلط بالمراكز حتى
تتداخل اجزاؤها وتلتحم ويعالا عليه الكلس كما عولى
على الحائط ومن صناعة البناء ما يرجع الى التنميق والتزيين
كما تصنع من فوق الحيطان الاشكال المجسّمة من الجصّ
يعقد بالماء ثم يرفع مجسدا وفيه بقية البلل فيشكل على
التناسب تخريما بمثاقب الحديد الى ان يبقى له رونق
ورواء وربّما عولى على الحيطان ايضا بقطع الرخام او الاجرّ
او الخزف او الصدف او السبج يفصل اجزاء متجانسة
او مختلفة وتوضع فى الكلس على نسب واوضاع
مقدّرة عندهم يبدو به الحائط للعيان كانه قطع الرياض
المنمنمة الى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج لسيح
الماء بعد ان تعدّ فى البيوت قصاع الرخام القورا المحكمة
الخرط بالفوهات فى وسطها لنبع الماء الجارى الى
الصهريج يجلب اليها من خارج فى القنوات المفضية به
الى البيوت وامثال ذلك من انواع البناء ويختلف الصناع
فى جميع ذلك باختلاف الحذق والبصر ويعظم عمران

المدينة ويتّسع فيكثرون (وربّما) يرجع الحكام الى نظر هولاء فيما هم ابصر به من احوال البناء وذلك ان الناس فى المدن الكثيرة (1) الازدحام والعمران يتشاحّون حتى فى الفضاء والهواء للاعلى والاسفل فى الانتفاع بظاهر البناء ممّا يتوقّع معه حصول الضرر فى الحيطان فيمنع جاره من ذلك الا ما كان له فيه حقّ ويختلفون ايضا فى استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية والفضلات المسربة فى القنوات وربّما يدّعى بعضهم على بعض فى حائط او علوه او قناته لتضائق الجوار او يدّعى بعض على جاره اعتلال حائطه وخشية سقوطه ويحتاج الى الحكم عليه بهدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه او يحتاج الى قسمة دار او عرصة بين شريكين بحيث لا يقع معهما فساد فى الدار ولا اهمال لمنفعتها وامثال ذلك ويخفى جميع ذلك الا على اهل البصر بالبناء العارفين باحواله المستدلّين عليها بالمعاقد والقمط ومراكز الخشب وميل الحيطان واعتدالها وقسم المساكن على نسبة اوضاعها ومنافعها وتسريب المياه فى القنوات مجلوبة ومدفوعة بحيث لا تضرّ بها مرّت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك فلهم بهذا كلّه البصر والخبرة التى ليست لغيرهم وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور فى

(1) Man. C. et D. الكثرة.

الاجيال باعتبار الدول وقوتها فانّا قدّمنا ان الصنائع وكمالها انّما هو بكمال الحضارة وكثرتها بكثرة الطالب لها فلذلك عند ما تكون الدولة بدويّة فى اول امرها تفتقر فى امر البناء الى غير قطرها كما وقع للوليد بن عبد الملك حين اجمع بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام فبعث الى ملك الروم بالقسطنطينية فى الفعلة المهرة فى البناء فبعث اليه منهم بمن كمل له غرضه من تلك المساجد (وقد) يصرف صاحب هذه الصناعة اشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن واجراء المياه باخذ الارتفاع وامثال ذلك فيحتاج الى البصر بشئ من مسائله وكذلك فى جرّ الاثقال بالهندام فان الاجرام العظيمة اذا شيّدت بالحجارة الكبيرة تعجز قدر الفعلة عن رفعها الى مكانها من الحائط فيتحيّل لذلك بمضاعفة قوة الحبل بادخاله فى المعالق من اثقاب مقدّرة على نسب هندسيّة يصير الثقيل عند معاناة الرفع خفيفا وتسمى آلة لذلك بالميخال فيتمّ المراد من ذلك بغير كلفة وهذا انّما يتمّ باصول هندسيّة معروفة متداولة بين البشر وبمثلها كان بناء الهياكل الماثلة لهذا العهد التى يحسب الناس انّها من بناء الجاهليّة وان ابدانهم كانت على نسبتها فى عظم الجثمان وليس كذلك وانّما يتمّ لهم ذلك بالحيل الهندسيّة كما ذكرناه

فتفهم ذلك والله يخلق ما يشاء

فصل فى صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضرورات العمران ومادّتها الخشب وذلك ان الله سبحانه وتعالى جعل للادمى فى كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته او حاجاته وكان منها الشجر فان له فيه من المنافع ما لا ينحصر ممّا هو معروف لكل احد ومن منافعها اتّخاذها خشبا اذا يبست واول منافع الخشب ان يكون وقودا للنيران فى معاشهم وعصيّا فى الاتّكاء والذود وغيرهما من ضروراتهم ودعائم لما يخشى ميله من اثقالهم ثم بعد ذلك منافع اخرى لاهل البدو والحضر فاما اهل البدو فيتّخذون العمد والاوتاد لخيامهم والحدوج لظعائنهم والرماح والقسىّ والسهام لسلاحهم واما اهل الحضر فالسقف لبيوتهم والاغلاق لابوابهم والكراسى لجلوسهم وكل واحدة من هذه فالخشب مادّة لها ولا يصير الى الصورة الخاصّة بها الا بالصناعة والصناعة المتكفّلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هى النجارة على اختلاف رتبها فيحتاج صاحبها الى تفصيل الخشب اولا امّا بخشب اصغر منه او بالواح ثم تركيب تلك الفصائل بحسب الصورة المطلوبة فهو فى كل ذلك يحاول بصنعته

اعداد تلك الفصائل بالانتظام الى ان تصير اعضاء لذلك الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو النجّار وهو ضرورىّ فى العمران ثم اذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتأنّق الناس فيما يتّخذونه من كل صنف من سقف او باب او كرسى او ماعون حدث التأنّق فى صناعة ذلك واستجادته بغرائب من الصنعة كماليّة ليست من الضرورىّ فى شئ مثل التخطيط فى الابواب والكراسى ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخرط يحكم بريها وتشكيلها ثم تؤلف على نسب مقدّرة وتلحم بالدساتر فتبدو لمرأى العين ملتحمة وقد اخذ منها اختلاف الاشكال على تناسب يصنع هذا فى كل شكل يتّخذ من الخشب فيجئ انق ما يكون وكذلك فى جميع ما يحتاج اليه من الآلات المتّخذة من الخشب من اىّ نوع كانت وكذلك قد تحتاج الى هذه الصناعة فى انشأ السفن البحريّة ذات الالواح والدسر وهى اجرام هندسيّة صنعت على قالب الحوت واعتبار سبحه فى الماء بقوادمه وكلكله ليكون ذلك الشكل اعون لها على مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحيوانيّة التى للسمك تحريك الرياح وربّما اعينت بحركة المجاذيف كما فى الاساطيل وهذه الصناعة من اصلها محتاجة الى جزء كبير من الهندسة فى جميع

اصنافها لان اخراج الصور من القوة الى الفعل على وجه الاحكام محتاج الى معرفة التناسب فى المقادير امّا عموما او خصوصا وتناسب المقادير لا بدّ من الرجوع فيه الى المهندس ولهذا كانت ائمّة الهندسة اليونانيين كلهم ائمّة فى هذه الصناعة فكان اوقليدس صاحب كتاب الاصول فى الهندسة نجّارا وبها كان يعرف وكذلك ابلونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم وفيما يقال ان معلّم هذه الصناعة فى الخليقة هو نوح صلعم وبها انشأ سفينة النجاة التى بها كانت معجزته عند الطوفان وهذا الخبر وان كان ممكنا اعنى كونه نجّارا الّا ان كونه اول من عملها لا دليل يقوم عليه لبعد الآماد وانّما معناه الاشارة الى قدم النجارة لانه لم تصحّ حكاية عنها قبل خبر نوح صلعم فجعل كانه اول من تعلّمها فتفهم اسرار الصنائع فى الخليقة والله الخلّاق العليم

فصل فى صناعة الحياكة والخياطة

اعلم ان المعتدلين من البشر فى معنى الانسانيّة لا بدّ لهم من الفكر فى الدفء كالفكر فى الكنّ ويحصل الدفء باشتمال المنسوج للوقاية من الحرّ والبرد ولا بدّ لذلك من الحام الغزل حتى يصير ثوبا واحدا وهو النسج والحياكة

فان كانوا بادية اقتصروا عليه وان مالوا الى الحضارة فصّلوا تلك المنسوجة قطعا يقدرون منها ثوبا على البدن بشكله وتعدّد اعضائه واختلاف نواحيها ثم يلائمون بين تلك القطع بالوصائل حتى تصير ثوبا واحداً على البدن ويلبسونها والصناعة المحصلة لهذه الملائمة هى الخياطة وهاتان الصنعتان ضروريّتان فى العمران لما يحتاج اليه البشر من الدفئ فالاولى لنسج الغزل من الصوف والقطن سدوا فى الطول والحاما فى العرض واحكاما لذلك النسج بالالتحام الشديد فتتمّ منها قطع مقدّرة فمنها الاكسية من الصوف للاشتمال ومنها الثياب من القطن والكتان للّباس (والصناعة الثانية) لتقدير المنسوجات على اختلاف الاشكال والعوائد تفصل اولا بالمقراض قطعا مناسبة للاعضاء البدنيّة ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلا او حبكا او تنبيتا او تفتيحا على حسب نوع الصناعة وهذه الثانية مختصّة بالعمران الحضرىّ لما ان اهل البدو يستغنون عنها وانّما يشتملون الاثواب اشتمالا وانّما تفصيل الثياب وتقديرها والحامها بالخياطة للّباس من مذاهب الحضارة وفنونها وتفهم هذا فى سرّ تحريم المخيط فى الحجّ لما ان مشروعيّة الحجّ مشتملة على نبذ العلائق الدنيويّة كلّها والرجوع الى الله تعالى كما خلقنا اول مرّة حتى لا يعلق العبد قلبه بشئ من عوائد

ترفه لا طيبا ولا نساء ولا مخيطا ولا خفّا ولا يعرض لصيد ولا لشئ من عوائده التي تلوّنت بها نفسه وخلقه مع انه يفقدها بالموت ضرورة وانّما يجئ كانه وارد على المحشر ضارعا بقلبه مخلصا لربّه فكان جزاؤه ان تمّ له اخلاصه فى ذلك ان يخرج من ذنوبه كيوم ولدته امّه سبحانك ما ارفقك بعبادك وارحمك بهم فى طلب هدايتهم اليك وهاتان الصناعتان قديمتان فى الخليقة لما ان الدفء ضرورىّ للبشر فى العمران المعتدل واما المنحرف الى الحرّ فلا يحتاج اهله الى دفء ولهذا يبلغنا عن اهل الاقليم الاول من السودان انهم عراة فى الغالب ولقدم هذه الصنائع تنسبها العامّة الى ادريس عليه السلام وهو اقدم الانبياء عليهم السلام وربّما ينسبونها الى هرمس وقد يقال ان هرمس هو ادريس والله الخلّاق العليم

فصل فى صناعة التوليد

وهى صناعة يعرف بها العمل فى استخراج المولود من بطن امّه من الرفق فى اخراجه من رحمها وتهيئة اسباب ذلك ثم ما يصلحه بعد الخروج على ما يذكر وهى مختصّة بالنساء فى غالب الامر لمّا انّهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض وتسمى القائمة على ذلك منهن القابلة

استعير فيه معنى الاعطاء والقبول كان النفساء تعطيها الجنين وكانّها تقبله وذلك ان الجنين اذا استكمل خلقه فى الرحم واطواره وبلغ الى غايته والمدّة التى قدّر الله لمكثه وهى تسعة اشهر فى الغالب فيطلب الخروجَ بما جعل الله فيه من النزوع لذلك ويضيق عليه المنفذ فيعسر وربّما مزق بعض جوانب الفرج بالضغط وربّما انقطع (1) ما كان فى الاغشية من الالتصاق والالتحام بالرحم وهذه كلها آلام يشتدّ لها الوجع وهو معنى الطلق فتكون القابلة معينة فى ذلك بعض الشئ بغمز الظهر والوركين وما يحاذى الرحم من الاسافل تساوق بذلك فعل الدافعة فى اخراج الجنين وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها وعلى ما تهتدى الى معرفة عسره (ثم) اذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة التى كان يتغذّى منها متّصلة من سرّته بمعاه وتلك الوصلة عضو فضلىّ لتغذية المولود خاصّة فتقطعها القابلة من حيث لايتعدّى مكان الفضلة ولا يضرّ بمعاه ولا برحم امّه ثم تدمل مكان الجراحة منه بالكىّ او بما تراه من وجوه الاندمال (ثم) ان الجنين عند خروجه من ذلك المنفذ الضيّق وهو رطب العظام سهل الانعطاف والانثناء فربّما تتغيّر اشكال اعضائه واوضاعها (2) لقرب التكوين

(1) Man. C. et D. انقلع.

(2) Man. A. et B. اوضاعه واعضائه.

ورطوبة الموادّ فتتناوله القابلة بالغمز والاصلاح حتى يرجع كل عضو الى شكله الطبيعىّ ووضعه المقدّر له ويرتدّ خلقه سويّا (ثم) بعد ذلك تراجع النفساء وتحاذيها بالغمز والملاينة لخروج اغشية الجنين لانّها ربّما تتأخر عن خروجه قليلا ويخشى عند ذلك ان تراجع الماسكة حالها الطبيعيّة قبل استكمال خروج الاغشية وهى فضلات فتتعفن ويسرى عفنها الى الرحم فيقع الهلاك فتحاذر القابلة هذا وتحاول فى اعانة الدفع الى ان تخرج تلك الاغشية ان كانت قد تاخّرت ثم ترجع الى المولود فتمرخ اعضاه بالادهان والذرور القابضة لتشدّها وتجفّف رطوبات الرحم وتحنكه لرفع لهاته وتسعطه لاستفراغ بطون دماغه وتغرغره باللعوق لدفع السدد من معاه وتجويفها عن الالتصاق ثم تداوى النفساء بعد ذلك من الوهن الذى اصابها بالطلق وما لحق رحمها من الم الانفصال اذ المولود وان لم يكن عضوا طبيعيّا فحالة التكوين فى الرحم صيّرته بالالتحام كالعضو المتّصل فلذلك كان فى انفصاله الم يقرب من الم القطع وتداوى مع ذلك ما يلحق الفرج من جراحة التمزيق عند الضغط فى الخروج وهذه كلها ادواء نجد هولاء القوابل ابصر بدوائها وكذلك ما يعرض للمولود مدّة الرضاع من ادواء فى بدنه الى حين الفصال نجدهن ابصر بها من الطبيب الماهر وما ذاك

الّا لان بدن الانسان فى تلك الحالة انّما هو بدن انسانىّ بالقوة فقط فاذا جاوز الفصال صار بدنا انسانيّا بالفعل فكانت حاجته حينئذ الى الطبيب اشدّ فهذه الصناعة كما تراه ضروريّة فى العمران للنوع الانسانىّ لا يتمّ كون اشخاصه فى الغالب دونها وقد يعرض لبعض اشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة امّا بخلق الله ذلك لهم معجزة وخرقا للعادة كما فى حقّ الانبياء صلعم او بالهام وهداية يلهم لها المولود ويفطر عليها فيتمّ وجودهم من دون هذه الصناعة (فاما) شأن المعجزة من ذلك فقد وقع كثيرا ومنه ما روى ان النبى صلعم ولد مختونا مسرورا واضعا يديه على الارض شاخصا ببصره الى السماء وكذلك شأن عيسى فى المهد وغير ذلك (وامّا) شأن الالهام فلا ينكر واذا كانت الحيوانات العجم تختصّ بغرائب من الالهامات كالنحل وغيرها فما ظنّك بالانسان المفضّل عليها وخصوصا من اختصّ بكرامة الله (ثم) الالهام العامّ للمولودين فى الاقبال على الثدى من اوضح شاهد على وجود الالهام لهم فشأن العناية الالهيّة اعظم من ان يحاط به ومن هنا يفهم بطلان راى الفارابىّ وحكماء الاندلس فيما احتجّوا به لعدم انقراض الانواع واستحالة انقطاع المكوّنات وخصوصا فى النوع الانسانىّ وقالوا لو انقطعت اشخاصه لاستحال وجودها بعد

ذلك لتوقّفه على وجود هذه الصناعة التى لا يتمّ كون الانسان الّا بها اذ لو قدّرنا مولودا دون هذه الصناعة وكفالتها الى حين الانفصال لم يتمّ بقاوه اصلا ووجود الصنائع دون الفكر ممتنع لانّها ثمرته وتابعة له وتكلّف ابن سينا فى الرّد على هذا الراى لمخالفته اياه وذهابه الى امكان انقطاع الانواع وخراب عالم التكوين ثم عوده ثانية لاقتضاات فلكيّة واوضوع غريبة تندر فى الاحقاب بزعمه فتقتضى تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة فيتمّ كونه انسانا ثم يقيض له حيوان يخلق فيه الالهام لتربيته والحنو عليه الى ان يتمّ وجوده وفصاله واطنب فى بيان ذلك فى الرسالة التى سماها برسالة حى بن يقظان وهذا الاستدلال غير صحيح وان كنّا نوافقه على انقطاع الانواع لكن من غير ما استدلّ به فان دليله مبنىّ على استناد الافعال الى العلّة الموجبة ودليل القول بالفاعل المختار يردّ عليه ولا واسطة على القول بالفاعل المختار بين الافعال والقدرة القديمة ولا حاجة الى هذا التكلّف ثم لو سلّمناه جدلا فغاية ما يبنى عليه اطراد وجود هذا الشخص بخلق الالهام لتربيته فى الحيوان الاعجم وما الضرورة الداعية لذلك واذا كان الالهام يخلق فى الحيوانات العجم فما المانع من خلقه للمولود نفسه كما قرّرناه اولا وخلق الالهام فى شخص

لمصالح نفسه اقرب من خلقه فيه لمصالح غيره فكلا المذهبين شاهدان على انفسهما بالبطلان فى مناحيهما لما قرّرته لك والله الخلّاق العليم

فصل فى صناعة الطبّ وانّها محتاج اليها فى الحواضر والامصار دون البادية

هذه الصناعة ضروريّة فى المدن والامصار لما عرف من فائدتها فان ثمرتها حفظ الصحّة للاصحّاء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من ادوائهم واعلم ان اصل الامراض كلها انّما هو من الاغذية كما قال صلعم فى الحديث الجامع للطبّ كما ينقل بين اهل الصناعة وان طعن فيه العلماء وهو قوله المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء واصل كل داء البردة فاما قوله المعدة بيت الداء فظاهر واما قوله الحمية رأس الدواء فالحمية الجوع وهو الاحتماء عن الطعام والمعنى ان الجوع هو الدواء العظيم الذى هو اصل الادوية واما قوله اصل كل داء البردة فمعنى البردة ادخال الطعام على الطعام فى المعدة قبل ان يتمّ هضم الاول (وشرح) هذا ان الله سبحانه وتعالى خلق الانسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله بالاكل وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية الى ان يصير دما ملائما لاجزاء البدن من

اللحم والعظم ثم تاخذه النامية فينقلب لحما وعظما ومعنى الهضم طبخ الغذاء بالحرارة الغريزيّة طورا بعد طور حتى يصير جزءا بالفعل من البدن وتفسيره ان الغذاء اذا حصل فى الفم ولاكته الاشداق أثرت فيه حرارة الفم طبخا يسيرا وقلبت مزاجه بعض الشئ كما تراه فى اللقمة اذا تناولتها طعاما ثم اجدتها مضغا فترى مزاجها غير مزاج الطعام ثم يحصل فى المعدة فتطبخه حرارة المعدة الى ان يصير كيموسا وهو صفوة (1) ذلك المطبوخ وترسله الى الكبد وترسل ما يرسب منه فى المعا ثفلا ينفذ الى المخرجين ثم تطبخ حرارة الكبد ذلك الكيموس الى ان يصير دما عبيطا وتطفو عليه رغوة من الطبخ هى الصفراء وترسب منه اجزاء يابسة هى السوداء ويقصر الحارّ الغريزىّ بعض الشئ عن طبخ الغليظ منه فهو البلغم ثم ترسلها الكبد كلها فى العروق والجداول وياخذها طبخ الحار الغريزىّ هنالك فتكون عن الدم الخالص بخار حارّ رطب يمدّ الروح الحيوانىّ وتاخذ النامية ماخذها فى الدم فيكون لحما ثم غليظة عظاما ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجته من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع هذه صورة الغذاء وخروجه من القوة الى الفعل لحما

(1) Man. C. et D. صفو.

ثم ان اصل الامراض ومعظمها هى الحمّيات وسببها ان الحارّ الغريزىّ قد يضعف عن تمام النضج فى طبخه فى كل طور من هذه فيبقى ذلك الغذاء دون نضج وسببه غالبا كثرة الغذاء فى المعدة حتى يكون اغلب على الحارّ الغريزىّ او ادخال الطعام الى المعدة قبل ان يستوفى طبخ الاول فيشتغل به الحارّ الغريزىّ ويترك الاول بحاله او يتوزّع عليهما فيقصر عن تمام الطبخ والنضج وترسله المعدة كذلك الى الكبد فلا تقوى حرارة الكبد ايضا على انضاجه وربّما بقى فى الكبد من الغذاء السابق فضلة غير ناضجة ويرسل الكبد جميع ذلك الى العروق غير ناضج كما هو فاذا اخذ البدن حاجته الملائمة ارسله مع الفضلات الاخرى من العرق والدمع واللعاب ان اقتدر على ذلك وربّما يعجز عن الكثير منه فيبقى فى العروق والكبد والمعدة ويتزائد مع الايام وكل ذى رطوبة من الممتزجات اذا لم ياخذ الطبخ والنضج تعفّن فيتعفّن ذلك الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالخلط وكل متعفّن ففيه حرارة غريبة وتلك هى المسماة فى بدن الانسان بالحمّى واعتبر ذلك فى الطعام اذا ترك حتى يتعفّن وفى الزبل اذا تعفّن كيف تنبعث فيه الحرارة وتاخذ مأخذها فهذا معنى الحمّيات فى الابدان وهى راس الامراض واصلها كما وقع فى الحديث ولهذه

الحمّيات علاجات بقطع الغذاء عن المريض اسابيع معلومة ثم تناوله الاغذية الملائمة حتى يتمّ برؤه وكذلك فى حال الصحّة له علاج فى التحفّظ من هذا المرض وغيره وقد يكون ذلك التعفّن فى عضو مخصوص فيتولد عنه مرض فى ذلك العضو او تحدث جراحات فى البدن امّا فى الاعضاء الرئيسة او فى غيرها وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له هذه كلّها جماع الامراض واصلها فى الغالب من الاغذية (وهذا) كله مدفوع الى الطبيب ووقوع هذه الامراض فى اهل الحضر والامصار اكثر لخصب عيشهم وكثرة ماكلهم وقلّة اقتصارهم على نوع واحد من الاغذية وعدم توفيتهم لتناولها وكثرة ما يخلطون بالاغذية من التوابل والبقول والفواكه رطبا ويابسا فى سبيل العلاج بالطبخ ولا يقتصرون فى ذلك على نوع ولا انواع فربّما عددنا فى اللون الواحد من الوان الطبخ اربعين نوعا من النبات والحيوان فيصير للغذاء مزاج غريب وربّما يكون بعيدا عن ملائمة البدن واجزائه (ثم) ان الاهوية فى الامصار تفسد بمخالطة الابخرة العفنة من كثرة الفضلات والاهوية منشطة للارواح ومقوّية بنشاطها لاثر الحارّ الغريزىّ فى الهضوم ثم الرياضة مفقودة لاهل لامصار اذ هم فى الغالب وادعون ساكنون لا تاخذ منهم الرياضة شئا ولا توثّر اثرا

فكان وقوع الامراض كثيرا فى المدن والامصار وعلى قدر وقوعه
كانت حاجتهم الى هذه الصناعة (فامّا) اهل البدو فاكلهم
قليل فى الغالب والجوع اغلب عليهم لقلّة الحبوب حتى
صار ذلك لهم عادة وربّما يظنّ انّها جبلّة لاستمرارها ثم
الادم قليلة لديهم او مفقودة بالجملة وعلاج الطبخ بالتوابل
والفواكه انّما يدعو اليه ترف الحضارة الذى هم عنه بمعزل
فيتناولون اغذيتهم بسيطة بعيدة عمّا يخالطها ويغرب
مزاجها من ملائمة البدن وامّا اهويتهم فقليلة العفن لقلّة
الرطوبات والعفونات ان كانوا اهلين او لاختلاف الاهوية
ان كانوا طواعن ثم ان الرياضة موجودة فيهم من كثرة
الحركة فى ركض الخيل او الصيد او طلب الحاجات
او مهنة انفسهم فى حاجاتهم فيحسن بذلك الهضم كله
ويجود ويفقد ادخال الطعام على الطعام فتكون امزجتهم اصلح
وابعد عن الامراض فتقلّ حاجتهم الى الطبّ ولهذا
لا يوجد الطبيب فى البادية بوجه وما ذاك الّا للاستغناء
عنه اذ لو احتيج اليه لوجد لانه يكون له بذلك فى البدو
معاش يدعوه الى سكناه سنّة الله فى عباده ولن تجد لسنّة
الله تبديلا

فصل فى ان الخطّ والكتابة من عداد الصنائع الانسانيّة

وهو رسوم واشكال حرفيّة تدلّ على الكلمات المسموعة الدالّة على ما فى النفس فهو ثانى رتبة عن الدلالة اللغويّة وهو صناعة شريفة اذ الكتابة من خواصّ الانسان التى يتميّز بها عن الحيوان وايضا فهى تطلع على ما فى الضمائر وتتأدّى بها الاغراض الى البلد البعيد فتنقضى الحاجات وقد دفعت مؤنة المباشرة لها ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الاوّلين وما كتبوه فى علومهم واخبارهم فهى شريفة بجميع هذه الوجوه والمنافع وخروجها فى الانسان من القوة الى الفعل انّما يكون بالتعليم وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغى (1) فى الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخطّ فى المدينة اذ هو من جملة الصنائع وقد قدّمنا ان هذا شأنها وانّها تابعة للعمران ولهذا نجد اكثر البدو امّيين لا يقرؤن ولا يكتبون ومن قرأ منهم او كتب فيكون خطّه قاصرا وقرأته غير نافذة ونجد تعليم الخطّ فى الامصار الخارج عمرانها عن الحدّ ابلغ واسهل واحسن طريقا لاستحكام الصبغة (2) فيها كما يحكى لنا عن مصر لهذا العهد وان بها معلّمين منتصبين لتعليم الخطّ يلقون على المتعلّم قوانين واحكاما فى وضع كل حرف ويزيدون الى ذلك

(1) Man. D. التناهى.

(2) Man. D. الصنعة.

المباشرة بتعليم وضعه فتعتضد لديه رتبة العلم والحسن فى التعليم وتأتى ملكته على اتمّ الوجوه وانّما اتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الاعمال وليس الشان فى تعليم الخطّ بالاندلس والمغرب كذلك فى تعلّم كل حرف بانفراده على قوانين يلقيها المعلّم للمتعلّم وانّما يتعلّم بمحاكاة الخطّ من كتابة الكلمات جملة ويكون ذلك من المتعلّم ومطالعة المعلّم له الى ان يحصل له الاجادة ويتمكّن فى بنانه الملكة فيسمى مجيدا (وقد) كان الخطّ العربى بالغا مبالغه من الاحكام والاتقان والجودة فى دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو المسمّى بالخطّ الحميرىّ وانتقل منهم الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة فى العصبيّة والمجدّدين لملك العرب بارض العراق ولم يكن الخطّ عندهم من الاجادة كما كان عند التبابعة لقصورما بين الدولتين فكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك ومن الحيرة لقنه اهل الطايف وقريش فيما ذكر (يقال) ان الذى تعلّم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن امية وقيل حرب بن امية واخذها من اسلم بن سدرة وهو قول ممكن واقرب ممّن ذهب الى انهم تعلّموها من اياد اهل العراق لقول شاعرهم

قوم لهم ساحة العراق اذا ساروا جميعا والخطّ والقلم

وهو قول بعيد لان ايادا ولو نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة والخطّ من الصنائع الحضريّة وانّما معنى قول الشاعر انهم اقرب الى الخطّ والعلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة الامصار وضواحيها، فالقول بان اهل الحجاز انّما لقنوها من الحيرة ولقنها اهل الحيرة من التبابعة والحمير هو الاليق من الاقوال (ورايت) فى كتاب التكملة (1) لابن الابار عند التعريف بابن فروخ القيروانىّ الفارسىّ الاندلسىّ من اصحاب مالك رضى الله عنه واسمه عبد الله بن فروخ بن عبد الرحمن بن زياد بن انعم عن ابيه قال قلت لعبد الله بن عباس يا معشر قريش خبّرونى عن هذا الكتاب العربىّ هل كنتم تكتبونه قبل ان يبعث الله محمدا صلعم تجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما افترق مثل الالف واللام والميم والنون قال نعم قلت وممّن اخذتموه قال من حرب بن امية قلت وممّن اخذه حرب قال من عبد الله بن جدعان قلت وممّن اخذه عبد الله بن جدعان قال من اهل الانبار قلت وممّن اخذه اهل الانبار قال من طارٍ طرا عليهم من اهل اليمن قلت وممّن اخذه ذلك الطارى قال من الخلجان بن القسم كاتب الوحى لهود النبى صلعم وهو الذى يقول

(1) Man. A. المتكلمة.

افى كل عام سنة تحدثونها ورای على غير الطريق يعبر
وللموت خير من حياة تسبنا بها جرمهم فيمن يسب وحير

انتهى ما نقله ابن الابار فى كتاب التكهلة (١) وزاد فى آخره حدّثنى لذلك ابو بكر بن ابى حميرة (٢) فى كتابه عن ابى بحر بن العاصى عن ابى الوليد الوقشى عن ابى عمر الطلمنكى بن ابى عبد الله بن مفرج ومن خطّه نقلته عن ابى سعيد بن يونس عن محمد بن موسى بن النعمان عن يحيى بن محمد بن حشيش بن عمر بن ايوب الهغافرىّ التونسىّ عن بهلول بن عبيدة الحمى عن عبد الله بن فروخ انتهى (وكان) لحمير كتابة تسمّى المسند حروفها منفصلة وكانوا يمنعون من تعليمها الّا باذنهم ومن حمير تعلّمت مضر الكتابة العربيّة الّا انّهم لم يكونوا مجيدين لها شان الصنائع اذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة الى الاتقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة واستغناء البدو عنها فى الاكثر فكانت كتابة العرب بدويّة مثل او قريبة من كتابتهم لهذا العهد او نقول ان كتابتهم لهذا العهد احسن صناعة لان هولاء اقرب الى الحضارة ومخالطة الامصار والدول (واما مضر) فكانوا اعرق فى البدو وابعد عن الحضر من اهل اليمن والشام ومصر

(١) Man. A. التكلمة.

(٢) Man. A. جرة.

واهل العراق وكان الخطّ العربى لاول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة ولا الى التوسّط لمكان العرب من البداوة والتوحّش وبعدهم عن الصنائع وانظر ما وقع لاجل ذلك فى رسم المصحف حيث كتبه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة فى الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته اقيسة رسوم صناعة الخطّ عند اهلها ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبرّكا بما رسمه اصحاب رسول الله صلعم وخير الخلق من بعده المتلقّون لوحيه من كتاب الله وكلامه كما يقتفى لهذا العهد خطّ ولىّ او عالم تبرّكا ويتبع رسمه خطاء او صوابا واين نسبة ذلك من الصحابة وما كتبوه فاتبع ذلك واثبت رسما ونبّه العلماء بالرسم على مواضعه ولا تلتفتن فى ذلك الى ما يزعمه بعض المغفلين من انهم كانوا محكمين لصناعة الخطّ وان ما يتخيّل ومن مخالفة خطوطهم لاصول الرسم ليس كما يتخيّل بل لكلّها وجه ويقولون فى مثل زيادة الالف فى لا اذبحنه انه تنبيه على ان الذبح لم يقع وفى زيادة الباء فى قوله بأييد انه تنبيه على كمال القدرة الربانيّة وامثال ذلك ممّا لا اصل له الّا التحكّم المحض وما حملهم على ذلك الّا اعتقادهم ان فى ذلك تنزيها للصحابة عن توهّم النقص فى قلّة اجادة الخطّ وحسبوا ان ذلك الخطّ

كمال فنزّهوهم عن نقصه ونسبوا اليهم الكمال باجادته وطلبوا تعليل ما خالف الاجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح (واعلم) ان الخطّ ليس بكمال فى حقّهم إذ الخطّ من جملة الصنائع المدنيّة المعاشيّة كما رايته فيما مرّ والكمال فى الصنائع اضافىّ وليس بكمال مطلق اذ لا يعود نقصه على الذات فى الدين ولا فى الخلال وانّما يعود على اسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لاجل دلالته على ما فى النفوس وقد كان النبى صلعم اميّا وكان ذلك كمالا فى حقّه وبالنسبة الى مقامه وتنزّهه عن الصنائع العمليّة التى هى اسباب المعاش والعمران كلّها وليست الاميّة كمالا فى حقّنا نحن اذ هو منقطع الى ربّه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلّها حتى العلوم الاصطلاحيّة فان الكمال فى حقّه هو تنزّهه جملة بخلافنا (ثم) لما جاء الملك للعرب وفتحوا الامصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة واحتاجت الدولة الى الكتاب استعملوا الخطّ وطلبوا صناعته وتعلّموه وتداولوه فترقت (1) الاجادة فيه واستحكم وبلغ فى الكوفة والبصرة رتبة من الاتقان الّا انّها كانت دون الغاية والخطّ الكوفىّ معروف الرسم لهذا العهد ثم انتشرت العرب فى الاقطار والممالك وافتتحوا افريقية والاندلس واختطّ بنو

(1) Man. B. et D. فتفرقت.

العباس بغداد وترقّت الخطوط فيها الى الغاية لما استبحرت في العمران وكانت دار الاسلام ومركز الدولة العربيّة وخالفت اوضاع الخطّ ببغداد اوضاعه بالكوفة في الميل الى اجادة الرسوم وجمال الرونق وحسن الرواء واستحكمت هذه المخالفة في الاعصار الى ان رفع رايتها ببغداد على بن مقلة الوزير ثم تلاه في ذلك على بن هلال الكاتب الشهير بابن البواب ووقف سند تعليمها عليه في الماية الثالثة وما بعدها وبعدت رسوم الخطّ البغداديّ واوضاعه عن الكوفة حتى انتهى الى المباينة ثم ازدادت المخالفة بعد تلك العصور بتفنّن الجهابذة في احكام رسومه واوضاعه حتى انتهت الى المتاخّرين مثل ياقوت والوليّ على العجميّ ووقف سند تعليم الخطّ عليهم وانتقل ذلك الى مصر وخالفت طريقة العراق بعض الشئ ولقنها العجم هنالك فظهرت مخالفة لخطّ اهل مصر او مباينة (وكان) الخطّ الافريقيّ المعروف رسمه القديم لهذا العهد يقرب من اوضاع الخطّ المشرقيّ وتحيّز ملك الاندلس بالامويّين فتميّزوا باحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط فتميّز صنف خطّهم الاندلسيّ كما هو معروف الرسم وطما بحر العمران والحضارة في الدول الاسلاميّة في كل قطر وعظم الملك ونفقت اسواق العلوم وانتسخت الكتب واجيد كتبها وتخليدها وملئت بها القصور والخزائن

الملوكيّة بها لا كفاء له وتنافس اهل الاقطار فى ذلك
وتناغوا فيه (ثم) لما انحلّ نظام الدولة الاسلاميّة وتناقصت
تناقص ذلك اجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة
فانتقل شأنها من الخطّ والكتاب بل والعلم الى مصر
والقاهرة فلم تزل اسواقه بها نافقة لهذا العهد وللخطّ بها
معلّمون يرسمون للمتعلّم الحروف بقوانين فى وضعها واشكالها
متعارفة بينهم فلا يلبث المتعلّم او يحكم اشكال تلك الحروف
على تلك الاوضاع وقد لقنها حسّا وحذق فيها دربة وكتابا
واخذها قوانين علميّة فتجئ احسن ما يكون (واما
اهل الاندلس) فافترقوا فى الاقطار عند تلاشى ملك العرب
بها ومن خلفهم من البربر وتغلبت عليهم امم النصرانيّة
فانتشروا فى عدوة المغرب وافريقية من لدن الدولة
اللمتونيّة الى هذا العهد وشاركوا اهل العمران بما لديهم
من الصنائع وتعلّقوا باذيال الدولة فغلب خطّهم على الخطّ
الافريقىّ وعفا عليه ونسى خطّ القيروان والمهدية بنسيان
عوائدهما وصنائعهما وصارت خطوط اهل افريقية كلها على الرسم
الاندلسىّ بتونس وما اليها لتوفّر اهل الاندلس بها عند الجالية من
شرق الاندلس وبقى منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا
كتاب الاندلس ولا تمرسوا بجوارهم اذ انما كانوا يقدرون (1)

(1) Man. C. et D. يفرون.

على دار الملك بتونس فصار خطّ اهل افريقية من جنس خطوط اهل الاندلس حتى اذا تقلّص ظلّ الدولة الموحديّة بعض الشئ وتراجع امر الحضارة والترف بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخطّ وفسدت رسومه وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران وبقيت فيه آثار الخطّ الاندلسيّ تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدّمناه من ان الصنائع اذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها (1) (وحصل) في دولة بني مرين بعد ذلك بالمغرب الاقصى لون من الخطّ الاندلسيّ لقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم الى فاس قريبا واستعمالهم اياهم سائر الدولة ونسى عهد الخطّ فيما بعد عن سدّة الملك وداره كان لم يعرف فصارت الخطوط بافريقية والمغربين مائلة الى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب ان انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفّحها منها الا العناء والمشقّة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الاشكال الخطّيّة عن الجودة حتى لا تكاد تقرا الا بعد عسر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول والله يحكم لا معقب لحكمه وللاستاذ ابي الحسن على بن هلال الكاتب البغداديّ الشهير بابن البوّاب قصيدة من بحر البسيط على روى الراء

(1) Man. A. et B. رفعها.

يذكر فيها صناعة الخطّ وموادّها من احسن ما كتب فى
دلك رايت اثباتها في هذا الكتاب من هذا الباب
لينتفع بها من يريد تعلّم هذه الصناعة واولها

يا من يريد اجادة التحرير ويروم حسن الخطّ والتصوير
ان كان عزمك فى الكتابة صادقا فارغب الى مولاك فى التيسير
اعدد من الاقلام كل مثقف صلب يصوغ صناعة التحبير
واذا عمدت لبريه فتوخه عند القياس باوسط التقدير
انظر الى طرفيه فاجعل بريه من جانب التدقيق والتخصير
واجعل لجلفته قواما عادلا لا يخلو عن التطويل والتقصير
والشق وسطه ليبقى بريه من جانبيه مشاكل التقدير
حتى اذا اتقنت ذلك كلّه اتقان طبّ بالمراد خبير
فاصرف لراى القطّ عزمك كله فالقطّ فيه جملة التدبير
لا تطمعن فى ان ابوح بسرّه انّى اضنّ بسرّه المستور
لكن جملة ما اقول بانه ما بين تحريف الى تدوير
والق دواتك بالدخان مدبرا بالخلّ وبالحصرم المعصور
واضف اليه مغرة قد صولت مع اصفر الزرنيخ والكافور
حتى اذا ما خمرت فاعمد الى الورق النقىّ الناعم المخبور
فاكبسه بعد القطع بالمعصار كى ينأى عن التشعيث والتغيير
ثم اجعل التمثيل دابك صابرا ما ادرك المامول مثل صبور
ابدا به فى اللوح منتصبا له عزما تجرده عن التشمير
لا تخجلن من الردى تخطه فى اول والتمثيل والتسطير
فالامر يصعب ثم يرجع هيّنا ولربّ سهل جاء بعد عسير
حتى اذا ادركت ما املته اضحيت ربّ مسرّة وحبور
فاشكر الهك واتبع رضوانه ان الاله يجيب كل شكور
وارغب لكفّك ان تخط بنانها خيرا تخلفه بدار غرور
فجميع فعل المرء يلقاه غدا عند التقاء كتابة المنشور

(واعلم) ان الخطّ بيان عن القول والكلام كما ان القول والكلام بيان عمّا فى النفس والضمير من المعانى فلا بدّ لكل منهما ان يكون واضح الدلالة قال الله تعالى خلق الانسان علّمه البيان وهو يشتمل بيان الادلّة كلها فالخطّ المجود كماله ان تكون دلالته واضحة بابانة حروفه المتواضعة واجادة وضعها ورسمها كل واحد على حدة متميّز عن الاخر الا ما اصطلح عليه الكتاب من ايصال حرف الكلمة الواحدة بعضها ببعض سوى حروف اصطلحوا على قطعها مثل الالف المتقدّمة فى الكلمة وكذا الراء والزاى والدال والذال وغيرها بخلاف ما اذا كانت متاخّرة وهكذا الى آخرها ثم ان المتاخّرين من الكتّاب اصطلحوا على وصل كلمات بعضها ببعض وحذف حروف معروفة عندهم لا يعرفها الا اهل مصطلحهم فتستعجم على غيرهم وهولاء كتّاب دواوين السلطان وسجلات القضاة كانهم انفردوا بهذا الاصطلاح عن غيرهم لكثرة موارد الكتابة عليهم وشهرة كتابتهم واحاطة كثير من دونهم بمصطلحهم فان كتبوا ذلك لمن لا خبرة له بمصطلحهم فينبغى ان يعدلوا عن ذلك الى البيان ما استطاعوه والا كان بمثابة الخطّ الاعجمىّ لانّهما بمنزلة واحدة فى عدم التواضع عليه وليس بعذر فى هذا القدر الا كتاب الاعمال السلطانيّة فى الاموال والجيوش لانهم مطلوبون

بكتمان ذلك عن الناس فانه من الاسرار السلطانيّة الّتى يجب اخفاوها فيبالغون فى رسم اصطلاح خاص بهم ويصير بمثابة المعمّى وهو الاصطلاح على العبارة عن الحروف بكلمات من اسماء الطيب والفواكه والطيور او الازاهر ووضع اشكال اخرى غير اشكال الحروف المتعارفة يصطلح عليها المتخاطبون لتأدية ما فى ضمائرهم بالكتابة وربّما وضع الكتاب للعثور على ذلك وان لم يضعوه اولا قوانين بمقائيس استخرجوها لذلك بمداركهم يسمّونها فكّ المعمّى وللناس فى ذلك دواوين مشهورة والله العليم الحكيم

فصل فى صناعة الوراقة

كانت العناية قديما بالدواوين العلميّة والسجلات فى نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدول وتناقص العمران بعد ان كان منه فى الملّة الاسلاميّة بحر زاخر بالعراق والاندلس اذ هو كلّه من توابع العمران واتّساع نطاق الدول ونفاق اسواق ذلك لديها فكثرت التواليف العلميّة والدواوين وحرص الناس على تناقلها فى الآفاق والاعصار فانتسخت وجلّدت وجاءت صناعة الورّاقين المعانيين

للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر امور الكتب والدواوين واختصّت بالامصار العظيمة العمران وكانت السجلّات اولا لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانيّة والاقطاعات والصكوك فى الرقوق المهيّأة بالصناعة من الجلد لكثرة الرفه وقلّة التواليف صدر الملّة كما نذكره وقلّة الرسائل السلطانيّة والصكوك مع ذلك فاقتصروا على الكتاب فى الرقّ تشريفا للمكتوبات وميلا بها الى الصحّة والاتقان ثم طما بحر التواليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاق الرقّ عن ذلك فاشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتّخذه الناس من بعده صحفا لمكتوباتهم السلطانيّة والعلميّة وبلغت الاجادة فى صناعته ما شاءت (ثم) وقفت عناية اهل العلوم وهم اهل الدول على ضبط الدواوين العلميّة وتصحيحها بالرواية المسندة الى مولّفيها وواضعيها لانه الشأن الاهمّ من التصحيح والضبط فبذلك تسند الاقوال الى قائلها والفتيا الى الحاكم بها المجتهد فى طريق استنباطها وما لم يكن تصحيح المتون باسنادها الى مدونيها فلا يصحّ اسناد قول لهم ولا فتيا وهكذا كان شأن اهل العلم وحملته فى العصور والاجيال والآفاق حتّى لقد قصرت فائدة الصناعة الحديثيّة فى الرواية على هذه فقط اذ ثمرتها الكبرى من

معرفة صحيح الاحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها قد ذهبت وتمحضت زبدة ذلك فى الامّهات المتلقّاة بالقبول عند الامّة وصار القصد الى ذلك لغوا من العمل ولم يبق ثمرة الرواية والاشتغال بها الا فى تصحيح تلك الامّهات الحديثيّة وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين والتواليف العلميّة واتّصال سندها بمولّفيها ليصحّ النقل عنهم والاسناد اليهم وكانت هذه الرسوم بالمشرق والاندلس معيدة الطرق واضحة المسالك ولقد تجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد فى اقطارهم على غاية من الاتقان والصحّة ومنها لهذا العهد بايدى الناس فى العالم اصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم فى ذلك واهل الآفاق يتناقلونها الى الآن ويشدّون عليها يد الضنانة ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جملة بالمغرب واهله لانقطاع صناعة الخطّ والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة اهله وصارت الامّهات والدواوين تنتسخ بالخطوط البدويّة ينسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة بردأة الخطّ وكثرة الفساد والتصحيف فتستغلق على متصفّحها ولا يحصل منها فائدة الّا فى الاقلّ النادر (وايضا) فقد دخل الخلل من ذلك فى الفتيا فان غالب الاقوال المعزوة غير مروية عن ائمّة المذهب وانّما تتلقى من تلك الدواوين

على ما هى عليه وتبع ذلك ايضا ما يتصدّى اليه بعض ائمّتهم من التاليف لقلّة بصرهم بصناعته وعدم الصنائع الوافية بمقاصده ولم يبق من هذا الرسم الا اثارة بالاندلس خفية بالامحا وهى على الاضمحلال فقد كاد العلم ان ينقطع بالكلّيّة من المغرب والله غالب على امره ويبلغنا لهذا العهد ان صناعة الرواية قائمة بالمشرق وتصحيح الدواوين لمن يرومه بذلك سهل على مبتغيه لنفاق اسواق العلوم والصنائع كما نذكره بعد الّا ان الخطّ الذى بقى من الاجادة فى الاستنساخ هنالك انّما هو للعجم وفى خطوطهم واما النسخ بمصر ففسد كما فسد بالمغرب واشدّ والله غالب على امره

فصل فى صناعة الغناء

هذه الصناعة هى تلحين الاشعار الموزونة بتقطيع الاصوات على نسب منتظمة معروفة توقع على كل صوت منها توقيعا عند قطعه فتكون نغمة ثم تؤلف تلك النغم بعضها الى بعض على نسب متعارفة فيلذّ سماعها لاجل التناسب وما يحدث عنه من الكيفيّة فى تلك الاصوات وذلك انه تبيّن فى علم الموسيقى ان الاصوات تتناسب فيكون صوت نصف صوت وربع اخر وخمس اخر وجزء من احد عشر من اخر واختلاف هذه النسب

عند تأديتها الى السمع يخرجها عن البساطة الى التركيب وليس كل تركيب منها ملذوذا عند السمع بل تراكيب خاصّة هى التى حصرها اهل علم الموسيقى وتكلّموا عليها كما هو مذكور فى موضعه وقد يساوق ذلك التلحين فى النغمات الغنائيّة بتقطيع اصوات اخرى من الجمادات امّا بالقرع او النفخ فى آلات تتّخذ لذلك فتزيدها لذّة عند السمع فمنها لهذا العهد بالمغرب اصناف منها المزمار يسمّونه الشبابة وهى قصبة جوفاء بابخاش فى جوانبها معدودة ينفخ فيها فتصوت ويخرج الصوت من جوفها على سدادة من تلك الابخاش ويقطع الصوت بوضع الاصابع من اليدين جميعا على تلك الابخاش وضعا متعارفا حتى تحدث النسب بين الاصوات فيه وتتصل كذلك متناسبة فيلتذّ السمع بادراكها للتناسب الذى ذكرناه ومن جنس هذه الآلة آلة الزمر التى تسمّى الزلامى وهى شكل القصبة منحوتة الجانبين من الخشب جوفاء من غير تدوير لاجل ائتلافها من قطعتين منفوذة كذلك بابخاش معدودة ينفخ فيها بقصبة صغيرة توصل فينفذ النفخ بواسطتها اليها وتصوت بنغمة حادّة ويجرى فيها من تقطيع الاصوات من تلك الابخاش بالاصابع مثل ما يجرى فى الشبابة ومن احسن آلات الزمر لهذا العهد البوق وهو بوق من نحاس اجوف فى مقدار

الذراع يتّسع الى ان يكون انفراج مخرجه فى مقدار دور الكف على شكل برى القلم وينفخ فيه بقصبة صغيرة تودى الريح من الفم اليه فيخرج الصوت ثخينا دويّا وفيه ابخاش ايضا معدودة وتقطع نغمة منها كذلك بالاصابع على التناسب فيكون ملذوذا ومنها الآت الاوتار وهى جوفاء كلها اما على شكل قطعة من الكرة كالبربط والرباب او على شكل مربّع كالقانون توضع الاوتار على بسائطها مشدودة فى راسها الى دساتر جائلة ليتأتّى رخوها عند الحاجة اليها بادارتها ثم تقرع الاوتار اما بعود او بوتر مشدود بين طرفى قوس يمرّ عليها بعد ان يطلى بالشمع والكندر ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد فى امراره او بنقله من وتر الى وتر واليد اليسرى مع ذلك فى جميع الآت الاوتار توقع باصابعها على اطراف الاوتار فيما يقرع او يحك بالوتر فتحدث الاصوات متناسبة ملذوذة (وقد) يكون القرع فى الطسوت بالقضبان او فى الاعواد بعضها ببعض على توقيع متناسب يحدث عنه التذاذ بالمسموع ولنبيّن لك السبب فى اللذّة الناشئة عن الغناء وذلك ان اللذّة كما تقرّر فى موضعه هى ادراك الملائم والمحسوس انّما تدرك منه كيفيّة فاذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذوذة واذا كانت منافية له منافرة له كانت مؤلمة فالملائم من الطعوم ما ناسبت

كيفيّته حاسّة الذوق فى مزاجها وكذا الملائم من الملموسات وفى الروائح ما ناسب مزاج الروح القلبىّ البخارىّ لانه المدرك واليه تؤديه الحاسّة ولهذا كانت الرياحين والازهار العطريّات احسن رائحة واشدّ ملايمة للروح لغلبة الحرارة فيها التى هى مزاج الروح القلبىّ واما المرئيات والمسموعات فالملائم فيها تناسب الاوضاع فى اشكالها وكيفيّاتها فهو انسب عند النفس واشدّ ملائِمة لها فاذا كان المرئ متناسبا فى اشكاله وتخاطيطه التى له بحسب مادّته بحيث لا يخرج عمّا تقتضيه مادّته الخاصّة من كمال المناسبة والوضع وذلك هو معنى الجمال والحسن فى كل مدرك كان ذلك حينئذ مناسبا للنفس المدركة فتلتذّ بادراك ملائمها (1) ولهذا نجد العاشقين المستهترين (2) فى المحبّة يعبرون عن غاية محبّتهم وعشقهم بامتزاج ارواحهم بروح المحبوب ومعناه من وجه اخر ان الوجود يشرك بين الموجودات كما يقوله الحكماء فتودّ ان تمتزج بما شهدت فيه الكمال لتتّحد به (ولما) كان انسب الاشياء الى الانسان واقربها الى مدرك الكمال فى تناسب موضوعها هو شكله الانسانىّ فكان ادراكه للجمال والحسن فى تخاطيطه واصواته من المدارك التى هى اقرب الى فطرته فيلهج كل انسان بالحسن فى

(1) Man. A. et B. ملايمتها.

(2) Man. A. et B. المشتهرين.

المرئى او المسموع بمقتضى الفطرة والحسن فى المسموع ان تكون الاصوات متناسبة لا متنافرة وذلك ان الاصوات لها كيفيّات من الهمس والجهر والرخاوة والشدّة والقلقلة والضغط وغير ذلك والتناسب فيها هو الذى يوجب لها الحسن فاولا ان لا يخرج من الصوت الى ضدّه دفعة بل بتدريج ثم يرجع كذلك وكذلك الى المثل بل لا بدّ من توسّط المغائر بين الصوتين وتامّل هذا من استقباح اهل اللسان التراكيب من الحروف المتنافرة او المتقاربة المخارج فانه من بابه وثانيا تناسبها بالاجزاء كما مرّ اول الباب فيخرج من الصوت الى نصفه او ثلثه او جزء من كذا منه على حسب ما يكون التنقّل مناسبا على ما حصره اهل صناعة الموسيقى فاذا كانت الاصوات على تناسب فى الكيفيّات كما ذكره اهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملذوذة (ومن) هذا التناسب ما يكون بسيطا ويكون الكثير من الناس مطبوعين عليه لا يحتاجون فيه الى تعليم ولا صناعة كما نجد المطبوعين على الموازين الشعريّة وتوقيع الرقص وامثال ذلك وتسمّى العامّة هذه القابليّة بالمضمار وكثير من القراء بهذه المثابة يقرؤن القران فيجيدون فى تلاحين اصواتهم كانّها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم ومن هذا التناسب ما يحدث بالتركيب وليس كل الناس

يستوى فى معرفته ولا كل الطبائع توافق صاحبها فى العمل
به اذا علم وهذا هو التلحين الذى يتكفّل به علم الموسيقى
كما نشرحه بعد ذكر العلوم (وقد) انكر مالك رضى الله
عنه القراءة بالتلحين واجازها الشافعى رضى الله عنه وليس
المراد تلحين الموسيقى الصناعىّ فانه لا ينبغى ان يختلف
فى حظره اذ صناعة الغناء مباٸنة للقران لان القراءة والاداء
يحتاج الى مقدار من الصوت يتعيّن اداء الحروف به من
حيث اشباع الحركات فى مواضعها ومقدار المدّ عند من
يطيله او يقصره وامثال ذلك والتلحين ايضا يتعيّن له مقدار
من الصوت لا يتمّ الّا به من اجل التناسب الذى قلناه
فى حقيقة التلحين فاعتبار احدهما قد يخلّ بالاخر اذا
تعارضا وتقديم التلاوة متعيّن فرارا من تغيير الرواية المنقولة
فى القران (1) فلا يمكن اجتماع التلحين والاداء المعتبر فى القران
بوجه وانّما المراد من اختلافهم التلحين البسيط الذى يهتدى
اليه صاحب المضمار بطبعه كما قدّمناه فيردّد اصواته ترديدا
على نسب يدركها العالم بالغناء وغيره هذا هو محلّ
الخلاف والظاهر تنزيه القران عن هذا كما ذهب اليه الامام
رحمه الله لانّ القران هو محلّ خشوع بذكر الموت وما
بعده وليس مقام التذاذ بادراك الحسن من الاصوات وهكذا

(1) Man. A. et B. القراءة.

كانت قراءة الصحابة كما فى اخبارهم (فاما) قوله صلعم لقد اوتى مزمارا من مزامير آل داود فليس المراد به الترديد والتلحين وانّما معناه حسن الصوت واداء القراءة والابانة فى مخارج الحروف والنطق بها واذا قد ذكرنا معنى الغناء (فاعلم) انه يحدث فى العمران اذ توفّر وتجاوز حدّ الضرورىّ الى الحاجىّ ثم الى الكمالىّ وتفنّنوا فيه فتحدث هذه الصناعة لانّها لا يستدعيها الّا من فرغ عن جميع حاجاته الضروريّة والمهمّة من المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها الّا الفارغون عن سائر احوالهم تفنّنا فى مذاهب الملذوذات (وكان) فى سلطان العجم قبل الملّة منها بحر زاخر فى امصارهم ومدنهم وكان ملوكهم يتّخذون ذلك ويولعون به حتى لقد كان لملوك الفرس اهتمام باهل هذه الصناعة ولهم مكان من دولتهم وكانوا يحضرون مشاهدهم ومجامعهم ويغنون فيها وهذا شأن العجم لهذا العهد فى كل افق من آفاقهم ومملكة من ممالكهم (واما العرب) فكان لهم اولا فنّ الشعر يؤلفون فيه الكلام اجزاء متساوية على تناسب بينها فى عدّة حروفها المتحرّكة والساكنة ويفصّلون الكلام فى تلك الاجزاء تفصيلا يكون كل جزء منها مستقلّا بالافادة لا ينعطف على الاخر ويسمّونه البيت فيلائم الطبع بالتجزئة اولا ثم بتناسب الاجزاء فى المقاطع والمبادئ ثم بتادية المعنى

المقصود وتطبيق الكلام عليه فلهجوا به وامتاز من بين كلامهم بحظّ من الشرف ليس لغيره لاجل اختصاصه بهذا التناسب وجعلوه ديوانا لاخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكّا لقرائحهم فى اصابة المعانى واجادة الاساليب واستمرّوا على ذلك وهذا التناسب الذى من اجل الاجزاء والمتحرّك والساكن من الحروف قطرة من بحر من تناسب الاصوات كما هو معروف فى كتاب الموسيقى الا انهم لم يشعروا بما سواه لانهم حينئذ لم ينتحلوا علما ولا عرفوا صناعة وكانت البداوة اغلب نحلهم (ثم) تغنى الحداة منهم فى حداء ابلهم والفتيان فى قضاء خلواتهم فرجعوا الاصوات وترنّموا وكانوا يسمّون الترنّم اذا كان بالشعر غناء واذا كان بالتهليل او نوع القراءة تغبيرا بالغين المعجمة والباء الموحدة وعللها ابو اسحق الزجاج بانها تذكر بالغابر وهو الباقى اى باحوال الآخرة وربّما ناسبوا فى غنائهم بين النغمات مناسبة كما ذكره ابن رشيق فى آخر كتاب العمدة وغيره وكانوا يسمّونه السناد وكان اكثر ما يكون منهم فى الخفيف الذى يرقص عليه ويمشى بالدفّ والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم وكانوا يسمّون هذا الهزج وهذا البسيط كله من التلاحين هو من اوائلها ولا يبعد ان يتفطّن له الطباع من غير تعليم شأن البسائط كلها من الصنائع ولم يزل هذا شأن

العرب فى بداوتهم وجاهليّتهم (فلما) جاء الاسلام واستولوا على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم وغلبوهم عليه وكانوا من البداوة والغضاضة على الحال التى عرفت لهم مع غضاضة (1) الدين وشدّته فى ترك احوال الفراغ وما ليس بنافع فى دين ولا معاش فهجر ذلك شئا ما ولم يكن الملذوذ عندهم الا ترجيع القراءة (2) والترنّم بالشعر الذى كان ديدنهم ومذهبهم فلما جاء الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقّة الحاشية واستحلاء الفراغ (وافترق) المغنّون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالى للعرب وغنّوا جميعا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم الاصوات فلحنوا عليها اشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسى وطويس وسائب خاثر مولى عبد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه واجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم اخذ عنهم معبد وطبقته وابن شريح وانظاره (ومازالت) صناعة الغناء تتدرّج الى ان كملت ايام بنى العباس عند ابراهيم بن المهدى وابراهيم الموصلى وابنه اسحق وابنه حماد وكان من ذلك فى دولتهم ببغداد ما تبعه الحديث به وبمجالسه (3) لهذا العهد وامعنوا فى اللهو واللعب واتّخذت الآت الرقص فى الملبس

(1) Man. D. عصارة. C. عصارة.   (2) Man. A. et B. القران.   (3) Man. D. بمحاسنه.

والقضبان والاشعار التى يترنّم بها عليه وجعل صنفا وحده
واتّخذت آلات اخرى للرقص تسمى بالكرج (1) وهى تماثيل
خيل مسرجة من الخشب معلّقة باطراف اقبية تلبسها
النسوان ويحاكون بها امتطاء الخيل فيكرّون ويفرّون ويتثاقفون
وامثال ذلك من اللعب المعدّة للولائم والاعراس وايام
الاعياد ومجالس الفراغ واللهو وكثر ذلك ببغداد وامصار
العراق وانتشر منها فيما سواها (وكان) للموصليّين غلام
اسمه زرياب اخذ عنهم الغناء فاجاد فصرفوه الى المغرب
غيرة به فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل
امير الاندلس فبالغ فى تكرمته وركب للقائه واسنى له
الجوائز والاقطاعات والجرايات واحلّه من دولته وندمائه
بمكان فاورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى
ازمان الطوائف وطما منها باشبيلية بحر زاخر وتناقل منها
بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب وانقسم الى
امصارها وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص
دولها وهذه الصناعة آخر ما يحصل فى العمران من الصنائع
لانّها كماليّة فى غير وظيفة من الوظائف الا وظيفة الفراغ
والفرح وهى ايضا اول ما ينقطع من العمران عند اختلاله
وتراجعه والله الخلّاق

(1) Man. D. الكرج.

فصل فى ان الصنائع تكسب صاحبها عقلا وخصوصا الكتابة والحساب

وقد ذكرنا فى الكتاب ان النفس الناطقة للانسان انّما توجد فيه بالقوة وانّ خروجها من القوة الى الفعل انما هو بتجدّد العلوم والادراكات من المحسوسات اولا ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظريّة الى ان يصير ادراكا بالفعل وعقلا محضا فتكون ذاتا روحانيّة وتستكمل حينئذ وجودها فوجب لذلك ان يكون كل نوع من العلم والنظر يفيدها عقلا مزيدا والصنائع ابدا يحصل عنها وعن ملكتها قانون علميّ مستفاد من تلك الملكة فلهذا كانت الحنكة فى التجربة تفيد عقلا والملكات الصناعيّة تفيد عقلا والحضارة الكاملة تفيد عقلا لانها مجتمعة من صنائع فى شأن تدبير المنزل ومعاشرة ابناء الجنس وتحصيل الآداب فى مخالطتهم ثم القيام بامور الدين واعتبار آدابها وشرائطها وهذه كلها قوانين تنتظم علوما فتحصل منها زيادة عقل (والكتابة) من بين الصنائع اكثر افادة (1) لذلك لانها تشتمل على علوم وانظار بخلاف الصنائع وبيانه ان فى الكتابة انتقالا من صور الحروف الخطيّة الى الكلمات اللفظيّة فى الخيال ومن الكلمات اللفظيّة فى الخيال الى المعانى التى فى

(1) Man. A. et B. فائدة.

النفس فهو ينتقل ابدا من دليل الى دليل ما دام ملتبسا بالكتابة وتتعوّد النفس ذلك دائما فيحصل لها ملكة الانتقال من الادلّة الى المدلولات وهو معنى النظر العقلىّ الذى يكتسب به العلوم المجهولة فتكتسب بذلك ملكة من التعقّل تكون زيادة عقل ويحصل به مزيد فطنة وكيس فى الامور بما تعوّدوه من ذلك الانتقال وكذلك قال كسرى فى كتّابه لما راءهم بتلك الفطنة والكيس فقال ديوانه اى شياطين وجنون قالوا وذلك اصل اشتقاق الديوان لاهل الكتابة ويلحق بذلك الحساب فان فى صناعة الحساب نوع تصرّف فى العدد بالضمّ والتفريق يحتاج فيه الى استدلال كبير فيبقى متعوّدا للاستدلال والنظر وهو معنى العقل والله اخرجكم من بطون امّهاتكم لا تعلمون شئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون

الفصل السادس من الكتاب الاول فى العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وما يعرض فى ذلك كلّه من الاحوال وفيه مقدّمة ولواحق

(فالمقدّمة) فى الفكر الانسانىّ الذى تميّز به البشر عن الحيوانات واهتدى به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بابناء

جنسه والنظر فى معبوده وما جاءت به الرسل من عنده فصار جميع الحيوانات فى طاعته وملكت قدرته وفضّله به على كثير خلقه

فصل فى الفكر الانسانىّ

(اعلم) ان الله سبحانه وتعالى ميّز البشر عن سائر الحيوانات بالفكر الذى جعله مبداء كماله ونهاية فضله على الكائنات وشرفه وذلك ان الادراك وهو شعور المدرك فى ذاته بما هو خارج عن ذاته هو خاصّ بالحيوان فقط من بين سائر الكائنات والموجودات فالحيوانات تشعر بما هو خارج عن ذاتها بما ركب الله فيها من الحواسّ الظاهرة (السمع والبصر والشمّ والذوق واللمس) ويزيد الانسان من بينها انه يدرك الخارج عن ذاته بالفكر الذى وراء حسّه وذلك بقوى جعلت له فى بطون دماغه ينتزع بها صور المحسوسات ويجول بذهنه فيها فيجرّد منها صورا اخرى والفكر هو التصرّف فى تلك الصور وراء الحسّ وجولان الذهن فيها بالانتزاع والتركيب وهو معنى الافئدة فى قوله تعالى جعل لكم السمع والابصار والافئدة والافئدة جمع فؤاد وهو هنا الفكر وهو على مراتب (الاولى) تعقّل الامور المرتّبة فى الخارج ترتيبا طبيعيّا او وضعيّا ليقصد ايقاعها بقدرته وهذا الفكر اكثر

تصوّرات وهو العقل التمييزيّ الذى يحصل منافعة ومعاشه ويدفع مضارّه (الثانية) الفكر الذى يفيد به الآراء والآداب فى معاملة ابناء جنسه وسياستهم واكثرها تصديقات تحصل بالتجربة شئا شئا الى ان تتمّ الفائدة منها وهذا هو المسمّى بالعقل التجريبىّ (الثالثة) الفكر الذى يفيد العلم او الظنّ بمطلوب وراء الحسّ لا يتعلّق به عمل فهذا هو العقل النظرىّ وهو تصوّرات وتصديقات تنتظم انتظاما خاصّا على شروط خاصّة فيفيد معلوما اخر من جنسها فى التصوّر او التصديق ثم ينتظم مع غيره فيفيد علوما اخر كذلك وغاية افادته تصوّر الوجود على ما هو عليه باجناسه وفصوله واسبابه وعلله فيكمل بالفكر بذلك فى حقيقته ويصير عقلا محضا ونفسا مدركة وهو معنى الحقيقة الانسانيّة

فصل فى ان عالم الحوادث الفعليّة انّها يتمّ بالفكر

اعلم ان عالم الكائنات يشتمل على ذوات محضة كالعناصر وآثارها والمكونات الثلاثة عنها التى هى المعدن والنبات والحيوان وهذه كلّها متعلّقات القدرة الالهيّة وعلى افعال صادرة عن الحيوانات واقعة بمقصودها متعلّقة بالقدرة التى جعل الله لها عليها فمنها منتظم مرتّب وهى الافعال البشريّة ومنها غير منتظم ولا مرتّب وهى افعال الحيوانات غير البشر

وذلك الفكر يدرك الترتيب بين الحوادث بالطبع او بالوضع فاذا قصد ايجاد شئ من الاشياء فلاجل الترتيب بين الحوادث لا بدّ من التفطّن بسببه او علّته او شرطه وهى على الجملة مبادئه اذ لا يوجد الّا ثانيا عنها ولا يمكن ايقاع المتقدّم متاخرا ولا المتاخّر متقدّما وذلك المبدأ قد يكون له مبدأ اخر من تلك المبادئ لا يوجد الّا متاخّرا عنه وقد يرتقى ذلك او ينتهى فاذا انتهى الى آخر المبادئ فى مرتبتين او ثلاث او ازيد وشرع فى العمل الذى يوجد به ذلك الشئ بدأ بالمبدأ الاخير التى انتهى اليه الفكر فكان اول عمله ثم تابع ما بعده الى آخر المسبّبات التى كانت اول فكرته مثلا لو فكر فى ايجاد سقف يكنّه انتقل بذهنه الى الحائط الذى يدعمه ثم الى الاساس الذى يقف عليه الحائط فهو آخر الفكر ثم يبدأ فى العمل بالاساس ثم بالحائط ثم بالسقف وهو آخر العمل (وهذا) معنى قولهم اول العمل آخر الفكرة واول الفكرة آخر العمل فلا يتمّ فعل الانسان فى الخارج الا بالفكر فى هذه المرتبات لتوقّف بعضها على بعض ثم يشرع فى فعلها واول هذا الفكر هو المسبّب الاخير وهو آخرها فى العمل واولها فى العمل هو المسبّب الاول وهو آخرها فى الفكر ولاجل العثور على هذا الترتيب يحصل الانتظام فى الافعال البشريّة (واما الافعال) الحيوانيّة لغير

البشر فليس فيها انتظام لعدم الفكر الذى يعثر به الفاعل على الترتيب فيما يفعل اذ الحيوانات انّما تدرك بالحواسّ ومدركاتها متفرّقة خليّة من الربط لانه لا يكون الا بالفكر ولما كانت الحواسّ المعتبرة فى عالم الكائنات هى المنتظمة وغير المنتظمة انّما هى تبع لها اندرجت حينئذ افعال الحيوانات فيها فكانت مسخّرة للبشر واستولت افعال البشر على عالم الحوادث بما فيه فكان كله فى طاعته وتسخره وهذا معنى الاستخلاف المشار اليه فى قوله تعالى انّى جاعل فى الارض خليفة فهذا الفكر هو الخاصّة البشريّة التى تميّز بها البشر عن غيره من الحيوان وعلى قدر حصول الاسباب والمسبّبات فى الفكر مرتبة تكون انسانيّته فمن الناس من تتوالى له السببيّة فى مرتبتين او ثلاث ومنهم من لا يتجاوزها ومنهم من ينتهى الى خمس او ستّ فتكون انسانيّته اعلا واعتبر ذلك بلاعب الشطرنج فان فى اللاعبين من يتصوّر الثلاث حركات والخمس الذى ترتيبها وضعىّ ومنهم من يقصر عن ذلك لقصور ذهنه وان كان هذا المثال غير مطابق لان لعب الشطرنج بالملكة ومعرفة الاسباب والمسبّبات بالطبع لكنّه مثال يحتذى به الناظر فى تعقّل ما يورد عليه من القواعد والله خلق الانسان وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلا

فصل فى العقل التجريبىّ وكيفيّة حدوثه

انّك تسمع فى كتب الحكماء قولهم ان الانسان هو مدنىّ الطبع يذكرونه فى اثبات النبوات وغيرها والنسبة فيه الى المدينة وهى عندهم كناية عن الاجتماع البشرىّ ومعنى هذا القول انه لا تمكن حياة المنفرد من البشر ولا يتمّ وجوده الّا مع ابناء جنسه وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته فهو محتاج الى المعاونة فى جميع حاجاته ابدا بطبعه وتلك المعاونة لا بدّ فيها من المفاوضة اولا ثم المشاركة وما بعدها وربّما تفضى المعاملة عند اتّحاد الاعراض الى المنازعة والمشاجرة فتنشأ المنافرة والمؤالفة والصداقة والعداوة ويؤول الى الحرب والسلم بين الامم والقبائل وليس ذلك اى على وجه اتّفق كما بين الهمل من الحيوانات بل للبشر بما جعل الله فيهم من انتظام الافعال وترتيبها بالفكر كما تقدّم جعل منتظما فيهم ويسّرهم لايقاعه على وجوه سياسيّة وقوانين حكميّة ينكبون فيها عن المفاسد الى المصالح وعن الحسن الى القبيح بعد ان يميّزوا القبائح والمفسدة بما ينشأ عن الفعل من ذلك عن تجربة صحيحة وعوائد معروفة بينهم فيفارقون الهمل من الحيوان وتظهر عليهم نتيجة الفكر فى انتظام الافعال وبعدها عن المفاسد

(هذه) المعانى التى يحصل بها ذلك لا تبعد عن الحسّ كلّ البعد ولا يتعمّق فيها الناظر بل كلّها تدرك بالتجربة وبها يستفاد لانها معانى جزئية تتعلّق بالمحسوسات وصدقها وكذبها يظهر قريبا فى الواقع فيستفيد طالبها حصول العلم بها من ذلك ويستفيد كل واحد من البشر القدر الذى يسر له منها مقتنصا له بالتجربة بين الواقع فى معاملة ابناء جنسه حتى يتعيّن له ما يجب وينبغى فعلا وتركا وتحصل فى ملابسة الملكة فى معاملة ابناء جنسه ومن تتبع ذلك سائر عمره حصل له العثور على كل قضية قضية ولا بدّ بها تسعه التجربة من الزمن وقد يسهل الله على كثير من البشر تحصيل ذلك فى اقرب من زمن التجربة اذا قلّد فيها الآباء والمشيخة والاكابر ولقن عنهم ووعى تعليمهم فيستغنى عن طول المعاناة فى تتبّع الوقائع واقتناص هذا المعنى من بينها ومن فقد العلم فى ذلك والتقليد فيه او اعرض عن حسن استماعه واتباعه طال عناوه فى التأديب بذلك فيجرى فى غير مألوف ويدركها على غير نسبة فتوجد آدابه ومعاملاته سئية الاوضاع بادية الخلل ويفسد حاله فى معاشه بين ابناء جنسه وهذا معنى القول المشهور من لم يؤدّبه والده ادّبه الزمان اى من لم يلقن الآداب فى معاملة البشر من والديه وفى معناهما المشيخة والاكابر

ويتعلّم ذلك منهم رجع الى تعلّمه بالطبع من الواقعات على توالى الايام فيكون الزمان معلّمه ومؤدّبه لضرورة ذلك بضرورة المعاونة التى فى طبعه (وهذا) هو العقل التجريبىّ وهو يحصل بعد العقل التمييزىّ الذى يقع به الافعال كما بيّنّاه وبعد هذين مرتبة العقل النظرى الذى تكفّل بتفسيره اهل العلوم فلا يحتاج الى تفيسره فى هذا الكتاب والله جعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون

فصل فى علوم البشر وعلوم الملائكة

انّا نشهد فى انفسنا بالوجدان الصحيح وجود ثلاثة عوالم (اولها) عالم الحسّ ونعتبره بمدارك الحسّ الذى شاركنا فيه الحيوانات بالادراك (ثم) نعتبر الفكر الذى اختصّ به البشر فنعلم منه وجود النفس الانسانيّة علما ضروريّا بما بين جنبينا من مداركها العلميّة التى هى فوق مدارك الحسّ فتراه عالما اخر فوق عالم الحسّ (ثم) نستدلّ على عالم ثالث فوقنا بما نجد فينا من آثاره التى تلقى فى افئدتنا كالارادات والوجهات نحو الحركات الفعليّة فنعلم ان هناك فاعلا يبعثنا عليها من عالم فوق عالمنا وهو عالم الارواح والملائكة وفيه ذوات مدركة لوجود آثارها فينا مع ما بيننا وبينها من المغايرة وربّما يستدلّ على هذا العالم

الاعلى الروحانيّ وذواته بالرؤياء وما نجد فى النوم ويلقى الينا فيه من الامور التى نحن فى غفلة عنها فى اليقظة وتطابق الواقع فى الصحيحة منها فنعلم انّها حقّ ومن عالم الحقّ واما اضغاث الاحلام فصور خياليّة يخزنها الادراك فى الباطن ويجول فيها الفكر بعد الغيبة عن الحسّ ولا نجد على هذا العالم الروحانيّ برهانا اوضح من هذا فنعلمه كذلك على الجملة ولا ندرك له تفصيلا (وما يزعمه الحكماء الالهيّون فى تفصيل ذواته وترتيبها المسمّاة عندهم بالعقول فليس شئ من ذلك بيقينيّ لاختلال شرط البرهان النظريّ فيه كما هو مقرّر فى كلامهم فى المنطق لان من شرطه ان تكون قضاياه اوليّة ذاتيّة وهذه الذوات الروحانيّة مجهولة الذاتيّات فلا سبيل للبرهان فيها ولا يبقى لنا مدرك فى تفاصيل هذه العوالم الّا ما نقتبسه من الشرعيّات التى يوضحها الايمان ويحكمها واقعد هذه العوالم فى مدركنا عالم البشر لانّه وجدانيّ مشهود فى مداركنا الجسمانيّة والروحانيّة ويشترك فى عالم الحسّ مع الحيوانات وفى عالم العقل والارواح مع الملائكة الذين ذواتهم من جنس ذواته وهي ذوات مجرّدة عن الجسمانيّة والمادّة وعقل صرف يتّحد فيه العقل والعاقل والمعقول وكانّه ذات حقيقتها الادراك والعقل فعلومهم حاصلة دائما مطابقة بالطبع

لمعلوماتهم لا يقع فيها خلل البتّة (وعلم) البشر هو حصول صورة المعلوم فى ذواتهم بعد ان لا تكون حاصلة فهو كله مكتسب والذات التى يحصل فيها صور المعلومات وهى النفس مادّة هيولانيّة تلبس صور الوجود بصور المعلومات الحاصلة فيها شئا شئا حتى تستكمل ويصحّ وجودها بالموت فى مادّتها وصورتها فالمطلوبات فيها متردّدة بين النفى والاثبات دائما بطلب احدهما بالوسط الرابط بين الطرفين فاذا حصل وصار معلوما افتقر الى بيان المطابقة وربّما اوضحها البرهان الصناعىّ لكنّه من وراء الحجاب وليس كالمعاينة التى فى علوم الملائكة وقد ينكشف ذلك الحجاب فيصير الى المطابقة بالعيان الادراكىّ فقد تبيّن ان البشر جاهل بالطبع للتردّد الذى فى علمه وعالم بالكسب والصناعة لتحصيله المطلوب بفكره بالشروط الصناعيّة وكشف الحجاب الذى اشرنا اليه انّما هو بالرياضة بالاذكار التى افضلها صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وبالتنزّه عن المتناولات المهمّة وراسها الصوم وبالوجهة الى الله بجميع قواه والله علّم الانسان ما لم يعلم

فصل فى علوم الانبياء عليهم الصلاة والسلام

انّا نجد هذا الصنف من البشر تعتريهم حالة الهيئة خارجة عن

منازع البشر واحوالهم فتغلب الوجهة الربّانيّة فيهم على البشريّة فى القوى الادراكيّة والنزوعيّة من الشهوة والغضب وسائر الاحوال البدنيّة فتجدهم متنزّهين عن الاحوال البشريّة الا فى الضرورات منها مقبلين على الاحوال الربّانيّة من العبادة والذكر لله بما تقتضى معرفتهم به مخبرين عنه بما يوحى اليهم فى تلك الحالة من هداية الامّة على طريقة واحدة وسنن معهود منهم لا يتبدّل فيهم كانّه جبلّة فطرهم الله عليها وقد تقدّم لنا الكلام فى الوحى اول الكتاب فى فصل المدركين للغيب وبيّنّا هنالك ان الوجود كلّه فى عوالمه البسيطة والمركّبة على ترتيب طبيعىّ من اعلاها واسفلها متّصلة كلّها اتّصالا لا ينخرم وان الذوات التى فى آخر كل افق من العوالم مستعدّة لان تنقلب الى الذات التى تجاورها من الاسفل والاعلا استعدادا طبيعيّا كما فى العناصر الجسمانيّة البسيطة وكما هو فى النخل والكرم من آخر افق النبات مع الحلزون والصدف من افق الحيوان وكما فى القردة التى استجمع فيها الكيس والادراك مع الانسان صاحب الفكر والروية وهذا الاستعداد الذى فى جانبى كل افق من العوالم هو معنى الاتّصال فيها (وفوق) العالم البشرىّ عالم روحانىّ شهدت لنا به الآثار التى فينا منه بما يعطينا من قوى الادراك

والارادة فذوات ذلك العالم ادراك صرف وتعقّل محض
وهو عالم الملائكة (فوجب) من ذلك كله ان يكون
للنفس الانسانيّة استعداد للانسلاخ من البشريّة الى الملكيّة
لتصير بالفعل من جنس الملائكة وقتا من الاوقات وفى
لمحة من اللمحات ثم تراجع بشريّتها وقد تلقّت فى
عالم الملكيّة ما كلفت بتبليغه الى ابناء جنسها من البشر
وهذا هو معنى الوحى وخطاب الملائكة والانبياء كلّهم
مفطورون عليه كانه جبلّة لهم ويعالجون فى ذلك الانسلاخ
من الشدّة والغطيط ما هو معروف عنهم وعلومهم فى تلك
الحالة علم شهادة وعيان لا يلحقه الخطأ والزلل ولا يقع فيه
الغلط والوهم بل المطابقة فيه ذاتيّة لزوال حجاب الغيب
وحصول الشهادة الواضحة عند مفارقة هذه الحالة الى
البشريّة لا يفارق علمهم الوضوح استصحابا له من تلك
الحالة الاولى ولما هم عليه من الذكاء المفضى بهم اليها
يتردّد ذلك فيهم دائما الى ان تكمل هداية الامّة التى
بعثوا لها كما فى قوله تعالى انّما انا بشر مثلكم يوحى الى
انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه فافهم ذلك
وراجع ما قدّمناه لك اول الكتاب فى اصناف المدركين
للغيب يتّضح لك شرحه وبيانه فقد بسطناه هنالك
بسطا شافيا والله الموفّق

فصل فى ان الانسان جاهل بالذات عالم بالكسب

قد بيّنّا اول هذه الفصول ان الانسان من جنس الحيوانات وان الله تعالى ميّزه عنها بالفكر الذى جعل له يوقع به افعاله على انتظام وهو العقل التمييزىّ او يقتنص به العلم بالآراء والمصالح والمفاسد من ابناء جنسه وهو العقل التجريبىّ او يحصل به فى تصوّر الموجودات غائبا وشاهدا على ما هى عليه وهو العقل النظرىّ وهذا الفكر انّما يحصل له بعد كمال الحيوانيّة فيه ويبدأ من التمييز فهو قبل التمييز خلو من العلم بالجملة معدود من الحيوانات لاحق بمبدأه فى التكوين من النطفة والعلقة والمضغة وما حصل له بعد ذلك فهو بما جعل الله له من مدارك الحسّ والافئدة التى هى الفكر قال تعالى فى الامتنان علينا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة فهو فى الحالة الاولى قبل التمييز هيولا فقط لجهله بجميع المعارف ثم تستكمل صورته بالعلم الذى يكتسبه بآلاته فكمل ذاته الانسانيّة فى وجودها وانظر الى قوله تعالى مبدأ الوحى على نبيه اقرأ باسم ربّك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربّك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم اى اكسبه من العلم ما لم يكن حاصلا له بعد ان كان علقة ومضغة فقد كشفت

لنا طبيعته وذاته ما هو عليه من الجهل الذاتىّ والعلم الكسبىّ واشارت اليه الآية الكريمة تقرر فيه الامتنان عليه باول مراتب وجوده وهى الانسانيّة وحالتاه الفطريّة والكسبيّة فى اول التنزيل ومبدأ الوحى وكان الله عليما حكيما

فصل فى ان تعليم العلم من جملة الصنائع

وذلك ان الحذق فى العلم واليقين فيه والاستيلاء عليه انّما هو بحصول ملكة فى الاحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من اصوله وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق فى ذلك الفنّ حاصلا وهذه الملكة هى غير الفهم والوعى لانّا نجد فهم المسئلة الواحدة من الفنّ الواحد مشتركا بين من شدا فى ذلك الفنّ ومن هو مبتدئ فيه وبين العامى الذى لم يحصل علما وبين العالم النحرير والملكة انما هى للعالم والشادى فى الفنون دون من سواهما فدلّ على ان هذه الملكة غير الفهم (والملكات) كلّها جسمانيّة وسواء كانت فى البدن او فى الدماغ من الفكر وغيره كالحساب والجسمانيّات كلّها محسوسة فتفتقر الى التعليم ولهذا كان السند فى التعليم فى كل علم او صناعة يفتقر الى مشاهير المعلّمين فيها معتبرا عند اهل كل افق وجيل ويدلّ ايضا على ان تعليم العلم صناعة اختلاف

الاصطلاحات فيه فلكلّ امام من الائمّة المشاهير اصطلاح فى التعليم يختصّ به شأن الصنائع كلّها فدلّ على ان ذلك الاصطلاح ليس من العلم اذ لو كان من العلم لكان واحدا عند جميعهم الا ترى الى علم الكلام كيف تخالف فى تعليمه اصطلاح المتقدّمين والمتاخّرين وكذا اصول الفقه وكذا العربيّة والفقه وكذا كل علم يحتاج (1) الى مطالعته تجد الاصطلاحات فى تعليمه متخالفة فدلّ على انّها صناعات فى التعليم والعلم واحد فى نفسه واذا تقرّر ذلك (فاعلم) ان سند العلم لهذا العهد قد كاد ان ينقطع عن اهل المغرب كلّهم باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مرّ وذلك ان القيروان وقرطبة كانتا حاضرتى المغرب والاندلس واستبحر عمرانهما وكان فيهما للعلوم والصنائع اسواق نافقة وبحور زاخرة ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة فلما خربتا انقطع التعليم عن المغرب الّا قليلا كان فى اول دولة الموحّدين بمراكش مستفاد منهما ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداوة الدولة الموحّديّة فى اولها وقرب انقراضها بمبدئها فلم تتّصل احوال الحضارة فيها الّا فى الاقلّ وبعد انقراض الدولة بمراكش ارتحل الى

(1) Man. C. et D. يتوجّه.

المشرق من افريقية القاضى ابو القاسم بن زيتون لعهد
اواسط المائة السابعة فادرك تلميذ الامام ابن الخطيب
واخذ عنهم ولقن تعليمهم وحذق فى العقليّات والنقليّات
ورجع الى تونس بعلم كثير وتعليم حسن وجاء على اثره
من المشرق ابو عبد الله ابن شعيب الدكالىّ كان ارتحل
اليه من المغرب فاخذ عنه مشيخة مصر ورجع الى تونس
واستقرّ بها وكان تعليمه مفيدا فاخذ عنهما اهل تونس واتّصل
سند تعليمهما فى تلميذهما جيلا بعد جيل حتى انتهى الى
القاضى محمد بن عبد السلام شارح ابن الحاجب وتلميذه
وانتقل من تونس الى تلمسان فى (1) ابن الامام وتلميذه فانه
قرأ مع ابن عبد السلام على مشيخة واحدة وفى مجالس باعيانها
وتلميذ ابن عبد السلام بتونس وابن الامام بتلمسان لهذا
العهد الّا انّهم من القلّة بحيث يخشى انقطاع سندهم (ثم)
ارتحل من زواوة فى آخر المائة السابعة ابو على ناصر الدين
المشدالى الى المشرق وادرك تلميذ ابى عمرو ابن الحاجب
واخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القرافىّ
فى (2) مجالس واحدة وحذق فى العقليّات والنقليّات ورجع
الى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ونزل بجاية واتّصل
سند تعليمه فى طلبتها وربّما انتقل الى تلمسان عمران

(1) Man. C. فراء D. فى manque. (2) Man. C. et D. omettent فى.

المشد الى تلميذه واوطنها وبثّ طريقته فيها وتلميذه لهذا العهد ببجاية وتلمسان قليل او اقلّ من القليل وبقيت فاس وسائر امصار المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ولم يتّصل سند التعليم فيهم فعسر عليهم حصول الملكة والحذق فى العلوم (وايسر طرق هذا الملكة قوة اللسان بالمحاورة والمناظرة فى المسائل العلميّة فهو الذى يقرب شأنها ويحصل مرامها فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من اعمارهم فى ملازمة المجالس العلميّة سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون وعنايتهم بالحفظ اكثر من الحاجة ولا يحصلون فى طائل من ملكة التصرّف فى العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من ترى منهم انه قد حصل تجد ملكته قاصرة فى علمه ان فاوض او ناظر او علم وما اتاهم القصور الّا من قبل التعليم وانقطاع سنده والّا فحفظهم ابلغ من حفظ من سواهم لشدّة عنايتهم به وظنّهم انه المقصود من الملكة العلميّة وليس كذلك وممّا يشهد بذلك فى المغرب ان المدّة المعيّنة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ستّة عشر سنة وهى بتونس خمس سنين وهذه المدّة بالمدارس على المتعارف هى اقل ما يتأتّى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلميّة او اليأس من تحصيلها فطال امدها بالمغرب

لهذه العصور لاجل عسرها من قلّة الجودة فى التعليم خاصّة لا مـمّا سوى ذلك واما اهل الاندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين ولم يبق من رسم العلم عندهم الّا فنّ العربيّة والادب اقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمها بينهم فانحفظ بحفظه (واما) الفقه عندهم فرسم خلو واثر بعد عين (واما) العقليّات فلا اثر ولا عين وما ذاك الا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص العمران وتغلّب العدوّ على عامّتها الا قليلا بسيف البحر شغلهم بمعائشهم اكثر من شغلهم بما بعدها والله غالب على امره (واما المشرق) فلم ينقطع سند التعليم فيه بل اسواقه نافقة وبحوره زاخرة لاتّصال العمران الموفور واتّصال السند فيه وان كانت الامصار العظيمة التى كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة الّا ان الله قد ادال منها بامصار اعظم من تلك وانتقل العلم منها الى عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة وما اليها من المغرب فلم تزل موفورة وعمرانها متّصلا وسند التعليم بها قائما (فاهل) المشرق على الجملة ارسخ فى صناعة تعليم العلم بل وفى سائر الصنائع حتى انه ليظنّ كثير من رحّالة اهل المغرب الى المشرق فى طلب العلم ان عقولهم على الجملة اكمل من

PROLÉGOMÈNES
d'Ebn-Khaldoun.

عقول اهل المغرب وان نفوسهم الناطقة اكمل بفطرتها من نفوس اهل المغرب ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم فى حقيقة (1) الانسانيّة لما يرون من كيسهم فى العلوم والصنائع وليس كذلك ولا بين قطر(2) المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذى تفاوت فى الحقيقة الواحدة اللهم الا (3) الاقاليم المنحرفة مثل الاول والسابع فان الامزجة فيها منحرفة والنفوس على نسبتها كما مرّ وانّما الذى فضل به اهل المشرق اهل المغرب فهو ما يحصل فى النفس من آثار الحضارة من العقل المزيد كما تقدّم فى الصنائع (ونزيده) الآن شرحا وتحقيقا وذلك ان الحضر لهم آداب فى احوالهم من المعاش والمسكن والبناء وامور الدين والدنيا وكذلك سائر عادياتهم ومعاملاتهم وجميع تصرّفاتهم فلهم فى ذلك آداب يوقف عندها فى جميع ما يتناولونه ويتلبّسون (4) به من اخذ وترك حتّى كانّها حدود لا تتعدّى وهى مع ذلك صنائع يتلقّاها الاخر عن الاول منهم ولا شكّ ان كل صناعة مترتّبة فيرجع منها الى النفس اثر يكسبها عقلا مزيدا تستعدّ به لقبول صناعة اخرى ويتهيّأ به العقل لسرعة الادراك للمعارف (ولقد) يبلغنا فى تعليم الصنائع عن اهل

(1) Man. A. et B. الحقيقة.
(2) Man. D. فطر.
(3) Man. D. ajoute انّ.
(4) Man. D. يتكسّبون.

مصر غايات لا تدرك مثل انّهم يعلمون الحمر الانسيّة والحيوانات العجم من الماشي والطائر مفردات من الكلام والافعال يستغرب ندورها ويعجز اهل المغرب عن فهمها فضلا عن تعليمها وحسن الملكات فى التعليم والصنائع وسائر الاحوال العادية تزيد الانسان ذكاء فى عقله واضاءة فى فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس اذ قدّمنا ان النفس انّما تنشأ بالادراكات وما يرجع اليها من الملكات فيزدادون بذلك كيسا لما يرجع الى النفس من الآثار العلميّة فيظنّه العامّى تفاوتا فى الحقيقة الانسانيّة وليس كذلك الا ترى الى الحضر مع اهل البدو كيف تجد الحضرىّ متحلّيا بالذكاء ممتلئا من الكيس حتى ان البدوىّ ليظنّه انه قد فاته فى حقيقة انسانيّته وعقله وليس كذلك وما ذاك الا لاجادته من ملكات الصنائع والآداب فى العوائد والاحوال الحضريّة ما لا يعرفه البدوىّ فلما امتلاء الحضرىّ من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها ظنّ من قصّر عن تلك الملكات انّها لكمال فى عقله وان نفوس اهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلّتها عن فطرته وليس كذلك فانّا نجد فى اهل البدو من هو فى اعلا رتبة من الفهم والكمال فى عقله وفطرته وانّما الذى ظهر على اهل الحضر من ذلك فهو رونق الصنائع والتعليم فان لهما آثارا ترجع الى النفس كما قدّمناه وكذا

اهل المشرق لما كانوا فى التعليم والصنائع ارسخ رتبة واعلا قدما وكان اهل المغرب اقرب الى البداوة لما قدّمناه فى الفصل قبل هذا ظنّ المغفلون فى بادى الراى انه لكمال الانسانيّة اختصّوا به عن اهل المغرب وليس ذلك بصحيح فتفهمه والله يزيد فى الخلق ما يشاء

فصل فى ان العلوم انّما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة

والسبب فى ذلك ان تعليم العلم كما قلناه من جملة الصنائع وقد كنّا قدّمنا ان الصنائع انّما تكثر فى الامصار وعلى نسبة عمرانها فى الكثرة والقلّة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة لانه امر زائد على المعاش فمتى فضلت اعمال اهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرّف فى خاصية الانسان وهى العلوم والصنائع ومن تشوّف بفطرته الى العلم ممّن نشأ فى القرى والامصار غير المتمدّنة فلا يجد فيها التعليم الذى هو الصناعيّ لفقدان الصنائع فى اهل البدو كما قدّمناه ولا بدّ له من الرحلة فى طلبه فى الامصار المستبحرة شأن الصنائع فى اهل البدو واعتبر ما قرّرناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلوم وتفنّنوا فى

اصطلاحات التعليم واصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى اربوا على المتقدّمين وفاتوا المتاخّرين ولما تناقص عمرانها وابذعرّ سكّانها . انطوى ذلك البساط جملة بما عليه وفقد العلم بها والتعليم وانتقل الى غيرها من امصار الاسلام (ونحن) لهذا العهد نرى ان العلم والتعليم انّما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما ان عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين فاستحكمت فيها الصنائع وتفنّنت ومن جملتها تعليم العلم (واكد) ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور بها منذ مائتين من السنين فى دولة الترك من ايام صلاح الدين بن ايوب وهلمّ جرّا وذلك ان امراء الترك فى دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذرّيتهم لما له عليهم من الرقّ او الولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقّفوا عليها الاوقاف المغلّة يجعلون فيها شركا لولدهم ينظر عليها او نصيب فيها مع ما فيهم غالبا من الجنوح الى الخير والصلاح والتماس الاجور فى المقاصد والافعال فكثرت الاوقاف لذلك وعظمت الغلّات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلّمه بكثرة جرايتهم منها وارتحل اليها الناس فى طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت اسواق العلوم وزخرت بحارها والله يخلق ما يشاء

فصل فى اصناف العلوم الواقعة فى العمران لهذا العهد

اعلم ان العلوم التى يخوض فيها البشر ويتداولونها فى الامصار تحصيلا وتعليما هى على صنفين صنف طبيعىّ للانسان يهتدى اليه بفكره وصنف نقلىّ ياخذه عمّن وضعه والاول هى العلوم الحكميّة الفلسفيّة وهى التى يمكن ان يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ويهتدى بمداركه البشريّة الى موضوعاتها ومسائلها وانحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطاء فيها من حيث هو انسان ذو فكر والثانى هو العلوم النقليّة الوضعيّة وهى كلّها مستندة الى الخبر عن الوضع الشرعىّ ولا مجال فيها للعقل الّا فى الحاق الفروع من مسائلها بالاصول لان الجزئيات الحادثه المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلّىّ بمجرّد وضعه فتحتاج الى الالحاق بوجه قياسىّ الّا ان هذا القياس يتفرّع عن الخبر بثبوت الحكم فى الاصل وهو نقلىّ فرجع هذا القياس الى النقل لتفرّعه عنه (واصل) هذه العلوم النقليّة كلها هى الشرعيّات من الكتاب والسنّة التى هى مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلّق بذلك من العلوم التى تهيونا للاستفادة منها ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربىّ الذى هو لسان الملّة وبه نزل

القران واصناف هذه العلوم النقليّة كثيرة لان المكلّف يجب عليه ان يعلم احكام الله المفروضة عليه وعلى ابناء جنسه وهى مأخوذة من الكتاب والسنّة بالنصّ او الاجماع او بالالحاق فلا بدّ من النظر فى الكتاب ببيان الفاظه اولا وهذا هو علم التفسير ثم باسناد نقله وروايته الى النبى صلعم الذى جاء به من عند الله واختلاف روايات القرّاء فى قراءته وهذا هو علم القراءات (ثم) باسناد السنّة الى صاحبها والكلام فى الرواة الناقلين لها ومعرفة احوالهم وعدالتهم ليقع الوثوق باخبارهم ويعمل ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك وهذه هى علوم الحديث (ثم) لا بدّ فى استنباط هذه الاحكام من اصولها من وجه قانونىّ يفيدنا العلم بكيفيّة هذا الاستنباط وهذا هو علم اصول الفقه وبعد هذه تحصل الثمرة بمعرفة احكام الله فى افعال المكلّفين وهذا هو الفقه (ثم) ان التكاليف منها بدنىّ ومنها قلبىّ وهو المختصّ بالايمان وما يجب ان يعتقد ممّا لا يعتقد وهذه هى العقائد الايمانيّة فى الذات والصفات وامور الحشر والنعيم والعذاب والقدر والحجاج عن هذه بالادلّة العقليّة هو علم الكلام (ثم) النظر فى القران والحديث لا بدّ ان تتقدّمه العلوم اللسانيّة لانّه متوقّف عليها وهى اصناف فمنها علم (اللغة) وعلم (النحو) وعلم (البيان) وعلم (الادب) حسبما نتكلّم عليها

كلّها وهذه العلوم النقليّة كلها مختصّة بالملّة الاسلاميّة واهلها
وان كانت كل ملّة على الجملة لا بدّ فيها من مثل ذلك
فهى مشاركة لها فى الجنس البعيد من حيث انّها العلوم
الشرعيّة (1) المنزّلة من عند الله تعالى على صاحب الشريعة
المبلغ لها وامّا على الخصوص فمباينة لجميع الملل لانّها
ناسخة لها وكل ما قبلها من علوم الملل فمهجورة والنظر
فيها محظور فقد نهى الشرع عن النظر فى الكتب المنزّلة
غير القران وقال صلعم لا تصدّقوا اهل الكتاب ولا تكذّبوهم
وقولوا امنّا بالذى انزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم
واحد وراى صلعم فى يد عمر رضى الله عنه ورقة من
التوراة فغضب حتى تبيّن الغضب فى وجهه ثم قال الم
آتكم بها بيضاء نقيّة والله لو كان موسى حيّا ما وسعه
الّا اتباعى (ثم) ان هذه العلوم الشرعيّة النقليّة قد نفقت
اسواقها فى هذه الملّة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها
مدارك الناظرين الى التى لا فوقها وهذّبت الاصطلاحات
وترتّبت (2) الفنون فجاءت من وراء الغاية فى الحسن
والتنميق وكان لكلّ فنّ رجل يرجع اليهم فيه واوضاع يستفاد
منها التعليم واختصّ المشرق من ذلك والمغرب بما هو
مشهور منها حسبما نذكره الآن عند تعديد هذه الفنون وقد

(1) Man. A. et B. رتبت. D. زينت. (2) Man. D. et D. علوم الشريعة.

كسدت لهذا العهد اسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند التعليم كما قدّمناه فى الفصل قبله وما ادرى ما فعل الله بالمشرق والظنّ به نفاق العلم فيه واتصال التعليم فى العلوم وفى سائر الصنائع الضروريّة والكماليّة لكثرة العمران فيه والحضارة ووجود الاعانة لطالب العلم بالجراية من الاوقاف التى اتّسعت بها ارزاقها والله مقدّر الليل والنهار

علوم القران من التفسير والقراءات

القران هو كلام الله المنزّل على نبيه المكتوب بين دفّتى المصحف وهو متواتر بين الامّة الّا ان الصحابة رووه عن رسول الله صلعم على طرق مختلفة فى بعض الفاظه وكيفيّات الحروف فى ادائها وتنوقل ذلك واشتهر الى ان استقرّت منها سبع طرق معيّنة تواتر (1) نقلها ايضا بادائها واختصّت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها من الجمّ الغفير فصارت هذه القراءات السبع اصولا للقراءة وربّما زيد بعد ذلك قراءات اخر لحقت بالسبع الّا انّها عند ائمّة القراءة لا تقوى قوتها فى النقل وهذه القراءات السبع معروفة فى كتبها وقد خالف بعض الناس فى تواتر طرقها لانّها عندهم كيفيّات للاداء وهو غير منضبط وليس ذلك

(1) Man. C. تناثر.

عندهم بقادح فى تواتر القران واباه الاكثر وقالوا بتواترها
وقال اخرون بتواتر غير الاداء منها كالمدّ والتسهيل (1) لعدم
الوقوف على كيفيّته بالسمع وهو الصحيح ولم يزل
القرّاء يتداولون هذه القراءات وروايتها الى ان كتبت العلوم
ودوّنت فكتبت فيمها (2) كتب من العلوم وصارت صناعة
مخصوصة وعلما منفردا وتناقلها الناس بالمشرق والاندلس
فى جيل بعد جيل الى ان ملك بشرق الاندلس مجاهد
من موالى العامريّين وكان معتنيا بهذا الفنّ من بين فنون
القران لما اخذه به مولاه المنصور بن ابى عامر واجتهد
فى تعليمه وعرضه على من كان من ائمّة القرّاء بحضرته
فكان سهمه فى ذلك وافر واختصّ مجاهد بعد ذلك
بامارة دانية والجزائر الشرقيّة فنفقت بها سوق القراءة بما كان هو
من ائمّتها وبما كان له من العناية بسائر العلوم عموما وبالقراءة
خصوصا فظهر لعهده ابو عمرو الدانىّ وبلغ الغاية فيها ووقفت
عليه معرفتها وانتهت الى روايته اسانيدها وتعدّدت تؤاليفه فيها
وعوّل الناس عليها وعدلوا عن غيره واعتمدوا من بينها كتاب
التيسير له ثمّ ظهر بعد ذلك فيما يليه من العصور والاجيال
ابو القاسم ابن فيرة من اهل شاطبة فعمد الى تهذيب ما
دوّنه ابو عمرو وتلخيصه فنظم ذلك كلّه فى قصيدة لغز

(1) Man. C. التمهيل

(2) Man. C. et D. فيها.

فيها اسماء القرّاء بحروف ابجد على ترتيب احكمه ليتيسّر عليه ما قصد من الاختصار وليكون اسهل للحفظ لاجل نظمها فاستوعب فيها الفنّ استيعابا حسنا وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولد (1) المتعلّمين وجرى العمل على ذلك في امصار المغرب والاندلس وربّما اضيف الى فنّ القراءات فنّ الرسم ايضا وهى اوضاع حروف القران فى المصحف ورسومه الخطّيّة لان فيه حروفا كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخطّ كزيادة الياء فى بايييد (2) وزيادة الالف فى لا اذبحنه ولا اوضعوا والواو فى جزاو الظالمين وحذف الالف فى مواضع دون اخرى وما رسم فيه من التاءات ممدودا والاصل فيه مربوط على شكل الهاء وغير ذلك وقد مرّ تعليل هذا الرسم المصحفىّ عند الكلام فى الخطّ فلما جاءت هذه مخالفة لاوضاع الخطّ وقانونه احتيج الى حصرها فكتب فيها الناس ايضا عند كتبهم فى العلوم وانتهت بالمغرب الى بنى عمرو الدانىّ المذكور فكتب فيها كتبا من اشهرها كتاب المقنع واخذ به الناس وعوّلوا عليه ونظمه ابو القاسم الشاطبىّ فى قصيدته الشهيرة على روى الراء وولع الناس بحفظها (ثم) كثر الخلاف فى الرسم فى كلمات وحروف اخرى ذكرها ابو داوود سليمان بن

(1) Man. D. الولدان.

(2) Man. B. بايييد. C. نائيد.

نجاح من موالى مجاهد فى كتبه وهو تلميذ ابى عمرو الدانىّ المشهور بحمل علومه ورواية كتبه (ثم) نقل بعده خلاف اخر فنظم الخراز من المتاخرين بالمغرب ارجوزة اخرى زاد فيها على المقنع خلافا كثيرا وعزاه لناقليه واشتهرت بالمغرب واقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كتب ابى داوود وابى عمرو والشاطبىّ فى الرسم

واما التفسير

فاعلم ان القران نزل بلغة العرب وعلى اساليب بلاغتهم وكانوا كلّهم يفهمونه ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه وكان ينزل جملا جملا وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينيّة بحسب الوقائع ومنها ما هو فى العقائد الايمانيّة ومنها ما هو فى احكام الجوارح ومنها ما يتقدّم ومنها ما يتاخّر ويكون ناسخا له وكان النبى صلعم هو المبيّن لذلك كما قال تعالى لتبيّن للناس ما نزل اليهم فكان النبى صلعم يبيّن المجمل ويميّز الناسخ من المنسوخ ويعرّفه اصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولا عنه كما علم من قوله اذا جاء نصر الله والفتح انّها نعى النبى صلعم وامثال ذلك عن الصحابة رضوان الله عليهم وتداول ذلك التابعون من بعدهم ونقل عنهم

ولم يزل ذلك متناقلا بين الصدر الاول والسلف حتى صارت المعارف علوما ودوّنت الكتب فكتب الكثير من ذلك ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين وانتهى ذلك الى الطبرى والواقدى والثعالبى وامثالهم من المفسّرين فكتبوا فيه ما شاء الله ان يكتبوه من الآثار ثم صارت علوم اللسان صناعيّة (1) من الكلام فى موضوعات اللغة واحكام العرب والبلاغة فى التراكيب فوضعت الدواوين فى ذلك بعد ان كانت ملكات للعرب لا يرجع فيها الى نقل ولا كتاب فتنوسى ذلك وصارت تتلقّى من كتب اهل اللسان فاحتيج الى ذلك فى تفسير القران لانه بلسان العرب وعلى منهاج بلاغتهم وصار التفسير على صنفين تفسير نقلىّ مستند الى الآثار المنقولة عن السلف وهى معرفة الناسخ والمنسوخ واسباب النزول ومقاصد الآى وكل ذلك لا يعرف الّا بالنقل عن الصحابة والتابعين وقد جمع المتقدّمون فى ذلك واوعوا الّا ان كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغثّ والسمين والمقبول والمردود والسبب فى ذلك ان العرب لم يكونوا اهل كتاب ولا علم وانما غلب عليهم البداوة والامّيّة فاذا تشوّفوا الى معرفة شئ ممّا تتشوّف اليه النفوس الانسانيّة فى اسباب

(1) Man. D. صناعة

المكونات وبدء الخليقة واسرار الوجود فانّما يسئلون عنه اهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه (1) منهم وهم اهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى واهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك الّا ما تعرفه العامّة من اهل الكتاب ومعظمهم حمير الذين اخذوا بدين اليهوديّه فلمّا اسلموا بقوا على ما كان عندهم ممّا لا تعلّق له بالاحكام الشرعيّة التى يحتاطون لها مثل اخبار بدء الخليقة وما يرجع الى الحدثان والملاحم وامثال ذلك وهولاء مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وامثالهم فامتلاءت التفاسير من المنقولات عنهم فى امثال هذه الاغراض اخبارا موقوفة عليهم وليست ممّا يرجع الى الاحكام فيتحرّى فيها الصحّة التى يجب بها العمل وتساهل المفسّرون فى مثل ذلك وملوًا كتب التفسير بهذه المنقولات واصلها كما قلناه عن اهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك الّا انّهم بعد صيتهم وعظمت اقدارهم بما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملّة فتلقّيت بالقبول من يومئذ فلما رجع الناس الى التحقيق والتمحيص وجاء ابو محمّد بن عطية من المتاخّرين بالمغرب فلخّص تلك التفاسير كلها وتحرّى

(1) Man. D. يستقبلونه.

ما هو اقرب الى الصحّة منها ووضع ذلك فى كتاب متداول بين اهل المغرب والاندلس حسن المنحى (وتبعه) القرطبىّ فى تلك الطريقة على منهاج واحد فى كتاب اخر مشهور بالمشرق (والصنف الاخر من التفسير) وهو ما يرجع الى اللسان من معرفة اللغة والبلاغة فى تأدية المعنى بحسن المقاصد والاساليب وهذا الصنف من التفسير قلّ ان ينفرد عن الاول اذ الاول هو المقصود بالذات وانّما جاء هذا بعد ان صار اللسان وعلومه صناعات نعم يكون فى بعض التفاسير غالبا (ومن) احسن ما اشتمل عليه هذا الفنّ من التفسير كتاب الكشاف للزمخشرىّ من اهل خوارزم العراق الّا ان مؤلّفه من اهل الاعتزال فى العقائد فيأتى بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له فى آى القران من طرق البلاغة فصار بذلك للمحقّقين من اهل السنّة انحراف عنه وتحذير الجمهور من مكامنه مع اقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلّق باللسان والبلاغة واذا كان الناظر فيه واقفا على المذاهب السنّيّة محسنا (1) للحجاج عنها فلا جرم انّه مأمون من غوائله فليغتنم مطالعته لغرابة فنونه فى اللسان (ولقد) وصل الينا فى هذه العصور تأليف لبعض العراقيّين وهو شرف الدين الطيبىّ من اهل توريز من عراق العجم

(1) Man. D. مجتنبا.

شرح فيه كتاب الزمخشرىّ هذا وتتبّع الفاظه وتعرّض لمذاهبه فى الاعتزال وادلّته يزيفها ويبيّن ان البلاغة انّما تقع فى الاية على ما يراه اهل السنّة لا على مذهب المعتزلة فاحسن فى ذلك ما شاء مع امتاعه (1) فى سائر فنون البلاغة وفوق كل ذى علم عليم

علوم الحديث

وامّا علوم الحديث فهى كثيرة ومتنوّعة فان منها ما ينظر فى ناسخه ومنسوخه وذلك بما ثبت فى شريعتنا من جواز النسخ ووقوعه لطفا من الله تعالى بالعباد وتخفيفا عنهم باعتبار مصالحهم التى تكفّل الله لهم بها قال تعالى ما ننسخ من آية او ننسها نأت بخير منها او مثلها (ومعرفة) الناسخ والمنسوخ وان كان عامّا للقران والحديث الّا ان الذى فى القران منه اندرج فى تفاسيره وبقى ما كان خاصّا بالحديث راجعا الى علومه فاذا تعارض الخبران بالنفى والاثبات وتعذّر الجمع بينهما ببعض التأويل وعلم تقدّم احدهما تعيّن ان المتاخّر ناسخ وهو من اهمّ علوم الحديث واصعبها قال الزهرى اعيا الفقهاء واعجزهم ان يعرفوا ناسخ حديث رسول الله صلعم من منسوخه وكان للشافعىّ رضى الله عنه فيه قدم راسخة (ومن) علوم

(1) Man. A. et B. امتناعه.

الحديث (1) معرفة القوانين التى وضعها أئمة المحدثين لمعرفة الاسانيد والرواة واسمائهم وكيفية اخذ بعضهم عن بعض واحوالهم وطبقاتهم واختلاف اصطلاحاتهم وتحصيل ذلك ان الاجماع واقع على وجوب العمل بالخبر الثابت عن رسول الله صلعم وذلك بشرط ان يغلب على الظن

(1) Les deux manuscrits C. et D. offrent ici une rédaction toute différente. On y lit : من علوم الحديث النظر فى الاسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الاحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط لان العمل انما وجب بما يغلب على النظر صدقه من اخبار رسول الله صلعم فيجتهد فى الطريق التى تحصل ذلك الظن وهو بمعرفة رواة الحديث بالعدالة والضبط وانما يثبت ذلك بالنقل عن اعلام الدين بتعديلهم وبراءتهم من الجرح والغفلة ويكون لنا ذلك دليلا على القبول او الترك وكذلك مراتب هولاء النقلة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم فى ذلك وتمييزهم فيه واحدا واحدا وكذلك الاسانيد تتفاوت باتصالها وانقطاعها بان يكون الراوى لم يلق للراوى الذى نقل عنه وبسلامتها من العلل الموهنة لها وينتهى بالتفاوت الى طريقين يحكم بقبول الاعلى ورد الاسفل ويختلف فى المتوسط بحسب المنقول عن ائمة الشأن ولهم فى ذلك الفاظ اصطلحوا على وضعها لهذه المراتب المرتبة مثل الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب وغير ذلك من القابه المتداولة بينهم وبوّبوا على كل واحد منها ونقلوا ما فيها من الخلاف لائمة الشأن او الوفاق ثم النظر فى كيفية اخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة او كتابة او مناولة او اجازة وتفاوت رتبها وما للعلماء فى ذلك من الخلاف بالقبول والرد ثم اتبعوا ذلك فى الفاظ تقع فى متن الحديث من غريب او مشكل او تصحيف او مفترق منها ومختلف وما يناسب ذلك هذا معظم ما ينظر فيه اهل الحديث وغالبه وكانت احوال نقلة الحديث فى عصور السلف من الصحابة والتابعين معروفة كل عند اهل بلده فمنهم بالحجاز ومنهم بالبصرة والكوفة من العراق ومنهم بالشام ومصر والجميع معروفون ومشهورون فى اعصارهم وكانت طريقة اهل الحجاز فى اعصارهم فى الاسانيد اعلا ممن سواهم وامتن فى الصحة لاشتدادهم فى شروط النقل من العدالة والضبط وتجافيهم عن قبول المجهول الحال فى ذلك

صدقه فيجب على المجتهد تحقيق الطرق التى تحصل
ذلك الظنّ وذلك بالنظر فى اسانيد الحديث بمعرفة
رواته بالعدالة والضبط والاتقان والبراءة من السهو والغفلة
بوصف عدول الامّة لهم بذلك (ثم) تفاوت مراتبهم فيه ثمّ
كيفيّة رواية بعضهم عن بعض بسماع الراوى من الشيخ
او قراءته عليه او سماعه تقرأ عليه وكتابة الشيخ له او مناولته
او اجازته فى الصحّة والقبول منقول عنهم واعلا مراتب
المقبول عندهم الصحيح ثمّ الحسن وادون مراتبها الضعيف
ويشتمل على المرسل والمنقطع والمعضل والعلل والشاذّ
والغريب والمنكر فمنها ما اختلفوا فى ردّه ومنها ما اجتمعوا
عليه وذلك شأنهم فى الصحيح فمنه ما اجتمعوا على
قبوله وصحّته ومنها ما اختلفوا فيه وبينهم فى تفسير هذه
الالقاب اختلاف كثير (ثم) اتبعوا ذلك بالكلام فى الفاظ
تقع فى متون الحديث من غريب او مشكل او تصحيف
او مفترق ووضعوا لهذه الفصول كلها قانونا كفيلا ببيان
تلك المراتب والالقاب وسلامة الطرق عن دخول النقص
فيها (واول) من وضع فى هذا القانون من فحول
أئمّة الحديث ابو عبد الله الحاكم وهو الذى هذّبه واظهر
محاسنه وتواليفه فيه مشهورة (ثم) كتب أئمّتهم فيه من بعده
واشهر كتاب للمتاخّرين فيه كتاب ابى عمرو بن الصلاح

كان فى اوائل المائة السابعة وتلاه محيى الدين النووى بمثل ذلك والفنّ شريف فى مغزاه لانّه معرفة ما يحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة حتّى يتعيّن قبولها او ردّها (واعلم) ان رواة السنّة من الصحابة والتابعين معروفون فى امصار الاسلام منهم بالحجاز وبالكوفة والبصرة ثم بالشام ومصر والجميع معروفون ومشهورون فى اعصارهم وكانت طريقة اهل الحجاز فى الاسانيد اعلا ممّن سواهم وامتن فى الصحّة لاشتدادهم فى شروط النقل من العدالة والضبط بتجافيهم عن قبول المستورين المجهولة احوالهم وسيّد الطريقة الحجازيّة بعد السلف الامام مالك عالم المدينة ثم اصحابه مثل الامام ابى عبد الله محمد ابن ادريس الشافعى رضى الله عنه وابن وهب وابن بكير والقعنبى ومحمد بن الحسن ومن بعدهم الامام احمد بن حنبل فى اخرين من امثالهم (وكان) علم الشريعة فى مبداء الامر نقلا صرفا لا نظرا ولا رايا ولا تعمّقا فى القياس وشمّر لها السلف وتحرّوا الصحيح حتى اكملوها (وكتب) مالك رحمه الله كتاب الموطا على طريقة الحجازيّين اودعه اصول الاحكام من الصحيح المتّفق عليه ورتّبه على ابواب الفقه (ثم) عنى الحفّاظ بمعرفة طرق الاحاديث واسانيدها المختلفة الحجازيّة والعراقيّة وغيرها وربّما يقع اسناد الحديث من طرق متعدّدة وعن رواة مختلفين وقد يتّحد فى بعض

الاحاديث ويتعدّد ويتكرّر الحديث فى ابواب الفقه باختلاف المعانى التى اشتمل عليها (وجاء) محمد بن اسمعيل البخارىّ امام المحدّثين فى عصره فاوسع نطاق الرواية وخرّج احاديث السنّة على ابوابها فى مسنده الصحيح وجمع طرق الحجازيّين والعراقيّين والشاميّين واعتمد منها ما اجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه وكرّر الاحاديث يسوقها فى كل باب بمعنى ذلك الباب الذى تضمّنه الحديث فتكرّرت لذلك احاديثه فى الابواب باختلاف معانيها كما اشرنا اليه فاشتمل كتابه على سبعة آلاف حديث ومايتين تكرّرت منها ثلاثة آلاف وفرّق الطرق والاسانيد عليها مختلفة فى كل باب (ثم) جاء الامام مسلم ابن الحجاج القشيرىّ رحمه الله فألّف مسنده الصحيح اتبع فيه البخارىّ فى نقل المجمع على صحّته وحذف المتكرّر منها وجمع الطرق والاسانيد فبوّبه على ابواب الفقه وتراجمه ومع ذلك فلم يستوعبا الصحيح كله واستدرك الناس عليهما بما اغفلا عن شروطهما (ثم) كتب ابو داود السجستانىّ وابو عيسى الترمذىّ وابو عبد الرحمن النسوىّ فى السنن باوسع من الصحيح وقصدوا ما توفّرت فيه شروط العمل اما من الرتبة العالية فى الاسناد وهو الصحيح كما هو معروف واما من الذى دونه كالحسن وغيره ليكون ذلك اماما للسنّة والعمل

بها وهذه هي المسانيد المعتمدة (1) في الملّة وهي امّهات كتب الحديث في السنّة (2) (ولحق) بهذه الخمسة مسانيد اخرى كمسند ابي داود الطيالسيّ والبزار وعبد بن حميد والدارميّ وابو يعلى الموصليّ والامام احمد قاصدين فيها المسندات عن الصحابة من غير ان يكون محتجّا بها هكذا قال ابن الصلاح وفي الرواية عن الامام احمد انه كان يقول لابنه عبد الله في كتابه المسند وهو يشتمل على احد وثلاثين الف حديث وعن جماعة من اصحابه انّهم قالوا قرأ علينا المسند وقال هذا كتاب انتقيته من سبعماية الف وخمسين الف حديث فما اختلف فيه المسلمون من الاحاديث النبويّة ولم يجدوه فيه فليس بحجّة فهذا يدلّ على ان جميع ما في مسنده يصحّ الاحتجاج به عكس ما قاله ابن الصلاح نقلته من مناقب الامام احمد لابن الجوزيّ (وقد) انقطع

(1) Man. C. et D. المشهورة.

(2) Les man. C. et D. offrent ce qui suit : فانّها وان تعدّدت فترجع الى هذه في الاغلب ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها هي علم الحديث وربّما تفرّد عنها الناسخ والمنسوخ فيجعل فنّا برأسه وكذا الغريب وللناس فيه تواليف مشهورة ثم المؤتلف والمختلف وقد الف النّاس في علوم الحديث واكثروا ومن فحول علمائه وائمّتهم ابو عبد الله الحاكم وتواليفه فيه مشهورة وهو الذي هذّبه واظهر محاسنه واشهر كتاب للمتاخّرين فيه كتاب عمرو بن الصلاح كان لعهد اوائل المائة السابعة وتلاه محيى الدين النووي بمثل ذلك والفنّ شريف في معزاه لانه معرفة ما يحفظ به السنن المنقولة عن صاحب الشريعة.

لهذا العهد تخريج شئ من الاحاديث واستدراكها على المتقدّمين اذ العادة تشهد بان هولاء الائمّة على تعدّدهم وتلاحق عصورهم وكفايتهم واجتهادهم لم يكونوا ليغفلوا شئا من السنّة او يتركوه حتى يعثر عليه المتاخّر هذا بعيد عنهم وانّما تنصرف العناية لهذا العهد الى تصحيح الامّهات المكتوبة وضبطها بالرواية (1) واسنادها الى مؤلّفيها لتتّصل الاسانيد محكمة من مبدئها الى منتهاها ولم يزيدوا فى ذلك على العناية باكثر من هذه الامّهات الخمسة الا فى الاقلّ (فاما) صحيح البخارىّ وهو اعلاها رتبة فاستصعب الناس شرحه واستغلقوا (2) منحاه (3) من اجل ما يحتاج اليه من معرفة الطرق المتعدّدة ورجالها من اهل الحجاز والشام والعراق ومعرفة احوالهم واختلاف الناس فيهم وكذلك يحتاج الى امعان النظر فى التفقّه فى التراجم (4) لانه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسند او طريق ثم يترجم اخرى ويورد فيها ذلك الحديث بعينه لما تضمّنه من المعنى الذى ترجم به الباب وكذلك فى ترجمة وترجمة الى ان يتكرّر الحديث فى ابواب متفرقة بحسب معانيه واختلافها ومن النظر فى تراجمه بيان

(1) Man. C. et D. عن مصنّفها والنظر فى اسانيدها الى مؤلّفيها وعرض ذلك على ما تقرّر فى علوم الحديث من الشروط والاحكام.

(2) Man. D. استغفلوا. (3) Man. C. et D. تنحّله.

(4) Man. D. الفقه وتراجمه. Man. A. et B. النفقة. Man. C. تراجمه.

المناسبة بين الترجمة والاحاديث التى فى ضمنها فقد وقع له كثير من تراجمه خفاء المناسبة بينها وبين الاحاديث التى فى ضمنها وطال كلام الناس فى بيانها كما وقع فى كتاب الفتن فى الباب الذى ترجم فيه بقوله باب تخريب البيت ذو السويقتين من الحبشة ثم قال فى الباب قال الله تعالى واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا ولم يرد على ذلك شئا وخفى على الناس وجه المناسبة بين هذه الترجمة وما فى الباب فمنهم من قال كان المصنّف رحمه الله يكتب التراجم فى المسوّدة ثم يكتب الاحاديث فى كل ترجمة بحسب ما تيسّر له وتوفّى قبل ان يستوفى حشو التراجم فروى الكتاب كذلك وسمعت من اصحاب القاضى ابن بكار قاضى غرناطة واستشهد فى واقعة طريف سنة احدى واربعين وسبعماية وكان قائما على صحيح البخارىّ انه اراد بالترجمة تفسير الآية بان ذلك مشروع لا مقدّر لان الاشكال انّما جاء من تفسير جعلنا بقدّرنا واذا كان بمعنى شرعنا لم يكن لبس فى تخريب ذى السويقتين ايّاها سمعت ذلك من شيخنا ابى البركات البلغيقىّ عنه وكان من اجلّة تلميذه ومن شرح الكتاب ولم يستوف هذا كله فيه فلم يوف حقّ الشرح كابن بطّال وابن المهلب وابن التين ونحوهم ولقد سمعت كثيرا من شيوخنا رحمهم

الله يقولون شرح كتاب البخاريّ دين على الامّة يعنون ان احدا من علماء الامّة لم يوف ما وجب له من الشرح بذلك الاعتبار (واما) صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب فيه واكبّوا عليه واجمعوا على تفضيله على كتاب البخاريّ قال ابن الصلاح انّما تفضّل (1) على كتاب البخاريّ بما وقع فيه من تجريده عمّا مزج به البخاريّ كتابه من غير الصحيح ممّا لم يكتبه على شرطه واكثر ما وقع له ذلك فى التراجم واملا الامام المازريّ من فقهاء المالكيّة عليه شرحا وسمّاه المعلم بفوائد المسلم واشتمل على عيون من علم الحديث ومتين من الفقه ثم اكمله القاضى عياض من بعده وتمّمه وسمّاه اكمال المعلم وتلاهما محيى الدين النوويّ بشرح استوفى ما فى الكتابين وزاد عليهما وجاء شرحا وافيا وامّا كتب السنن الاخرى الثلاثة وفيها معظم مأخذ الفقهاء فاكثر شرحها فى كتب الفقه ألّا ما يختصّ بعلم الحديث فكتب الناس عليها واستوفوا من ذلك ما يحتاج اليه من علوم الحديث وموضوعاتها والمسانيد التى اشتملت على الاحاديث المعمول بها من السنّة (واعلم) ان الاحاديث قد تميّزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح وحسن وضعيف ومعلول وغيرها ميّزها ائمّة الحديث

(1) Man. A. et B. يفضل.

وجهابذته وعرفوها ولم يبق طريق فى تصحيح ما لم يصحّ من قبل ولقد كان الأئمّة فى الحديث يعرفون الاحاديث بطرقها واسانيدها بحيث لو روى حديث بغير سنده وطريقه تفطّنوا الى انه قد قلب عن وضعه ولقد وقعَ مثل ذلك للامام محمد بن اسماعيل البخاريّ حين ورد على بغداد وقصد المحدّثون امتحانه فسألوه عن احاديث قلّبوا اسانيدها فقال لا اعرف هذه ولكن حدّثنى فلان ثم اتى بجميع تلك الاحاديث على الوضع الصحيح وردّ كل متن الى سنده فاقرّوا له بالامامة (واعلم) ايضا ان الأئمّة المجتهدين تفاوتوا فى الاكثار من هذه البضاعة (1) والاقلال فابو حنيفة رحمه الله يقال انه انّما بلغت روايته الى سبعة عشر حديثا او نحوها الى خمسين ومالك رحمه الله انّما صحّ عنده ما فى كتاب الموطا وغايتها ثلثماية حديث او نحوها واحمد بن حنبل رحمه الله فى مسنده ثلاثون (2) الف حديث والكل على ما اداهم اليه اجتهادهم فى ذلك وقد يقول بعض المتعصّبين المتعسّفين ان منهم من كان قليل البضاعة فى الحديث ولهذا قلّت روايته ولا سبيل الى هذا المعتقد فى كبار الأئمّة لان الشريعة انّما تؤخذ من الكتاب والسنّة ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعيّن عليه طلبه وروايته

(1) Man. D. الصناعة.

(2) Man. C. et D. اربعون.

والجدّ والتشمير فى ذلك لياخذ الدين عن اصول صحيحة
ويتلقى الاحكام عن صاحبها المبلغ لها عن الله وانّما اقلّ
منهم من اقلّ الرواية لاجل المطاعين التى تعترضه فيها
والعلل التى يغهص فى طرقها سيما والجُرح مقدّم عند
الاكثر فيؤديه الاجتهاد الى ترك الاخذ بما يعرض مثل
ذلك فيه من الاحاديث وطرق الاسانيد ويكثر ذلك فتقلّ
روايته لضعف الطرق هذا مع ان اهل الحجاز اكثر رواية
للحديث من اهل العراق لان المدينة دار الهجرة ومأوى
الصحابة ومن انتقل منهم الى العراق كان شغلهم بالجهاد
اكثر والامام ابو حنيفة انّها قلّت روايته لما شدد فى شروط
الرواية والتحمّل فاستصعب وضعف الحديث اذا عارضه
العقل القطعىّ فاستصعبت روايته فقل حديثه الّا انه ترك
روايته الحديث متعمّدا فحاشاه من ذلك ويدلّك على انه
من كبار المجتهدين فى علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم
والتعويل عليه واعتباره ردّا وقبولا وامّا غيره من المحدّثين وهم
الجمهور فتوسّعوا فى الشروط وكثر حديثهم والكل عن اجتهاد
وقد توسّع اصحابه من بعده فى الشروط وكثرت روايتهم
وروى الطحاوىّ فاكثر وكتب مسنده وهو جليل القدر
الّا انه لا يعدل الصحيحين لان الشروط التى اعتمدها البخارىّ
ومسلم فى كتابيهما مجمع عليهما بين الامّة كما قالوه

وشروط الطحاوىّ غير متّفق عليها كالرواية عن المستور الحال وغيره فلذا قدم الصحيحان بل وكتب السنن المعروفة عليه لتأخّر شرطه عن شروطهم ومن اجل هذا قيل فى الصحيحين بالاجماع على قبولهما من جهة الاجماع على صحّة ما فيهما على الشروط المتّفق عليها فلا تاخذك ريبة فى ذلك فالقوم احقّ الناس بالظنّ الجميل بهم والتماس المخارج الصحيحة لهم (ثم) من علوم الحديث تصريف هذا القانون فى الكلام على الاحاديث واحدا واحدا فى ابوابها وتراجمها فى تفاسير هذه المسانيد كما فعله الحافظ ابو عمر بن عبد البرّ وابو محمد بن حزم والقاضى عياض ومحيى الدين النووىّ وابن العطّار بعدهما وكثير من ائمّة المغاربة والمشارقة وان كان فى كلامهم على تلك الاحاديث غير ذلك من فقه متونها ولغتها واعرابها الّا ان كلامهم فى اسانيدها بصناعة الحديث اوعب واكثر هذه اصناف علوم الحديث المتداولة بين ائمّة الاعصار لهذا العهد والله الهادى الى الحقّ والمعين عليه

APPENDICE.

Pages 363 et suiv.

Au lieu des six chapitres que j'ai donnés, d'après les manuscrits A. et B., les deux exemplaires C. et D. offrent seulement ce qui suit :

فصل فى ان العلوم والتعليم طبيعىّ فى العمران البشرى

وذلك ان الانسان قد شاركته جميع الحيوانات فى حيوانيّته من الحسّ والحركة والغذاء والكنّ وغير ذلك وانّما تميّز عنها بالفكر الذى يهتدى به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بابناء جنسه والاجتماع المهيّء لذلك وقبول ما جاءت به الانبياء عن الله تعالى والعمل به واتباع صلاح اخراه فهو مفكر فى ذلك كله دائما لا يفتر عن الفكر فيه طرفة بل اختلاج الفكر اسرع من لمح البصر وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدّمناه من الصنائع ثم لاجل هذا الفكر وما جبل عليه الانسان بل الحيوان من تحصيل ما يستدعيه الطباع فيكون الفكر راغبا فى تحصيل ما ليس عنده من الادراكات فيرجع الى من سبقه بعلم او زاد عليه بمعرفة او ادراك (1) او اخذه ممن تقدّمه من الانبياء الذين

(1) Man. D. ادراء.

يبلغونه لمن يلقاه فيلقن ذلك عنهم ويحرص على اخذه وعلمه ثمّ انّ فكره ونظره يتوجّه الى واحد من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته واحدا بعد اخر ويتمرّن على ذلك حتى يصير الحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له فيكون علمه حينئذ بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا وتتشوّق نفوس اهل الجيل الناشئ الى تحصيل ذلك فيفزعون الى اهل معرفته ويجيء التعليم من هذا فقد تبيّن بذلك ان العلم والتعليم طبيعيّ فى البشر والله اعلم

مقدمة ابن خلدون

وهي الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر ...

تأليف

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون

بتحقيق

المستشرق الفرنسي

ا . م . كاترمير

عن طبعة باريس سنة ١٨٥٨

المجلد الثاني

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح
بيروت